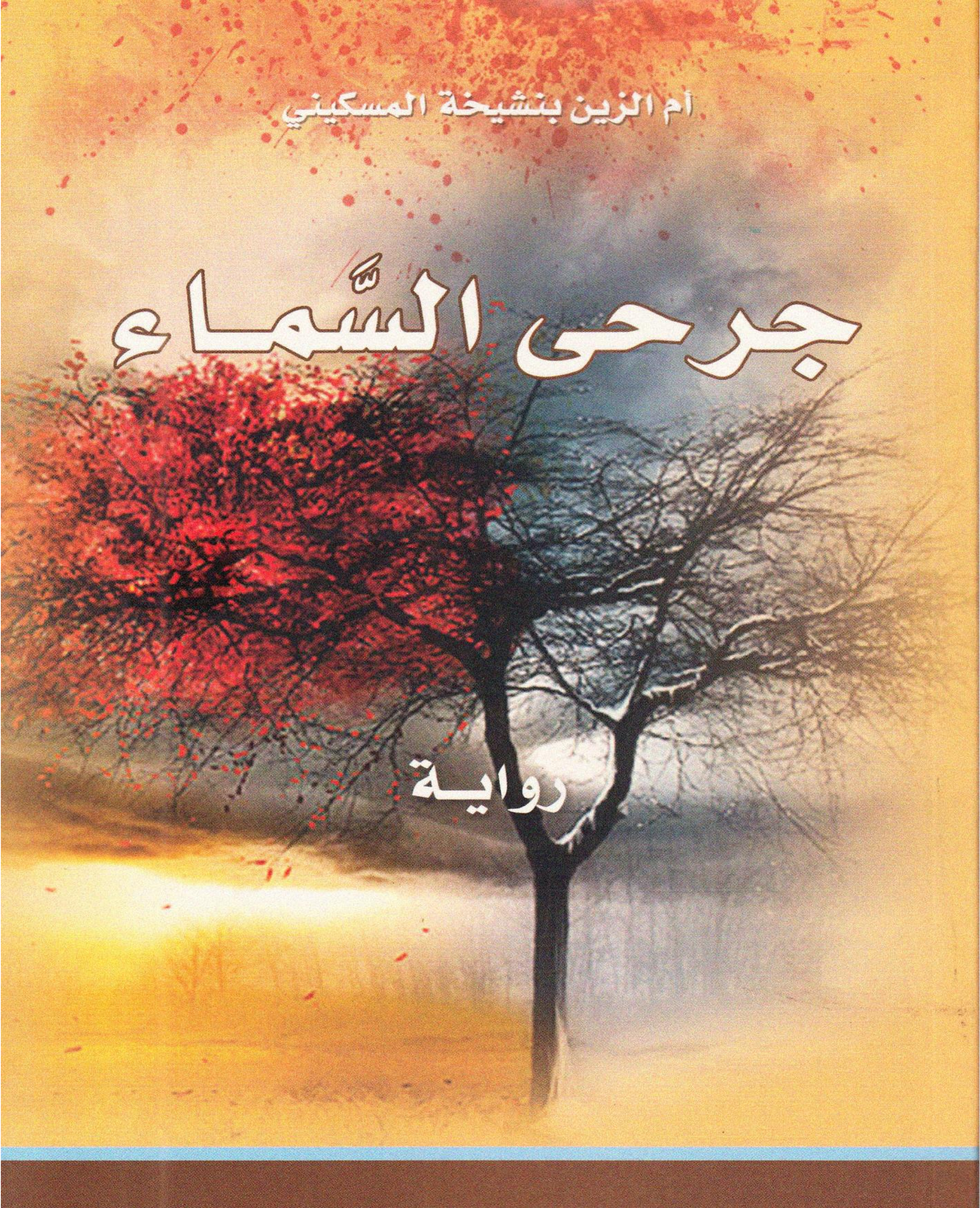


Jadawel جداول

علي مولا

أم الزين بنشيخة المسكيني

جرحى السَّمــاء

رواية

Jadawel جداول

الكتاب: **جرحى السَّماء.. رواية**

المؤلف: **أم الزين بنشيخة المسكيني**

جداول

للنشر والترجمة والتوزيع

الحمرا - شارع الكويت - بناية البركة - الطابق الأول

هاتف: 746638 1 00961 - فاكس: 746637 1 00961

ص.ب: 5558 - 13 شوران - بيروت - لبنان

e-mail: d.jadawel@gmail.com

www.jadawel.net

الطبعة الأولى

أيلول/ سبتمبر 2012

ISBN 978-614-418-134-8

طبع في لبنان

Hamra Str. - Al-Barakah Bldg.

P.O.Box: 5558-13 Shouran

Beirut - Lebanon

First Published 2012 Beirut

تصميم الغلاف: محمد ج. إبراهيم

المحتويات

ضجيج...

كانت تحبّ الشمس إلى حدّ الجنون.. على عكس أهل مدينتها الذين يموتون مع كل شروق ويدبّون كالنمل مع كل غروب.. أحبّوا الليل كما لم يُحبّ الليل أحد.. وعشقت الشمس إلى حدّ طردها من البلد.. منذ ذلك اليوم وهي تتيه على وجهها في الجزيرة.. وقد أقسمت أن تخطف هذا النجم في غفلة من الآلهة الجدد.. أنشدت قبل أن تُداهمها شهوة الأدب...

أنشودة الشمس

أنا شيء من الشمس..
وبعض الشمس يرنو إليّ..
ويغازلني الضوء المسافر في دمي..
والشمس بعض من دمي..
ماذا تبقّى من نورك الراقص
بعد أفول كوكبي..؟
بيني وبيني
حديقة للقاء..
وألف حرف..
وأغنية للسفر..
والعصافير
ضيّعت سماءها..
فنامت على حدّ النهار..
بين الصمت والصخب..
هل قدري أن أتيه في نورك وحدي؟
وأن أهذي..

كلّما انتصرت صحراؤك على التعب؟
ونجم منعوه من النزق..
فبذّر نوره على البلابل
ومات من فرط الضحك..
آه يا ضحكي..
يا ضحكة الأطفال في بلدي..
لماذا توقفت عن العبث..؟
ولماذا نسيت أن تبكي
قليلًا..
على طفولة صدّوها عن اللعب؟
بيني وبيني..
يتأرجح السحاب
على حدّ الجراح..
وغيمة..
منعوها من الوصول إلى بيتي..
في وطني
يموت الموت من فرط الضحك..
وانقسمنا..
أنا وشمسي..
نصفين..
نصف يساوم أصنام مكة

على الشجن..
ونصف رياح من الغرب..
تقطف الورد
بلا نسب..
ويردّون إليّ حلمي
قالوا:
دعك.. ليس بالحلم الذي
عليك أن تحلمي
تريّثي..
سوف نهديك كابوسًا
في حجم الضحك..
ولأجسامكم كفن آخر
ولأحلامكم زمن لم يأتِ..
والوطن يرسب ثانية
ويسقط
في لحم الشهيد
ثمن الوقت..
لماذا أحمل الكابوس وحدي؟
قال بيني:
بلى.. فلتحلمي..
ونسمي السنبلة

ألف عيد وقنبلة

وتكبر قصتنا

مع كل كابوس

وفي كلّ مقصلة..

ألف سحابة..

تهرب الآن من حدود الوقت..

من أجل حمامة..

والقرنفل يخبّىء في أنامله

غمامة..

وفي يدي قصة أخرى..

ولغز..

ومسافر يحمل ظلّه..

لكنه لم ينسَ العمامة..

والشاعر يتسلى بالحروف البديلة

للغضب أسماء كثيرة..

وسوف يموت الكلّ..

في بلدي..

من فرط الضحك..

لنا من الكلمات ما يكفي

كي نضحك طويلًا

من القدر..

توقّفت عن القصيد المباح لأنّ عقربة صغيرة صفراء اللون دبّت بقربها تحثّ الخطى نحو جسم طريّ.. همّت بدهسها.. لكنّها لم تجد حجرًا مستعدًّا لمحاربة عقارب الجزر.. قالت للرواية: «دعيها.. تدبُّ داخل أركانك.. نحتاج إلى سمّها كلّما داهمنا شبح الحاكم العربي الراحل.. دعيها تكبر فيك.. ما زال سمّها غير ناضج لإنجاح الديمقراطية في هذه الصحاري الخالية من البشر..». وتاهَت على وجهها ثانية تبحث عن البحر.. قالوا إنّه سينضب بعد صلاة العصر.. ويعود إلى المدّ بين المغرب والعشاء.

جلست على حافة البحر تصافحه بيديها كلتيهما.. ها هي تعود من غياب طويل.. وهي لا تعرف كم من الأعوام مضت.. ولا تدري أيضًا.. إن كان هذا الزمان يتَّسع للرواية.. سمعت هاتفًا من بعيد.. «هيّا أسرعي واقطفي هذا النهار.. لا تدعي الشمس تُسرَق ثانية من هذه الجزيرة».

ساورها إحساس غريب.. قالت في نفسها «أيُّ رواية بوسعها أن تتحمّل عنّا كل أوجاعنا؟ وكم سنظلّ نُحمِّل الكتابة هزائمنا وفضائحنا؟ ألمْ ينته عهد الكتب بأفول الأنبياء عنّا؟ قرّرت في لمحة البصر أن تلقي بنفسها إلى التهلكة.. وعزمت على أن تنتثر على وريقات الحلفاء الشاحبة المنهَكة المتعبة من فرط تداول أقلام الأنبياء والفقهاء والأغبياء عليها.

وكان البحر يُحاصر جزيرة الرواية محصِّنًا أسوارها من الأبطال الزائفة والشخوص المتملِّقة والأحداث الباردة الميتة.. لكن كيف ستكتبين على الماء.. وهل تأْتمنين الأمواج

الـهـائـجة.. وهـي الـتـي تـبـتـلـع الـكـلـمـات والأشـيـاء والـجـثـث والأحياء..؟ تقدَّمت بكل شراسة نحو ركح العبث والقساوة.. تحمل جثّتها بيدين كفّنتهما بالأسئلة: تُرى هل ستلد الرواية؟ أم ستئدها مرة أخرى؟.. وعاد الهاتف يناديها «حذار من التورط بين الدماء والحروف.. حذار من خيانة نبتة الحلفاء.. فلا عذر للذين اختاروا السير في جنازاتهم عمدًا وعلى مرأى من الجميع...».

ربتت على كتفيه وقالت: «كيف أنتَ يا زعفران.. متى تشرق الشمس على هذي الشواطئ الخالية؟».

طوَّقها بيديه.. وضمَّها إلى صدره طويلًا: «كيف صرت يا أمي؟ لقد انتظرت عودتك طويلًا.. أيّ شمس تطلبين؟ شمس النهار أم شموس الليل؟ أمامك البحر صافيًا رقراقًا، وفوقك السَّماء الوسيعة الرحيمة، فماذا تنشدين أكبر من البحر ومن السَّماء؟»..

لا البحر هو البحر يا ولدي.. ولا السَّماء هي السَّماء.. إني أشعر بضيق كظيم.. كم من البحر يلزمنا من أجل لفظ أوجاعنا، وكم من السَّماء تكفينا كي نحلم مرة أخرى.. ألا ترى أن السَّماء قد سُرِقت منّا يا ولدي؟

أنت تقولين كلامًا صعبًا يا أمي.. هيا معي يا أمي.. لقد اشتقت إليك كثيرًا.. أين ضيَّعت قلبك.. رحلت عنّا أمًّا.. ورجعت كتابًا باردًا.. هيا معي نتمشى قليلًا.. لعل في السير فسحة للنسيان والفرح..

تلملم الأم أعضاءها وتنهض متثاقلة كأنها تستيقظ من

سبات طويل.. يشدّ على يد أمه.. ويخطوان معًا كأنهما إلهان قديمان يعشقان السير الدائم على رمال البحر.. لكنهما لم يكونا وحيدَين. ولم يكن البحر بحرهما ولا السَّماء سماءهما.. ولم يكن أحد منهما يعلم أنّ هذا المكان الذي انبثقا فيه فجأة، وفي غفلة من كل الشياطين والآلهة، قد يتَّسع لشعب برمته..

وفي ركنٍ من أركان الحكاية تلوح لنا الخنساء تنشد شعرًا نكاية في فنّ الرواية وتحاول هي قدر جهدها أن تنسى أنّ بينها وبين الخنساء ثأرًا قديمًا.. طالما تَنافستا على ذاكرة الصحراء.. أيّ منهما تحكيها وأيُّ منهما تستولي على أصنام الحاكم العربي.. لكنّ الآلهة الأنثى كلما تغار كلما تستولي على قلوب الذكور من البشر.. وكلما تنتثر على الورق كلما يسكر أهل البلاط بالحبر.. كانتا تتقاطعان على القصص بأجساد مستحيلة تتلو الكلام وراء الكلام.. صاحت بها الخنساء وقد ضاقت ذرعًا بتملُّقها لليل بعيون لا تصلح إلّا لإغراء الحكّام وإغواء الزمان وتنميق الطغيان بسحر اللفظ والكلام.. «ما هكذا يُحكى عن الزهور يا قينة السلطان وقاهرة ما تبقّى من الرجال.. ابتعدي عن الركح قليلًا.. جرّبي النزق على حدود قصائدي.. لن تسعفك دنيزاد ولا جاريتك دعوب ولا المارد الأسود الذي تخبّئين كوابيسه بين شدقيك.. هيّا اصعدي معي إن استطعتِ إلى أعماق القصيد»...

كم من الأوجاع أنتِ..

كم من الحُبّ.. كم من الياسمين

قرطاج يا علّيسة الغضب

أينعي ترعرعي.. كوني وبالًا على الزائفين
كوني شجرًا..كوني حجرًا
كوني حرفًا ثقيلًا..
كوني نارًا..
كوني نهرًا سلسبيلًا..
صُبّي علينا من رحيق الدهر
واجعلي منّا ورودًا للعابرين..

رجل في الأربعين شبيهٌ بصعلوك قديم يظهر فجأة قاطعًا عليهما الطريق قائلًا بلهفة: «أهلا بك يا أقحوانة ها أنت تعودين.. لقد نذرت من أجلك كل الصلوات والقرابين.. هيا قُصّي علينا الحكاية.. مَن سرق منّا الحب والخبز والشمس؟ وهل ما زلت تحلمين بسماء جديدة للوطن؟».

الوطن..؟ يا لهول هذا الوطن؟ اخفِضْ صوتك أيها اللعين..

يصيح الطفل مذهولًا: «مَن هذا الغريب يا أمي؟ أتُراه صديق قديم؟ ومن أين جاء إلينا؟ وقد علمت قبل حين بموت كل أصدقائك في حريق كبير.. لماذا يقتحم علينا هذا الصعلوك بحرنا وسماءنا وصفاءنا وأوجاعنا؟ وأيُّ معنى للوطن؟».

وقبل أن تتكلّم الأم باغتهم صوت متعَبٌ مثقلٌ بالسنين كأنه حرب البسوس آتٍ من الشرق: «انتظروني.. انتظروني.. لم أعثُر عليكم إلّا بعد طول سفر.. لا تبدأوا الحكاية من دوني.. لا تقطعوني ثانية.. لا تصلبوني.. لا تحرقوني..».

صاحت الأم مرعوبة..: «يا لهول الحكاية.. مَنْ يتحمَّل صلب الحلاج ثانية.. أيُّ كارثة حلَّت برَكْب هذي الرواية.. وبأيّ أعضاء عاد إلينا ثانية؟».

يجيب الصوت ساخرًا: «ويحكم يا حمقى القلم.. أنا هنا منذ مدة طويلة.. ولست الحلاج الوحيد.. كل يوم يُحرَق حلاج.. كل يوم تُقَصُّ أعضائي من جديد.. كفاكم من الفرجة المجانية على حرق الأعضاء.. خذوني معكم إلى المدينة الجديدة.. لا زال لديّ بعدُ آلامي أهديها لكم..

صاح زعفران فزعًا: «مَنْ هؤلاء يا أمي.. ولماذا يطاردوننا؟ وبأي الأعضاء عاد إلينا الحلاج بعد أن قطعت أوصاله إربًا إربًا؟ أهو البعث أم قيامة أخرى؟».

وما كاد ينتهي من سؤاله حتى ظهرت عليهم طفلة صغيرة ذات جمال خرافي.. تحمل باليد خبزًا وبالأخرى كتابًا مقدَّسًا.. وارتمت في أحضان الأم باكية: «اشتقت إليك كثيرًا يا أمي.. ألا تذكريني.. وقد قالوا لنا منذ سنين أنَّك متِّ في حريق كبير.. حمدًا لله.. أنك عدتِ..».

جذب أمه من يدها.. لأنه لا يذكر أنها أنجبت أيّ بنت.. لكن الأم ضمَّت البنيّة وهي تغرق في بحر من الدموع. «إنها ياسمين، أختك يا ولدي تعود إلينا من مكان بعيد.. وسوف تعرف الحكاية حينما تقرأها كاملة على أبنائك..».

أجاب: «هيا يا أمي.. دعكِ من هذا العالم القديم.. إنه ينهار بنا ثانية.. ولنواصِل السير بعيدًا عن الذاكرة.. كفكفي دموعك ولا تفسدي الخلود بدموع الزائلين». ومن بعيد يصل

إلى الأسماع صوت مستهتر من أجل أن ينحت وراءه قامة رشيقة لرجل في منتصف العمر لم تفرغ الفرشاة بعدُ من رسم بقية ملامحه.. إنه يشبه أبا نواس.. عاد يطلب خمّارة أخرى.. حينئذٍ صرخ بأمه وقد فرغ صبره: «سوف يعجُّ هذا المكان بالأرواح والجثث يا أمي.. إني أشعر بالاختناق.. فإلى أين المسير؟ .. أمي.. أمي.. حرِّريني من هذي السَّماء.. ودعي لهم البحر والشمس التي لن تشرق.. هؤلاء عادوا من أجل نسج مؤامرة أخرى ضدَّ الحب والخبز والياسمين...».

صمتَتْ وهمست إلى نفسها: «إنّه نجم.. صديق قديم افترقنا منذ زمن طويل.. ما الذي أعاده إليّ؟ وهل قدري أن ألاقي مَنْ أهرب منهم على خطّ الهروب نفسه؟».

صرخ نجم قائلًا: «هيا يا أقحوانة.. انثري أوجاعك على قلوبنا.. لأجلك عُدْنا جميعًا.. أسرعي اعجِني أجسامنا بلحم الكلمات.. امسخينا على الحلفاء الجائعة.. أسرعي.. هبِّي إلينا.. لقد أوشكنا على الفراغ من قراءة الرواية.. وأنت بالكاد تبدئين..».

قالت: «كم أنت مستهتر يا إلهي القديم.. قُلْ لي كم يلزمك من شهرزاد حتى تنام من جديد.. لن تفلت مني هذه المرة.. لأمسخنّك كائنًا من ورق.. ولتكُن شبحًا إلى الأبد.. معلَّقًا بين الواقع والخيال.. بين الورق والدماء.. بين المدن والسَّماء..» لكنّ هذي السَّماء لا تُغنّي..

ثم التفتَتْ إلى ولدها وأمسكته بيدٍ متوترة، وقالت متنهدة: «لا قدر لنا يا بنيّ غير التوقُّف ههنا.. لن أستطيع

الإفلات من هذا العالم القديم.. فهؤلاء جميعًا هُم قدري.. وهم قدرك وأهلك.. إنهم السكان الأصليون للرواية..».

وعن أيِّ رواية تتحدّثين يا أماه؟.. ألم تسمعي بالحريق الذي التهم كلَّ مكتبات المدينة..؟ ألَم تسمعي أنَّ الدولة قد منعت الاشتغال بالقلم ومنعت بيع الحبر والورق وسمَّمت نبتة الحلفاء.. بحجَّة أنها تحمل فيروسًا خطيرًا على السكان الجدد للجزيرة؟.

عن أيِّ الحرائق تتكلَّم يا ولدي؟ وعن أي سكان جدد؟.. لقد جفَّ القلم.. لكن الكلمات ما زالت تنزف بعدُ في أحشائي.. لا شيء يوقفها.. لا شيء يوقفني.. ابحَثْ لنا عن مدينة أخرى..

أجاب: «لقد جُعت كثيرًا..كفاك هذرًا.. كفاك هذرًا..».

قالت الأم: «وليكن الهذر نثرًا.. وليَكُن نذرًا.. أو سماءً أخرى للجائعين.. وليكُن جوع أطفالي وبالًا على المترفين..».

أجابها وقد ضاقت الدنيا في عينيه: «لم أعُد أفهمك يا أمي.. لقد تغيَّرتِ كثيرًا.. فمن أيّ الغياهب تعودين..؟».

قالت الأم: «خذني يا بنيّ إلى مدينة أخرى.. ولا تَخَف من هؤلاء جميعًا.. إنهم أهلك وذويك.. هربوا جميعًا من المدينة.. وسوف نضحّي بهم قربانًا للورق.. ولنبدأ سويًّا في مسخهم ولفظهم على جدار الكلمات.. ولا يهم حينئذٍ إن كنّا سنُبعَث أم سنولَد أم سنموت مع الكلمات.. ولا كَم سنموت من موتة.. ولا مَن سيَدفُن عظامنا وأسماءنا وأدوارنا.. ولا مَن

سيقطف أفكارنا.. ولا مَن سيشتُل من ترابها.. لقد تعوَّدتُ على الموت وحدي...».

سار الجميع في ركبٍ واحدٍ.. كانوا يحثّون الخطى.. لا أحد يعلم كم سيسير.. ولا إلى أي مكان سوف يذهب.. ساد صمت مريع.. وكان الجميع مذهولين.. تائهين.. وخيّم الظلام.. وتدثَّر الجمع باللون الحالك.. ولا أحد كان بوسعه أن يرى أي شيء غير أجسام تخبط خبط عشواء.. ولم تعُدْ تسمع غير وقع الأقدام المتعبة.. ووقع الأقلام الساخطة.. على سطحٍ هشّ يكاد يسقط بالجميع..

قالت الأمّ: «إلى متى سنظلّ نسير عبثًا يا بنيّ؟..».

أجاب: «صبرًا يا أمّي سوف نصل.. فالمدينة قريبة.. إنَّنا سنُدرِكها بعد انقضاء الليل».

قال نجم متهكّمًا: «بل إن الليل في هذي البلاد لا ينتهي.. كفاك وهمًا أيّها الطفل المدلّل.. ودَعْ أمّك تستريح بسلام. أنت لا تعلم يا صغيري أنَّ المغول قد مرّوا من هنا.. وسرقوا من المدينة كل شيء قمحها ونبيذها ونساءها ونهارها.. سرقوا حتى أحذية سكانها..».

ردّت الأم: «لا تأبَهْ بكلامه.. واصل السير يا ولدي.. فغريب هذا مجرّد مستهتر لا يصلُح إلّا للتهريج وللاستمتاع بقصص النساء..».

صرخ الحلّاج من عمق السواد: «أسرعوا.. احملوني إلى ساحة بغداد من أجل التقاط أعضائي القديمة.. لا تصلبوني مرة أخرى..».

صمت الجميع. فلا أحد منهم كان قادرًا على تحمُّل صلب حلّاج آخر.. لذلك قرَّروا التوجّه نحو بغداد أخرى..

ضحكت وهمسَتْ لولدها: «لا تخَفْ منه يا ولدي.. إنّه مجرّد شبح بلا بَدَن.. لا فعل له غير التهريج.. إنّه سرعان ما سيموت برصاص القلم».

أجابها: «مَن يتقن التحديق في الظلام؟»..

أدركنا المدينة فجرًا.. ووقفنا دفعة واحدة.. بعض يقلّب أعضائه ويحصيها.. وآخر يتفقَّد جرعات خمرة وثنية..

جلس إلى جانبي.. كان مذعورًا..

قال: «لم تخبريني يا أمي أين غبتِ كلَّ هذي السنين ولا أين كنتِ تموتين..»..

أمسكت بيده وقالت: «دعْكَ يا ولدي من حديث المقابر.. دَعْ الماضي في مستودع المتطفلين.. ولنسترِحْ قليلًا من عناء السفر.. نَمْ بين أحضان أمّك.. أراك ما زلت طفلًا.. ألم تَمُرَّ على قلبك كل هذي السنين؟»..

وفجأة وصلت إلى أسماعنا صراخات حادّة وبكاء شبيه ببكاء الأطفال.. هرع الجميع استبشارًا.. لقد مرّ زمن طويل لم يصرخ فيه أحد في هذه المدينة.. غير المآذن.. أو أطفال رضَّع أصابتهم الحمّى.. أو سكّير عربيد سئم من الزواج وأثقلت كاهله الفواتير..

«انظر يا أمي إنها مظاهرة عارمة.. كأنّما أصاب المدينة مكروه فظيع».

ضحك غريب «قد تكون نسائي غاضبة من فراغ الليالي بعد رحيلي عن المدينة». وجلس مفترشًا بعضًا من الأرض الطرية.. يحتسي ما تبقّى من خمرة جاهلية.. أمّا الحلّاج فتاهَ على وجهه في اتِّجاه الصحراء..

وراحت أقحوانة تنشد القصيد: «من يشتري الصحراء غيرك؟».

تقدَّم زعفران مهرولًا بخطى الطفل البريء نحو الصراخ الذي يحتدّ شيئًا فشيئًا كلما اقتربنا أكثر من تخوم المدينة.

لاحَ لنا في الأفق حشود من الأطفال الذين فيهم مَنْ كان رضيعًا يزحف، ومَن كان صغيرًا بالكاد يخطو، ومَن كان طفلًا يجري ويتعثّر.. اقتربنا أكثر.. واحتدّ البكاء.. صرنا جميعًا إزاء سمفونية بكائية ذات ألوان عديدة.. نغمات قُدَّت من بكاء.. إيقاعات كان بوسع زعفران الذي تربّى طويلًا على فن الموسيقى، أن يميِّز فيها بين مقام النهوند ونغمة موسيقى موزار أو بيتهوفن أو فاغنار.. وكان في بعض البكاء شجن شرقي شبيه أحيانًا بعمق صوت أم كلثوم وأحيانًا بحدّة صوت فيروز.. أو بصفاء صوت ماجدة الرومي.. أو بشجن صوت آمال الحمروني..

في هذه المدينة يُترك الأطفال وحيدين يا أمي.. هم يعتنون بأنفسهم دون مساعدة الكبار لهم.. تقدمت الطفلة ياسمين من جموع الأطفال في لهفة.. وتعرّفت لتوّها على حلمي.. طفل في الخامسة من عمره كان يقود مظاهرة الأطفال..

قالت في سرور «إنه حلمي يا أمي.. صديقي القديم، قضيت معه طفولتي الأولى في مسجد ريّان بمدينة قرطاج الجميلة.. ألا تذكرين مدينتنا يا أمي؟؟».

أجابت الأم مذعورة كمَنْ يتذكّر مصيبة كبرى «قرطاج مدينتنا.. قرطاج فضيحتنا.. خبئي جيدًا هذا السر في أحشائك يا بُنيتي.. حذار فنحن نقترب من الثكنة المركزية..».

كم من الأوجاع أنت...

صاح زعفران مبهوتًا «مسجد ريّان؟؟ أهو بهو لتربية الرضّع ولعَبث الصغار؟؟ يا لك من طفلة غبية.. ألا تعرفين أنَّ المساجد ليست بيوتًا يلعب فيها الأطفال؟؟».

«أنت لا تعرف شيئًا عن هذه المدينة» قالت ياسمين.. جذبته بقوة «هيّا بنا يا أخي.. لقد تبدَّلت كل الخرائط.. هنا تنبت ورود جديدة».

تقدَّما معًا في لهفة وحبور نحو الأطفال يحضنانهم ويهدِّئان من روعهم.. خَفَت البكاء ما عدا بعض الرضّع الذين يرفضون كل أشكال المصالحة مع العهد القديم.. وجلست الأم على الأرض تراقب طفليها من بعيد.. فهي تعرف كل الحكاية.. ولا تدري بعد من أين تبدأ.. وهل هناك ضرورة لأن تقصّ علينا أي شيء.. وكانت تعرف أيضًا أنَّ في الأمر أكثر من حكاية.. وأنَّ ما تكتبه ليس رواية... وأن هناك كارثة تهدِّد الجميع.. لكنها فضَّلت الصمت وتأجيل ما يحدث حتى لا تؤلم هذي الكائنات الهشَّة التي قُدّت من قلم ومن نار..

قال حلمي لياسمين: «ألَمْ تسمعي يا صديقتي ما الذي

حلّ بهذه المدينة..؟ لماذا رحلت وتركتِني وحدي مع هذه الكائنات الصغيرة التي لا تملك غير الصراخ؟ هذا يطلب حفّاضّة وآخر يبكي ألمًا في ضرسٍ لم يأتِ.. وآخر يطلب حليبًا أو مصّاصة.. وأخيرًا دفعوا بي إلى الخروج في هذه المظاهرة.. إنهم يحتجّون وإنهم غاضبون وهم يرفضون أيّ إصلاحات لجهاز الطفولة.. تعبت يا ياسمين.. ولقد أتعبني تمرُّد هؤلاء الأطفال الذي لا ينتهي».

أجابت ياسمين مستغربة: «عجبًا يا صديقي.. ومخازن البسكويت والحلوى والحليب.. وكل المؤونة التي جمّعناها معًا.. أين ذهبت؟ هل نفدت بهذه السرعة؟؟».

«عن أيِّ حلوى تتكلمين.. لقد استولوا على كل المؤونة.. وصادروا كلّ أملاك الأطفال.. ألم تسمعي أنَّ صناعة الحلوى قد مُنعت مرة واحدة؟ لذلك نظَّمنا هذه المظاهرة.. إن الأطفال يحتجّون على الحلوى يا ياسمين..».

صاحت في هلع «الحلوى.. ولماذا يمنعون الحلوى يا حلمي؟ وكيف تكون المدينة بلا حلوى؟ إنها الكارثة».

«قالوا لنا: إن نبتة السكر قد هلكت بسبب فيروس خطير.. وقالوا أيضًا أنَّ في الحلوى الكثير من الوعد بالسعادة.. وقالوا أيضًا أنَّ الحلوى تربّي الأطفال على الطمع في الآخرة.. لكن الأطفال لا يهمُّهم الأقوال.. بل يصرّون على طلب الحلوى.. إنهم يحتجّون منذ شهرين..».

قاطعها زعفران في لهفة: «أنتم في حالة احتجاج منذ

شهرين.. ما أجمل هذه المدينة.. وما أروع أن تصرخوا ودون أن يمنعكم أحد. دعوني أنضمّ إليكم..».

أجابت أخته في سخرية: «لا تكن مستبشرًا إلى هذا الحدّ يا زعفران.. فأنت ما زلت لم تعرف بعدُ نواميس المدينة.. هيّا نذهب أبعد من هذا الحشد.. ولتتعرَّف أكثر على هذا العالم الجديد...».

غلبها النعاس ثانية.. كانت مثقولة القوى.. مثقلة كأنها الدهر.. كم من التعب مرّ بهذا الجسد.. ولم تذكر أيّ الأوجاع أقرب إلى قلبها.. لكنها شعرت بأنَّ آلامها أكبر من عقلها الصغير.. ومع ذلك لم تكن تدري أَحِلمٌ هي أم هي كابوس.. هل هي ذات ثوابت أم ذاكرة من أجل النسيان.. ولم تكُنْ تدري حتى كم هي.. وهل هي شخص أم ذات أم فرد.. هل هي مواطن أم رعاع من قطيع.. أم هي شعب وقلب وحلم.. بل هي وطن.. اختلطت عليها الصور.. غاصت أقحوانة في سبات عميق.. لكن الرواية لم تَنَمْ.. انهمرت الأحلام على خيالها المنهك من فرط تداول الصور.. فتقاطعت في مساحة نومها أقدار غريبة.. فهذه الخنساء جاءت ثانية.. لكنها لم تأْتِ لتبكي صخرًا إنّما من أجل طرده من المدينة ودفنه مرة أخرى.. وهذه البسوس عادت بِناقة أخرى.. وفي ركن بعيد تظهر عائشة باحثة عن نبيّ جديد.. وفي مكان قَصِيٍّ من الحلم يظهر المعري في معرة النعمان وقد استرجع بصره.. وعاد يبحث له عن عروس من القصيد.. أمّا شهريار فتَراه عاد مخصيًّا وقد هجرته شهرزاد إلى ألف ليلة من الأعراس التي لا تنتهي..

استيقظت في فزع.. هرعت تتحسَّس أعضاءها. إنها فعلًا هنا.. لا أحد بوسعه أن ينكر عليها ذلك.. إنّها حيّة بلحمها وعظمها وأنفها.. اطمأنَّت قليلًا لهذا الخبر السعيد.. وقرَّرت أن تهدِّئ من روعها.. نعم هذا الأنف هو فعلًا أنفي.. إنني أذكره جيّدًا.. عشت به حياتي كلها.. لقد كان أجمل ما في وجهي.. وهذي الشفاه.. كم قبّلت من القُبل.. وكم منحت من الحنان والدفء.. كانت حبيبة. وكانت زوجة وكانت أنثى. وكانت أمًّا.. وهاتان اليدان كم عجنت من الخبز وكم طبخت من الأطباق الشهية.. وكم شدّت على الأيادي.. وكم أحبّت وكم داعبت وكم كتبت وكم صبّت من رحيق الدهر على القلوب المتعَبَة.. وهذه الأصابع.. مرحى لمن داعبها.. ومرحى لمن كان صادقًا مع أناملها الساذجة.. نعم إني أذكر جيّدًا كلَّ مَن مرّ بهذه الأعضاء.. وكل القصص التي تقاطعت على مساحة هذا الجسد.. وهاتان الساقان كم سارا بي وكم من الثنايا ومن الخطى.. كم من الجنازات شيّعتها.. وكم من الأعراس رقصت فيها.. وكم من الجثث ركلت.. نعم.. لقد استعملتها للركل أيضًا.. فمرحى لكلِّ مَن مرّ بها حبًّا أم ركلًا أم عرسًا أم دفنًا..

وهذا اللسان.. ليس بوسعك أن تنسيه يا أقحوانة.. هو فعلًا لساني أو هو أنا باختصار عنيد.. كم غضب هذا اللسان وكم شتم من النساء والرجال.. وكم كذب وكم كتم وكم تملّق.. وكم كان ساذجًا وثرثارًا.. وشرسًا.. كم خفْت من هذا اللسان.. لم يكن يستشيرني أبدًا.. فوضويًا.. لا يبالي بالعواقب.. وهذا الوجه كم حمل عنّي أوجاعي.. كم تقلَّب مع

الزمن.. كم خبّئت في تجاعيده من فضائح هذي المدينة.. ما أثقل أعضائي.. لقد فعلت بها الكثير.. ولم تكن تتحمَّل أكثر من جسد.. لكنني فرضت عليها أكثر من حياة.. سكتت عن النثر فقامت القصيدة تنشد من شقوق الروح القديمة لخنساء العرب:

من أساء إلى الزهور بعدي؟..
يدي جاءت إليّ تتعثّر في الوحل
وتباطَأت أصابعي في الوصول إلى الحرف
لماذا تأخّرت في الحضور إلى جسمي
هنا قتلوا كل عصافيري
وأنتِ بالكاد تشهدين على السلخ؟؟
ورحيق الروح يتنهّد بين الجرح والجرح
فماذا تصنعين بهذا الوجه؟؟؟

وبينما كانت بصدد لملمة أعضاءها، يظهر عليها شهريار في حلمها.. أغراها بالنعاس ثانية حتّى يتمكّن من أعضاءها.. ضمّها إليه وقال: «ماذا تفعلين هنا يا مَن تجمَّعت فيها كل نساء المدينة؟ أليس بك شوق إليّ؟ هلمّي نروي حكاية جديدة.. هلمّي بنا إلى ليلة ليست ككلّ الليالي..».

ضحكت.. وأحسَّت حينها أنها تضحك للمرة الأولى منذ زمن طويل.. استبشرَ شهريار وهلّل وصاح بها: «ما أجملك وأنت تضحكين.. عودي إليّ حبيبتي ولا تصدّقي ما يدور عن رجال المدينة..».

صاحت في تهكّم: «هيهات يا شهريار الحكاية.. ألمْ تسمع بما يفعلون بالرجال في هذه المدينة؟.. لقد تمّ إخصاؤهم واحدًا واحدًا.. قبل قليل رأيتك في منامي مخصيًّا تمامًا وقد هجَرَتك كلّ نسائك التي التَهَمْت نهودهن.. وتلك اللاتي وَأدتهنّ قبل أن تنتهي الحكاية.. لستَ سوى روح تائهة يا شهريار.. روح بلا بدن.. عُدْ إلى حكاياتك التي لم تعد تجدي نفعًا.. فلا معنى لليالي بعد الآن..».

أجاب شهريار في غضب: «أيّتها المرأة الحمقاء.. لست سوى امرأة.. لذلك لن تفهمي مكر شهريار مهما كان جمالك.. أنت بدن بلا روح.. ألا تعلمي أنني أمكر من خصّائي المدينة.. بل وأمكر من كلّ الدول.. لقد نجوت بفحولتي. وذلك بأن خبّأت نفسي في ثياب امرأة.. نقاب جاهليّ قد أنقذني.. لقد صرت بذلك آخر الرجال في هذه المدينة.. إنّي الرجل الأخير.. هيّا يا أنثاي الجميلة لا تبذّريني سُدى.. ضمّيني إليكِ.. فلا زال لديّ بعض الليالي..» ضحكَت.. وتلفَّتت عنه.. وسارت باحثة لها عن ثوب جديد.. أمّا عن شهريار.. فخطرت بباله فكرة أخرى..



غزل مؤقت..

يحثّان الخطى نحو المدينة المجهولة.. ولا علم لهما إن كانا بصدد التوجُّه نحو المستقبل أم بصدد السقوط في الماضي.. لا يهمّ.. همست سطور الرواية.. فلا زمن للحكايات..

كان قلبه يخفق بسرعة فائقة.. لقد كان يحلم بمدينة جميلة.. مدينة فيها الحبّ وفيها العدل.. وفيها الناس يرقصون.. لكن ياسمين كفّت عن الحلم.. لأنها تعلم ما حدث وما لم يحدث.. تعِبا من طول الطريق.. قال «لنبحث عن مقهى نشرب فيه عصيرًا أو قهوة.. علينا أن نرتوي بعد عطش الطريق».

ضحكت وقالت «لكن القهوة ليست من نواميس المدينة.. هذه مدينة لا نشرب فيها غير الماء».

صاح «أيُّ مدينة هذه.. منعت كل المشروبات ومنعت الحلوى.. يبدو أنها مدينة لا تَعِدُ بشيء.. هل نحن في حلم أم في كابوس.. أم هو مكر الأقدار؟».

صمَتَ الاثنان معًا.. وواصلا السير في اتِّجاه السور الكبير للمدينة. كان يبدو سورًا عظيمًا يمتدُّ في كبرياء ساخرًا من الزمن ومن أوهام البشر.. أمّا باب المدينة فبدا بابًا حديديًا

ضخمًا جدًّا أعظم من جبروت كل الطغاة الذين حكموا هذي المدينة.. قال في نفسه: «ماذا وراءك أيها السور العتيّ؟ ماذا تخبّئ عنّا وماذا تحجب عن أعيننا البائسة من فضائح هذه المدينة؟ تزحزح قليلًا أيّها السور العتي.. تزحزح عن عيوب هذا الوطن.. دعه يتعرّى قليلًا.. لا تلملم مهازله مرّة أخرى».

اقتربا من الباب الكبير لكنه كان مغلقًا.. صاح فزعًا «كيف ندخل مدينة غلَقَت دوننا أبوابها؟».

ضحكت وشدّت على يدي أخيها وتقدّمت نحو الباب بخطى ثابتة. قالت في صوت مرتفع «افتحن الباب يا حارسات المدينة.. اليوم جئتكنّ بمن يزرع الحلم في قلوبكنّ الباردة.. جئتكنّ بالفتى الذي سينقذ المدينة من المارد الأسود.. جئتكنّ بمَن سيكتب لكنّ ملحمة الربّات البحرية ويعيد إلينا نبتة السكَّر».. انفتح الباب للتوّ وبرزت وراءه قامات ثلاث رشيقة.. وشفاه محمّرة وعيون كحيلة..

اندهش من أمر مدينة تحرسها النساء ويثور فيها الأطفال وتُمنع فيها الحلوى وتُفتَح فيها المقاهي، لكن بلا قهوة.. صاح مبهوتًا «كيف توكلون أمر مدينتكم إلى النساء؟ أين رجال المدينة؟».

لم تجبه.. جذبته من يده وسارا في اتِّجاه وسط المدينة.. حمقاء هذي المدينة..

ومن بعيد أبصرا بحريق هائل.. حريق أصاب المكتبة الوطنية.. أكبر مكتبة في البلاد.. مبنى جديد صُمّم بعقول يابانية.. هدية إلى تونس.. ومن بعيد أبصرا بأوراق لا تحصى

تتطاير يمنة ويسرة.. منها من يتشظى بنيران الحريق ويصير إلى دخان كثيف.. ومنها مَن استطاع الإفلات من النار.. أسرعا في هلع نحو الحريق.. لكنه تذكّر أنه عليه أن يعود إلى أمّه التي نسيها على أسوار المدينة..

ومن بعيد لاح طيف الخنساء على الركح.. جاءت تعلن عن ألف قتيل سقطوا في شوارع الثورة:

فضِّية اليدين تخبّئ في كفّها

ألف سؤال من طين..

مدّت أناملها إلى عطر الياسمين

بذرته عشقًا فتاةَ النهار عن كل المصلّين..

وياقوتة مرّت إلى القلب

وألف قتيل..

أرجواني دمُه..

نسي لونه

فنام الأقحوان على حافة المستحيل...

فركت عينيها وحدّقت حواليها.. سمعت ضجيجًا.. أبصرت بفرقة من الشبّان اليافعين يعزفون موسيقى غربية صاخبة.. المكان يعجّ بالحركة والضجيج والراقصين.. وأضواء بكل ألوان الطيف تتلاعب بالجميع.. كلها أجسام تتلوّى وتنحني وتقفز راسمة لوحات مثيرة.. فهمت أنها قد تكون الآن في ملهى ليلي للمراهقين.. ما الذي أتى بها إلى هنا؟ ومن أجل أيّ قضيّة؟ لم

تكن تعلم شيئًا غير أنها معلّقة بين الحلم والواقع.. على حافة قد تفتح على الأفق وقد تدفعها إلى الهاوية..

نساء عاريات تمامًا ورجال يلبسون جلابيب طويلة وعمامات.. والكل يرقص.. لا أحد يهتمّ بوجودها.. والأرجح أنْ لا أحد انتبه إلى دخولها إلى المكان.. فجأة تذكّرت أمرًا مّا.. لقد دُعيت منذ يومين إلى عرسٍ وثنيٍّ.. قد يكون آخر زواج لآخر ملوك العرب الأوائل.. وهي مكلَّفة تحديدًا بأن تقصَّ علينا الحكاية.. لكنها لا تعرف هل بوسعها أن ترقص مثل الجميع.. وأن تشرب.. وأن ترغب.. وأن تسعد.. أم هي مجرد تعلّة لكتابة رواية يسعد بها الآخرون.. هل تُغريها شهوة الأدب أم شهوة الشبق.. ولمن ستكتب في زمن قحط السرد.. وعلى مَن ستقرأ قصتها؟ قصة قد نسعد بها وقد نتعَس وقد نرقص على وقع كلماتها.. وقد نسخط عليها.. ونبكي الأدب.. ونشمت في فشلها مرتين مرة لأنها تكتب موتها ومرة لأنها تقتل الأدب.. وهي لا تدري أيضًا إن كانت ستزرع حلمًا أم لغمًا.. وهي مع كل ذلك لا زالت تصرُّ على تلبية دعوة إله الخمرة الوثنية.. لذلك بالضبط هي هنا.. في خمّارة البلد تطلب رسمًا حيث يطلب الآخرون كأسًا..

جلست إلى جانب شابّ وسيم زاده الجلباب العربي والعمامة هيبة وعبقًا.. طلب لها كأسًا.. بادلته قُبلة عشق.. انتشى بها وضمّها إلى صدره المخمور.. سألته: «عرس مَن هذا الذي نحن فيه؟» أجاب: «إنه عرسنا يا حبيبتي». صمتت.. مذعورة..

قالت: «لكنني لست متهيئة لذلك».

قال: «لا يهمّ». دعاها إلى الرقص.. لكنها كانت تمتنع عنه.. جذبها إلى الركح بقوة.. «ارقصي حبيبتي.. لم يتبقَّ لنا غير الرقص من أجل أن نحبّ ومن أن أجل أن نحيا في بلادٍ هجرَتْها كلّ أشكال الحلم والمتعة الأخرى..» لقد كانت تعرف جيّدًا عمّ يتحدث.. صمتت وانساقت بساقيها المُتعبتين إلى ركح الحكاية.. كانت ترقص بجسدها.. لكن روحها كانت تائهة بعيدًا في أعماق زمنٍ هي الشاهدة الوحيدة عليه بعد أن وقَع تسميم كل سكان مدينتها.. في حين تناغم جسمها مع الحبيب الراقص..

طفقت روحها تنثر الكلمات يمنة ويسرة..

احلمي إن استطعت...

أطلّت برأسها من شبّاك الشرفة التي كانت تسكنها وسط المدينة.. كان الوقت ليلًا متأخرًا.. وقد خيّم الصمت على الأزقّة والأنهج.. والعمارات المتطاولة.. كل الناس نيام.. ولم تكن تنظر إليها غير الأضواء العمومية.. ولم تكن تسمع الأصوات غير صراخ الرضّع أو شتائم يتبادلها بعض روّاد الخمّارة في ساعة متأخرة من الليل..

وفجأة سمعت صوت طلقات نار.. ثم صوت صراخ حادّ.. وبعده خيّم الصمت على المدينة من جديد..

لقد عادوا ثانية إلى اعتقال الشبّان الذين ما زالوا يزاولون خلسة عادة حمل القلم.. أطفَأت نور شرفتها في توتر واحتقان وعادت إلى الداخل وفي قلبها حسرة عميقة.. فمنذ أسبوع فقط

أصدر قانون يمنع مِن حمل القلم مهما كان السبب.. للكتابة أو للرسم أو حتى لكحل العين. أو قلم أحمر الشفاه.. وقضى المرسوم الرئاسي بأن تُمنع ممارسة الكتابة منعًا باتًّا على كل سكان المدينة.. استلقَتْ على السرير.. وكان زوجها إلى جانبها يغطّ في نوم عميق..

كانت بالتأكيد ليلة عُرسها.. لكن العريس نام قبل الأوان.. أمّا هي فكانت بصدد مغامرة أخرى..

مشَّطوا المدينة ليلًا...

يوم يمرّ.. لكنه لم يمرّ هذه المرة بالطريقة نفسها.. كانت المدينة هادئة.. إلّا من صخب صمت لا أحد يدري متى سيجد طريقه إلى الشارع الكبير..

استيقظ محمّد باكرًا.. كان في هلع كأنه قد نسيَ صلاة قديمة.. أو كأن إلهه لم يأتِ بعدُ من حَجٍّ طويل.. تذكّر أنّ عليه واجبًا يوميًّا تُمليه عليه فاقة وقلة ذات اليد التي يعاني منها منذ زمن طويل.. دفع بعربة الخضر بتوتّر وتوجَّه نحو السوق.. وفي قلبه قصّة كبيرة.. هي قصّة سوف تمتدّ إلى قلوب كل الناس.. وفي جسمه آخر نبضات الروح.. أمّا عن أحلامه فكانت هاربة إلى نار أخرى. كيف سيقضي يومه؟ هل سيبيع كل الخضر بأسرع وقت؟ أم سوف يكون عليه أن يتحمّل عناء انتظار يوم كامل بين البصل والبطاطا وطماطم أتعبَها الحرّ وطول الطريق؟

كان يمشي بتؤدة دافعًا بعربة الخضر إلى السير نحو السوق.. متمنيًا لو سارت لوحدها بساقيه.. من أجل أن

يستأنف نومًا صباحيًّا حُرم منه منذ تأبَّط شرّ هذه العربة.. تُرى هل أحبّته يومًا؟ هل أحبّت أن يكون هو بالذات صديقها المؤبّد؟ ألم يكن في وسعها أن تكون على ملك شابّ آخر أكثر وسامة وتفاؤلًا وإقبالا على الحياة وعلى محبّة الخضر؟

تذكّر يومه الأول معها.. كان اليوم جمعة.. التقى بصديقه صالح في مقهى الأمل.. تبادلا أطراف الحديث طويلًا حول قهوة يتيمة شاحبة المذاق.. فاترة منهوكة مثل روّاد هذا المقهى الذي يجمّع يوميًّا كل المعطّلين عن العمل من أصحاب الشهادات العلمية.. كلّ وقصته وكلّ يأتي من أجل أن يشتكي حاله وحال شبّان المدينة..

يومها قرَّر البوعزيزي أن يشتغل بائع خضر متجوّل.. ويومها بدأت قصته مع العربة ومع العالم برمّته.. عربة سيظلّ يدفعها إلى أن تدفع به وبنا نحو مصير لم يكن بوسعه أن يتنبّأ بمداه الأقصى..

قال صالح: «لقد تخاصمت البارحة مع أبي وقال أنه لم يعُد قادرًا على تأمين مصروفي اليومي وسجائري.. وطلب مني أن أشتغل في أقرب وقت حتى وإن اقتضى الأمر أن أعمل جامعًا للقمامة..».

أجابه: «أتقصد أنك ستشتغل بشهادة الأستاذية في الرياضيات زبّالًا؟».

صاح به صالح: «وما له الزبّال يا أخي.. إنه يكسب قوْتَه بعرق جبينه.. ألستُ متخصِّصًا في علم الجمع والطرح.. فلأجمع القُمامة بدلًا من المكوث الفارغ في المقهى وجمع

أخبار التعاسة والفقر.. ولأكُن جمّاع زبالة في مدينة تدفع بأبناءها إلى مزبلة التاريخ».

تخاصما وافترقا.. ومنذ ذلك اليوم صار صالحًا جامع قُمامة.. أمّا هو فقرَّر أن يصير بائع خضر متجوّلًا وأن يشتري عربة للغرض هي العربة ذاتها التي هو الآن بصدد الدفع بها نحو طريق مجهول.



الشهداء يندمون...

أيقَظَت زوجها وكانت على عجلة من أمرها.. فتح عينيه مبهوتًا كمن يستيقظ من حلم كبير وبادرها قائلًا: «صباح الخير حبيبتي. ألا يُفترَض بنا أن نكون عرسانًا.. هيّا نكمل ليلتنا التي نسيناها.. ماذا حدث كي نغفل عن يوم عرسنا؟».

تظاهرت بأنها لم تسمع شيئًا.. وحثّته على النهوض من أجل مهمّة مستعجلة.. هي نفسها لم تكن تخطِّط لها.. إنما حلمت حلمًا مستحيلًا.. ارتدت ملابسها وخرجت تحثّ الخطى.. لا شيء يدور في ذهنها غير أنّها مدعوّة إلى المشاركة في حدث سوف يبدِّل وجه القدر في هذي المدينة.. اتَّجهت مباشرة نحو الشارع الرئيس..

كانت تحثُّ الخطى نحو قلب المدينة.. والأصوات تتعالى من كل صوب.. لم تكن تعرف أنها بصدد السير نحو ذلك اليوم الذي سقط فيه ابنها الأصغر شهيدًا برصاص البوليس..

وفي الجهة الأخرى من الرواية يلتحق زعفران وياسمين بالحريق الذي شبّ بمقرّ المكتبة الوطنية.. هرع وهو يصرخ هلعًا: «يا للهول يا أخيّتي.. إنهم يحترقون.. كلّ القرّاء يحترقون بالداخل.. وهم الآن يتفحَّمون.. أسرعي إنّ أمي

معهم.. لقد غادرت البيت صباحًا في اتِّجاه المكتبة.. يا إلهي.. أمي تحترق..».

صاحت باكية: «أمي.. أمي.. بالكاد رأيتك.. وبالكاد سُعِدْت بالعثور عليك.. كيف تغيبين ثانية عنّي.. يا إلهي..».

سقطت على الأرض في بكاء يشقُّ القلوب.. لقد أتى الحريق على كلِّ المكتبة.. وجاءت سيارات الحماية المدنية.. لكنها وصلت كالعادة متأخِّرة ولم يتبَقَّ لها غير جمع شظايا الجثث المتفحمة.

هرِع زعفران نحو بعض الصفحات المتناثرة المنهكة التي استطاعت أن تنجو من الحريق.. طفق يجمعها فرحًا بما تبقّى من المكتبة.. بعض من صفحات كتب صمَدَت في وجه الحريق. حرص على جمعها ولثْم جراحها كمَنْ يحرص على إنقاذ ضحايا حرب أو ناجين من الغرق.. لم يكن يعلم من أيِّ الكتب أفلتَتْ هاته الصفحات اليتيمة.. ولا ما هو القدر الذي يجمع بينها.. ولم يكن يفرِّق بينها ولا يفضّل أي منها عن الأخرى.. لم يكن يهمّه أن يضمّ صفحة من قرآن العرب إلى صفحة من كتاب رأس المال لماركس.. ولم يكن يهتمّ إن تعانقت صفحة هاربة من رواية لكافكا بقصيدة مديح الظلّ العالي لدرويش.. ولا يبالي حين تجامع إحدى الفتاوي السلفية حول تعدّد الزوجات بيانًا سياسيًّا للنساء الديمقراطيات..

أما عن ياسمين.. فلم يكن يشغَلُها غير أمر واحد: جَمْعُ ما تبقّى من رواية وقّعتها أمّها قبل سنة تقريبًا من احتراق المكتبة.. وكانت تحمل عنوانًا مثيرًا «ضجيج»..

ولم يبْقَ من أمّها غير بعض الضجيج.. لذلك كانت تلاحق صفحات رواية.. تقفز هنا وهناك فوق الأوراق المتناثرة.. كانت تلاحقها.. وتحدِّق في كل منها باحثة عن وجه أمها.. وكانت تتخلّى عن كل صفحة لا تنتمي إلى ضجيج..

انتهى الحريق بعد أن أتى بالكامل على المكتبة الوطنية. وتجمّع حشد كبير من الناس هلوعين مذعورين.. وتعالت الأصوات وتكاثرت الأسئلة.. مَن كان وراء هذا الحريق؟ وهل احترقت الكتب بفعل خطأ عابر اقترفته سيجارة طائشة؟ أم أن وراء احتراق المكتبة الوطنية مكيدة ضدّ الوطن؟.. من أيِّ جهة أتت المؤامرة هذه المرة؟ هل هي مؤامرة صهيونية أم إسلامية إرهابية أم هي إرادة الاستبداد القائم على التجهيل ونشر الأمية؟ أم هل احترقت المكتبة بقرارٍ عبثيٍّ من بعض العقول التي طال سباتها بين رفوف الكتب.. فقرَّرت أن تنتفض من تحت الغبار..؟ وإلّا ما نفع الكتب في مدينة يحكمها سرّاق الأحلام والعقول والثروات؟.

يبدو أن نواميس هذه المدينة لا تقوم على الكتاب.. بل لها نموذج آخر.. مؤامرة ضدَّ الكتاب والكتَّاب والقرّاء معًا. واحترق الجميع في حركة واحدة.. ركح من العبث وجنون من القدر..

انتهى النهار.. جلس منهكًا.. وأخذ يتسلّى بتنظيم الكمّ الهائل من صفحات الكتب التي نجَتْ من الحريق...

«هل أنت نائمة..؟».. سمعَتْ صوتًا بالكاد تذكُر صاحبه.. وامتدّت يدٌ تداعب شعرها.. أحسّت بقربه منها.. جلس إلى جانبها على حافة الفراش.. لم تتذكّره.. لكنّها لم

تنساه بما يكفي.. كانت تتأرجح بين النوم والصحو وبين الذاكرة والنسيان وبين الجرح والحبّ.. وبين الموت والموت.. حملقت فيه بعينيها.. هذا الوجه ليس غريبًا على ذاكرتها القصيرة الأمد.. أين لاقَتْه؟ ولماذا جاء إليها في هذا الوقت المتأخر من الليل؟ سمعَتْهُ يقول: «ما زلت جميلة رغم بعض التجاعيد.. ألا تذكريني؟».. جمّعت ما تبقّى لها من الكلمات وأجابت: «وكيف دخلتَ إلى بيتي؟».. قهقه عاليًا إلى حدّ الهلع.. «بل أنا صاحب هذا البيت.. تركتُه لك حتى لا تتشرّدين يوم رحلتُ إلى عالم آخر».. قالت مستغربة «لا صاحب لهذا البيت غير زوجي القديم الذي رحل عنّي إلى الأبد.. منذ وقت لم أعد أذكره.. فكيف فتحت الباب إذًا؟».

صاح بها «ألا تعرفين أنّك مجرّد روح تائهة وأنّني تركتُك وقد ضِقْتُ ذرعًا بجنونك الذي شتّت كل أفراد العائلة.. وأغضب حكّام البلاد..».

ضحكت ساخرة: «وما دَخْلُ حكّام البلاد؟ هل يقلقهم جنون النساء ويجعلهم عاطلين عن تدبير شؤون الديمقراطية في البلاد.. سحقًا لكل الرجال الذين يخافون من كل النساء. فيسنّون الفتاوى لنكاحها وردعها وختانها وطمس أنوثتها.. سئمت من حكام هذا العصر..».

«كفاك هذرًا.. إنما جئتُ إليك اليوم لأعيد إليكِ بعضًا من حاجاتك التي حملتُها معي على سبيل الخطأ..» قالت: «بل أنت حملت معك قلبي وحياتي على سبيل القصد والنية المسبقة والإصرار والترصّد.. لا شيء تركْتَ لي غير جنوني.. وجسد هزيل وأعضاء ناقصة..»..

قاطعها قائلًا: «لقد شوّهتك شهوة الأدب.. فلم تعودي قادرة على التمييز بين الحرف والجرح وبين أبطالك وأبنائك.. وبين سطوح الصفحات وصدور العشّاق».

صاحت به متلهِّفة: «وأين أبنائي.. مضى زمن لم يزُرْني فيه أحد منهم.. ماذا حدث لهم؟».

أجابها في حسرة: «هاجروا إلى بلاد بعيدة.. وانقطعت عنّي أخبارهم منذ مدّة من الزمن.. وحاولت السفر للبحث عنهم.. لكنّ حكومتنا أغلقت كل الحدود خوفًا من عدوى الحرية التي أصابَت كل البلاد الغربية».

... أجهشت بالبكاء... و غادر البيت ثانية دون أن يُخبِرَها بوجهته...

وتباطأ النهار في المجيء.. لم تكُن تدري أنّ الصباح سافر هذا اليوم إلى مدينة أخرى.. جلسَتْ إلى الورق.. لا شيء يغريها بالبقاء هنا غير بعض الحروف التي هرعت إلى أناملها تستجديها أن اجعليني رسمًا وانثريني عبرة.. وإيّاك أن تغرسي أيّ شيء في هذا المكان.. اقتلعيني جيّدًا من المعاجم القديمة.. سئمت كآبة المكتبة.. ضحكت وغاصَت في لحم الكلمات تنافسها على غزو ما تبقّى من الورق..

وفي الخارج سماء داكنة والرمادي استولى على عرش السَّماء.. وبعض قطرات الندى تتردّد في النزول إلى الثرى.. وكلاب تنبح من شدّة البرد. وهي تُمسك جيدًا بفنجان من القهوة العربية السوداء ترشّفها قليلًا قليلًا.. كم كان يعزّ عليها أن ينتهي هذا الليل.. كانت تنتظرهم على أحرّ من الجمر..

قاطعها صوت غريب «صباح الخير يا أقحوانة.. ألم تسمعي بما حدث لشباب الحيّ؟».

لكنها لم تُجِبْهُ ولم ترمقه حتى بالعين المجردة.. كانت مشتَّتة بين القصة والمدينة.. بين ما وقَعَ وما سيقع.. ولأنّها تعرف كل الحكاية.. لا خبر كان يفاجئها.. لكنّها صمَّمت على التدخُّل وتغيير مصير بعض أبطالها.. واصلت التحديق بالقلم الوحيد الملقيّ على الطاولة.. وأشفَقَت على الأوراق اليتيمة وقد سئمت من الفراغ. وفجأة سمعت صوت طلقات رصاص قريبة منها.. هرعت إلى شرفة شقتها.. وكانت تسكن في الطابق الرابع في مدينة باردو غير بعيد عن محطة المترو.. ألقت نظرة على الشارع فلمحت رجال البوليس يجمعون أشلاء جثة سقطت لتوّها قتيلة على الرصيف.. عادت إلى الداخل مرعوبة.. هل سبقتها الرواية إلى تنفيذ الحكاية؟ هل جاءت بعد فوات الأوان؟.. وسريعًا ما داهمها حشد من الناس يزدحمون على باب بيتها.. وسمعت بعض الكلمات.. «هذه هي أمّه يا سيّدي..هيّا أخبرها.. إنّه ولدها.. يا لوعتها.. يا لوعتها»..

حينئذٍ تأكَّدت أنّها وصلت بعد النهار وبعد الأوان.. ماتت قبل الأوان وعادت بعده.. ما أعظم مُصابها..

لم تكن وحيدة هذه المرّة. كان قلبها مسكونًا بأكثر من حكاية. وكان عقلها شاردًا لا يدري من أين سيخترق أعماق ما تبقّى من الآدميين في هذه المدينة.. لكن لماذا هذا العدد الأحمق من البشر؟ غصّت الأرض بهم وغصّت الأوراق بالدمع لأنّها تذكّرت فجأة أنّها ماتت في مثل هذا اليوم منذ مائة عام

وفي هذا المكان نفسه.. يومها جاؤوا بالمارد الأسود حاكمًا على هذه المدينة.. كان كهلًا أشرَفَ على شيخوخة مبكرة.. وكان سجينًا لسنوات عديدة من أجل استعادة كرامة الله.. لكنّه لم يكن السجين الوحيد في تلك الزنزانة.. ولم تكن زنزانته هي الوحيدة التي تحتضن المعارضين للطغيان الذي ضرب كل العباد والدوابّ.. كانوا سجناء وكان عددهم كبيرًا.. كانوا كثيرين زُجّ بهم في السجن دفاعًا عن يوم القيامة.. وفي الزنزانة المقابلة يقبع بعضٌ من الذين لا يؤمنون إلّا بالجياع.. واحتدّ النقاش بين السجينين:

«اصمُت أيّها الزنديق الشيوعي.. سوف يعاقبك الله يوم القيامة بنار جهنّم». ضحك بأعلى صوته حتى كادت أعمدة السجن تسقط من شدّة العبث.. لكنه لم يتكلّم لأنّه كان يعلم أنّ الضحك أفضل وأنّ الصمت أرحم. تمتم قائلًا «لا فائدة.. ليس لهم الآذان الكافية لسماع حجّتي.. هؤلاء الحمقى المسعورين بالآخرة. ألمْ يعلموا أنّ الجوع وحده كافر في هذا البلد؟».

ارتطم جسمه بها من «الخلف». كان المترو الخفيف ثقيلًا بأجسامٍ أنهكَتْها الفواتير ومقتضيات الأعياد. صاحت به «ألا تُبصر.. ثبّت قدميك جيّدًا». ردّ عليها في غضب «لو كنت امرأة شريفة لكنت ترتدين الحجاب».. اندلعت للتوّ معركة حادّة بين امرأة حديثة ورجل تقليدي جدًّا..، وانبثق صراع بين الخلاف والاختلاف. هل يكفي أن يسقط حرف واحد كي ينزلق الشأن العامّ بهذه السرعة؟.. من حقّها هي في الاختلاف.. ومن حقه هو في الخلاف الحادّ الذي أشعله في قلبه حريتها في أن تلبس ما

تريد.. وما الذي أغضبه هو الذي صفعها من الخلف بكامل جسمه؟ ولم يعتذر.. وما دخل طريقة لباسها في اصطدامه الجسمي معها؟ ركح عجيب ومسرح للعبث بالأجسام والمشاعر والأخلاق والملابس معًا. تلسكوب عجيب يكشف عن سياسات ماكرة تخترق المدينة. كانت تناهز الأربعين أو أكثر وتجاعيد تزحف على وجهها راسمة ملامح حياة يومية مُتوترة مُستعجلة وكئيبة. قد تكون أمًّا منهوكة بأفواه فاغرة والكثير من مستحقات العودة المدرسية. وقد يكون آخر همّها إرضاء دعاة الإسلام السياسي أو البهرج الإستطيقي أو حذلقة الثقفوت الداعي إلى حقّ الاختلاف وحرية اللباس والعقيدة والتعبير والتفكير..

كان مُلتحيًا، لكن لا شيء يُزعج في لحيته. قد تكون توقيعًا حزبيًّا أو مجرّد مظهر جمالي وإيروسي، لكن المزعج هو جرأته على أن يكون وصيًّا على ذوق غيره وحريته. باسم أيّ حقّ شرّع لنفسه ثلب المرأة التي كانت تلبس بشكل جدُّ عادي؟.

كيف نتّقي شرّ الخلاف وغضب الحالمين بالخلافة والخليفة..؟ ثمّة إذًا لعب لغوي بين الخلاف والاختلاف. عائلة لغوية واسعة الشعاب تضمّ بشكل عابثٍ ونزقٍ الخَلف والخُلف والخِلف والخليفة والخلافة والإخلاف. فالخَلْف هو الجهة الأخرى التي لا نقابلها وجهًا لوجه. والخُلف هو المضادّ للمنطق. والخَلَف هو الذي يأتي بعد السلف فيُعاوده ويضمن استمرار تركته.. أمّا الخليفة والخلافة فأمر يتكفَّل به مَن يعتقد في ضرورة الخلط بين الدين والسياسة.. وكلّ بما لديهم فرحون.. وحينما تلعب الكلمات بين الخلاف والاختلاف،

وحينما يسقط حرف واحد، يحصل الصِّدام في سياسة الشأن العام بين التوتر والخصام وبين التسامح والاحترام. الخلاف ينبع من نرجسية الأنا التي ترى نفسها مركزًا للعالم. والاختلاف يصدُر عن الاعتراف بالآخر الذي يُخالفنا في رؤيته للعالم. الخِلاف استبداديّ يجهد نفسه كي ينتصر على الآخر فيُقصيه أو يستولي عليه ويبتلعه داخل لعبته. والاختلاف يقبل بتعدُّد الأذواق والأفكار ويؤمن بأنّ الحرية هي الشرط الوحيد للعيش معًا في عالم يضمّ الجميع. «فمتى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحرارًا؟».

خرجت تبحث عمّا يختفي في أعماق هذه القامات التي تجوب الشوارع ثمّ تمتطي «صهوة» المترو أو «ظهر» الحافلة (عذرًا عن المعجم الفروسي لأنّ النقاش كان ملحميًّا) مُتّجهة نحو مقامها الخاص. كلٌّ يحمل همّه ومرتّبه وفواتيره وأحلامه وحيدًا، لكن لا أحد كان منعزلًا عن الآخر. ولا أحد كان وحيدًا تمامًا. وحين يرتطم جسمه بجسمها داخل زحمة الحياة تستفيق من سباتها السياسي وتعلم أنّ آخَرًا يُزاحمها على اقتسام مساحة الحياة، لكنّها لم تكن تعلم أنّ هذا الآخر التحى خصّيصًا من أجل أن يُضيّق عليها ذوقها وحريتها في أن تكون مثلما يحلو لها.. قالت: دعونا نصغي إلى نموّ الكلمات.. ثمّة وليمة أخرى.

ومن بعيد بلغها ضجيج الأمواج.. واشتمّت للتّو رائحة البحر..

تهالكت بجسمها النحيل على صمت الرخام. كلّ شيء في حياتها كان باردًا.. حتّى حرارة شمس الصيف.. رمقتها من

بعيد.. ما الذي أتى بها باكرًا؟ تمتمت ذات الجسم النحيل من بين ركام اللحم البشري: «من أين سيأتي المُستقبل؟». رنّ السؤال في بطن الحروف الحائرة واندفع سريعًا نحو أعماق البحر.. وليمة أخرى تنتظر أمعاء مُناسبة.. وما تحتاجه هو فقط بعض الأحشاء المرحة.. كُلوا هنيئًا.. لا أحد سيُصاب بالمغص إلّا مَن أُصيب بمرضِ اليأس من المُستقبل..

لمن يصلح المستقبل؟ للذين يملكون الحاضر بأموالهم وخططهم وخرائطهم ومكائدهم؟ أَمْ للذين يجذبون الماضي عن دُبُر ويُنصّبونه بديلًا عن المُستقبل؟ أم للجياع الذين يعيشون على الكفاف وحيث الحياة لا تحيا في بيوتهم؟ هي كانت تطلب زوجًا ولم تجده.. فكّرت في اللجوء إلى الشعوذة كآخر الحلول لتحصل على مُستقبل فيه دفء وأبناء وحياة يومية.. لم تكن تطلب الكثير.. لكنّ الكلمات أخذت السؤال مأخذًا مُغايرًا.. ومعًا تقاسم الطرفان في قصة واحدة ركب المُستقبل.. وتناسلت الأسئلة سريعًا وعلى حين غرّة من عمق البحر: هل ننتظر المُستقبل حتى يأتي إلينا؟ أم علينا الذهاب إليه واستقباله؟ من أيّ جهة تُراه سوف يأتي؟ أَمْ علينا السفر نحوه وجلبه إلى مدينتنا؟ وربّما يكون المُستقبل قد مرّ بعدُ ولم نُحسن ركوب قاطرته.. وقد يكون أبطأ في المجيء إلينا لعاهة في مُدننا وفي عقولنا وفي سياساتنا.. وربّما لن نُصاب بالمُستقبل في ديارنا من فرط ثقل الماضي على أمعائنا.. وقد لا يأتي المُستقبل إلينا أبدًا من الجهة المُناسبة..

لم تكن أقحوانة في حجم أسئلة أعشاب البحر.. تكاثرت

عليها الأعشاب الراقصة وتعكّر صفو الموج.. وفي الخارج دوّت الرياح وعاد الصراخ. تعالت أصوات هائجة من جنوب البحر: عن أيّ مستقبل تتحدّثين؟ أيتها البحّارة الساذجة.. دعْكِ من الأحلام الكاذبة.. لقد سرقوا المُستقبل مثلما سرقوا الماضي والحاضر.. لا شيء تبقّى لنا غير الزحف في الأعماق المُظلمة وتأليب العاصفة وتأجيجها.. لا شيء غير الصراخ.. حدّقت فيهم مليًّا وطفقت تكتب في صمت: «إنّ مَنْ خسر قدرته على الحلم خسر قدرته على الحياة».. وتمتمت في مخبئها السرّي: الآن اكتشفت عاهة هذي المدينة.. هؤلاء المُتشائمون هم الذين منعوا المُستقبل من المرور من هنا.. كآبتهم ويأسهم ومشاعرهم الحزينة تحجب عنّا المُستقبل.. إنّي أشفق عليهم من أنفسهم..

سبحت في اتّجاه مُغاير.. وقررت البحث عن أسماك قادرة على الحلم أكثر. لأنّها كانت تعرف جيّدًا أنّ المُستقبل لم يستطع الوصول إلينا لأنّا لم نحلم به بما يكفي.. لكن كيف السبيل إلى الحلم؟ ليس بمقدار ما ننام لأنّ «مَن نام لم تنتظره الحياة». وليس بمقدار ما ننتظر القدر لأنّ القدر مُلكٌ لمن يحلمون بالماضي.. وليس بمقدار ما نملك من قوة الذاكرة.. نحن نحلم بمقدار ما ننسى.. ونحن نحلم بمقدار قدرتنا على صنع الأمل وزرعه في كلّ قلب وبَذْره وتبذيره في كلّ حقل.. تحتاج الأعماق إلى مزيد من البرية... آن الأوان أن نبحث عن عطور جديدة..

استلقت على الصالون. فتحت التلفاز. كانت تحتاج إلى ضجيج إضافي يملأ عليها شعورًا حادًّا بالفراغ. غرفة سوداوية الملامح وصالون بنيّ غامق ومكتبة ضخمة واقفة منذ سنين في

لون رأس الغول.. ومن جهة النافذة ستائر شفّافة أرجوانية ميّالة إلى الرقص.. حزن الألوان كان يشعرها بلغز ما يختفي في قلب هذا البيت الذي تعوّدت على سكناه منذ دهر من الزمن.. وطال بها الزمن.. لا شيء يعني رغم ذلك ولا شيء يكفي.. حتى التهريج لم يَعُدْ ممكنًا في هذا البلد.. كانت تُبصر بالعبث في كل أركان قلبها وفي كل أركان بيتها.. كلها أشياء من كرتون وكل شيء تخشّب إلى حدّ الكذب.. كانت الصحراء تنبثق في كل مكان.. صحراء هشّة سريعة الاندثار.. رمال تهزمها الرياح وتمضي.. قرّرت بأن تتحرَّر من هذه الدائرة بأن تتعرّف على آخر أخبار البلاد.. كان يوم 22 أيار/مايو 2011. يومها قرّرت الحكومة المؤقتة تأجيل موعد الانتخابات إلى ما بعد 24 تموز/يوليو.. فرحت بالخبر لأنّها كانت تؤمن بأنّ الأحزاب في بلادها لم تنضج بعدُ من أجل اجتياز أول امتحان لها في الديمقراطية.. وقالت في نفسها «لا يهمّ.. قد يكون خبرًا سارًّا يَعِدُ بأكثر من فراغ».. انتصرت للحظة على مشاعر العبث وغاصت في قلب الصالون تشاهد فيلمًا حول الأشباح..

كان بطل الفيلم روائيًّا يكتب دومًا روايات يُؤثِّث سطحها بالأشباح إلى حدٍّ صار فيه شبحًا محترفًا.. وسمع يومًا أنّ فندقًا من فنادق المدينة يحتوي على غرفة مريبة كل من دخلها إلّا وجُنَّ أو انتحر لأسباب غامضة.. وهو أمر دفع بصاحب الفندق إلى غلق تلك الغرفة.. قصد لتوّه ذاك الفندق وطلب رأسًا البيت رقم 1408. وبدأت المغامرة الروائية وشغّل المخرج عدسات الكاميرا وجهّزت الشاشة نفسها لاستقبال عيون المتفرجين ومشاعرهم ومخاوفهم.. ومن اللحظات الأولى بدأت الأشباح

في العمل.. صياح وخشخشة وأزيز وأصوات.. وانطلق روائيّ الأشباح يقطف الأحداث ويُطارد المخاوف ويخترع المعارك ضدّ الأوهام.. وتقاطع المرئي باللامرئي.. وازدحمت الصور والألغاز.. وأينع الظلام في كل ركن من الرواية ومن الفيلم ومن مشاعر المتفرّجين.. وصمد الروائي في وجه شبح خطير كان يظهر له تارة في شخص أبيه العائد من القبر وطورًا في جسد امرأة قبيحة شرسة للغاية.. وكان يرى أحيانًا أشخاصًا ينتحرون الواحد تلو الآخر من نافذة البيت.. وانقطعت كل الفواصل والحدود بين الحياة والموت وبين الروائي والقصة وبين الشاشة والمتفرج.. واحتدّ الليل وجنّ في وضح أضواء الشاشة.. كيف يقيم الروائي في عمق روايته فيجنّ وينتحر كشخص يومي.. كان عليه أن يخسر نفسه العمومية كي يصير قصّة رمزية.. ومَن يستطيع ذلك؟

شرَدَ ذهنها عن التلفاز وسافرت بعيدًا مرة أخرى.. كانت ترى جمعًا من الناس يتوافدون على بيتها.. فيهم بعض الأصدقاء ولكنّ أكثرهم كان من الأعداء.. لماذا جاؤوا في مثل هذا اليوم بالذات؟ يوم قرَّرت فيه أن تسكُنَ فراغ العالم وحيدة وأن تستمع إلى ضجيج الصحاري والأشباح؟ لم تكن تدري.. لكنّها سمعت بعضهم يقدِّم التعازي لزوجها ذاكرًا اسمها بكل دقّة وظرف.. كانت يومها قد ماتت موتتها الأولى ولم تكن تدري.. لا أحد استشارها ولا أحد أعلمها بحدوث الأمر.. ويبدو أنّ لا أحد كان يراها.. هل تحوَّلت سريعًا إلى شبح؟ ابتسمت لصديقة قديمة كانت تجلس حذو «سي فتحي» لكنها لم تنظر إليها بمجرد النظر.. تجاهلتها وواصلت تحدّث الجميع عن خصالها.. كان يوم

جنازتها.. لكنّها لم تكن من المدعووين.. ولا من المدعوّات.. اكتفَت بغلق التلفاز حفظًا لبعض طقوس الحزن.. وقرَّرت أن تُغادر الصالون إلى وجهة أخرى..

... طلبت قهوة سوداء.. وجلست إلى الطاولة التي تعوَّدت على الجلوس إليها منذ سنوات لم تعد تحصيها.. كانت تنتظره بفارغ الصبر.. هل يخطئ موعده ثانية؟ لم تكن تدري.. لكنّها قرَّرت حفظ كرامتها بالتظاهر بالكبرياء والصمت.. وكتبت على ورق ملقيٍّ على الأرض ما يلي: ما أعظم الله.. وما أضيق المدينة.. ما أقبح المدينة وما أتفه هذه الأجساد التي ليس لها من الوجود غير أعضاء قديمة أكل عليها الدهر ولم يشرب.. إلى ماذا تصلح قلوب هؤلاء ومصارينهم؟.. للأكل أم للدهس؟.. إلى ماذا تصلح جلودهم المطلية بالمساحيق؟ للكذب أم للسلخ؟ مدينة اتَّسعت محلاتها التجارية وضاقت جيوب سكانها وأرواحهم ذرعًا بالدفع.. وهذي السَّماء التي تلفّهم بالغموض وبالسحب والتي لا تملك من اللون غير الانعكاس.. سماء تستلف من البحر لونها ومن حماقات المدائن العربية أفقها.

فاجأها صوته ممتلئًا بنبرة الفحل الشرقي: «مرحبًا بمن جاءت تحمل إلينا كل عطور المدينة.. ها أنت لم تتغيري..».

ابتسَمَت في حزن وقالت: «لم أعُدْ إليك خصيصًا، بل كنت أمرّ من المدينة على وجه الصدفة ففكَّرت أن أجلس إليك قليلًا مثلما أجلس إلى قهوتي.. لا فرق عندي».. جلس إلى جانبها.. وبدأ يخطب عليها في خيلاء: «ألم تسمعي أنّني صرت وزيرًا مؤقّتًا لهذا البلد.. ألا تباركينني وتفرحي بي..؟».

أجابته: «لقد باركتك حين كنت سجينًا، لكني أكره الوزارات والمناصب لأنّها تذكِّرني بالاستبداد والنفاق والغطرسة.. وأنا جئتك اليوم أطلب منك شيئًا آخر..».

قاطعها على عجل: «لا أريد منك أن تطلبي مني الزواج لأنّي قد تجاوزت العدد المشرّع لي من النساء.. و أنا كما ترين مشغولٌ بالسياسة.. فلا تثقلي وزري أكثر..».

ضحكت ساخرة: «بل أطلب منك أن تحكي قصة سجنك حتى أتمكن من كتابتها في روايتي»..

تنهّد وبدأ الحكاية «كنت شابًّا في العشرين من العمُر طالبًا بكلية الآداب.. وكنّا آنذاك نقاوم جهاز الدولة بقوة إيماننا بالله.. فنقيم الصلاة ونُكثِر من قيام الليل وتلاوة القرآن.. وفي الجهة الأخرى من الحيّ الجامعي انتصب أهل اليسار يفسدون عقائدنا ويشوّهون ديننا ولا يحدِّثون إلّا على فقرنا وبؤسنا دون اعتبار لأقدارنا ولذاكرتنا.. واندلعت بيننا المعركة.. وحين احتدّ الأمر رميناهم بموادّ كيمياوية حارقة على وجوههم.. فاحترق بعضهم ومات آخر.. وكانت الكارثة.. داهمنا البوليس ليلًا.. اعتقلونا.. ورمونا في السجن..».

واصل الحديث عن السجن.. لكنها تاهت عن قصته.. قرّرت أن ترسم وجهًا آخر للرواية رحمة لشعب تحوَّلت ثورته على الطغيان إلى ثأر من السجن..

وجاءها النداء من أحد أنبياء الفرس:

.. «زحفًا على الركبتين.. اصعدوا السلم أيّها المخطئون».

.. هؤلاء السجناء.. أشفقت عليهم من أصفادهم ومن أوهامهم.. لم يتقنوا حمل الله جيدًا في قلوبهم.. اعتقدوا أنّهم عَبَروا سالمين إلى الضفة الأخرى.. في حين كانوا يهيمون على وجوههم كئيبين في السراب.. هذه ليست جزيرة حقيقية أيّها السجين.. وههنا لا تنام الآلهة مطمئنة.. وتظلّون تحملون السموم في دمائكم.. وتكرهون مدينتكم.. لا أحد يسعفكم من أنفسكم.. حتى الله بريء من أكاذيبكم وضعفكم وأطماعكم.. تريدون الدولة وتريدون الآخرة.. ويلٌ لمن يحمل السجن تحت جلده.. لن تصعد أرواحكم إلى السَّماء لأنّ الأفق لا يحضن غير الطيور الراقصة.. أمّا وقد ثقلت موازينكم لن تسعفكم لا الوزارة ولا الإدارة.. تبنون أكواخًا هشّة على الرمال وتخالونها قصورًا من حجر.. يا لحماقة هذا الرهط من البشر.. «افتحوا سجون أنفسكم وتنفّسوا هواء الجبل..».

سيكبر فينا الياسمين يومًا...

ويدخل إله النار بَهْوَ الرواية.. «هل لي مكانٌ بينكم أيّها الورقيون.. فزع كل المقيمين بهذا الحي وصاحوا إلينا بالماء لإطفاء الحريق.. ويلٌ لنا من هذا البطل الجديد الذي اخترق علينا جدران الحلفاء دون استشارة الراوية..».

ضحك إله النار بقهقهات زعزعت أعمدة الكلمات وجعلت القلم يرتعش خوفًا من غول الحكاية.. وقال متهكِّمًا «وهل تستشيرون النساء في هذه الديار.. يا لكم من حمقى هل أصاب ذكورتكم عطب في هذي المدينة؟ أم أصابكم داء الحداثة؟.. ألا تعرفون أنّه لن تفلح رواية تكتبها امرأة.. جميع

سكان هذا المكان سوف يهلكون حتمًا ولن ينجو أحد من ناري المقدَّسة.. كيف أوكلتم مصير أبطالكم بيد عوراتكم.. هذه النساء.. فلتذهب إلى الجحيم حالًا أو إلى أقرب مقبرة..».

انتاب الحروف خوف فظيع فانسحبت تجري في كل الاتِّجاهات هربًا من الاحتراق.. وتَربَّع إله النار على الورق يدخِّن سيجارة من نوع جديد تمامًا.. وكان ينظر يمنة ويسرة إلى الكلمات الجزوعة الهلعة في غبطة وزهوّ.. وعلى يساره جلست أمّ لهب تعدّ الحطب من أجل إضرام نارٍ جديدة على حدود الصحراء الغربية..

طالَ به الجلوس على عرش الكتابة.. لا أحد من الحروف كان يتجرّأ على طرده.. سادَ صمت عميق وخيّمت الكآبة على الورق..

أحسّ بفراغ الورق وشعر فجأة بالوحدة.. ندم عمّا اقترفه في حقّ كاتبة الرواية.. التي كانت غائبة عن هذه الحكاية.. فاجأته بظهورها في صورة أنثى هيفاء القامة تُبعثر شعرها الذهبي في كل أركان الركح.. تَنمّر واستيقظت فيه شهوة الشبق.. تنهّد من أعماق ناره الثاوية في قلبه من فرط خيباته في العشق وقال باكيًا: «عفوًا سيّدتي.. لقد ظلمت الحكاية.. إنّي سئمت حياة التسكُّع والحرائق التي أنثرها حيثما حَلَلْت.. سئمت الألوهية والطغيان والعربدة وسرقة الأرواح من الأبدان الضعيفة.. امنحيني بسحرك القصصي بطولة بشرية.. فأنا مشتاق إلى حياة يومية وإلى عادات وقتية وطقوس اعتباطية.. سيدتي كاتبة الرواية.. اجعليني حبيبًا لقلمك وعاشقًا لحروفك الهشّة..

واحملي عنّي أساطيري القديمة.. واحرقيني بالحبر.. أريد أن أكون إنسانًا.. أو حتى دودة تدبّ على أرضك.. سأقبّل كلّ حرف يسيل من بين أناملك.. احمليني بين أحشائك.. سأكون روحًا حنونة بين جنبيك. وإيّاك أن تلديني. فأنا الخراب كلّما رأيت النور يعانق الكون الفسيح.. إلّا وأضرمتها حرائق لا تنتهي.. أنقذيني من لهيبي.. واصنعيني بشريًّا عاشقًا.. أعدك بأن أكون أكثر من رجل.. وأقلّ من حريق».

لم يُجِبْهُ أحد لأنّ الجميع رحل نحو حكاية أخرى.. فضجيج النار لا يكفي..



حمقاء هذي المدينة...

نهار طويل ولا شيء غير الظلال واقفة
على حدود الطين بلا جسد
ويشتدّ المكان
ويرتعد كلّما اكتظّت الشوارع بالصخب
.. حمقاء هذي المدينة
لا فرق فيها بين الورد والمزبلة
حمقاء هذي المدينة. . .
لا فرق فيها بين العرس والمقصلة. . .

روح هزيلة وطمأنينة بائسة.. كيف لا تنحدرين إلى الهلاك؟ تجيئين وتروحين كلَّ يوم من هذا الشارع.. الوجوه نفسها والمعاطف نفسها والألوان والنعال نفسها.. ألم تَملّي من المجيء إلى هذا البيت والجلوس في الصالون نفسه وترتشفين القهوة نفسها؟ ألم تسأمي من عشقه ومن زواجك الدائم به؟ يا لك من حمقاء؟ أم أنت من جنس السلاحف التي تقضي حياتها في الزحف دون أن تنتصب واقفة كالحيّة؟ لماذا لا تكوني نسرًا أو جبلًا أو حتى وردة في الحقل؟ قالت «بلى، بل أبحث عمَّن يُتقن الموت وحيدًا.. ومن يمشي

مرحًا في جنازته.. وأتضوّر شوقًا إلى مَن يجيد محبّة المرأة دون أن يغضب ربّه»...

احلمي إن استطعت..

نامي قليلًا على صدر لغتي

واحضني المستحيل في كل قلب...

احلمي.. ففي الحلم تسقط كل الدول

وتنهار كل أعمدة القصر...

وفي الجهة الأخرى تحثّ ياسمين الخطى نحو المسجد.. وفي يديها ما تبقّى من رواية أمّها.. دخلت إلى المسجد بعد أن خلعت نعليها عن ساقيها.. وكان أطفال المدينة قد تجمّعوا يمرحون ويغنّون ويرقصون.. وتناثرت الألعاب فوق الزرابي الكبيرة.. وامتلأ المكان صخبًا.. كانت تحبّ هذا الضجيج.. وهرَعَ إليها الأطفال يقبّلونها ويستقبلونها بحفاوة.. وبعد قليل يدخل زعفران إلى بهو المسجد مبهوتًا يصيح: «كيف صارت المساجد في مدينتكم أمكنة يلهو فيها الأطفال.. ويلكم.. هل جُننتم؟» أشفَقَت عليه واحتارَت كيف تجيبه.. فقد اختلطت عليه الأمور منذ دخل المدينة الجديدة.. بل قد يكون أُصيب بالجنون.. لقد صار يهذي بالله وبأمّه وبأهله القدامى.. وبزمنٍ مات كلّ سكانه ولم يبْقَ منهم غيره.. وقالت في نفسها «ربّما لن يشفى من جنونه إلّا متى يقرأ الرواية كاملة.. لكن كيف له ذلك وقد احترق الكثير منها في حريق أتى على كل المكتبة والقرّاء والكتب.. وهو لا يعلم بأنّ أمّه هي كاتبة الرواية.. لكنه يعلم أنّه التقى بها منذ وقت قريب..

وهو في انتظار ظهورها من جديد.. كانت مقطّعة بين أخيها المجنون وأمها المحترقة والرواية التي تفتقر إلى العناية واستعادة تفاصيلها التي التهمها اللهيب..

لكنها تجرّأت على إخباره بالحقيقة «اعلم يا أخي أنّك في عصر آخر وأنّك غادرت الماضي بلا رجعة.. واعلَم أيضًا أنّك فقدت ذاكرتك وتعافيت منها إلى الأبد وأنّ ما تراه في هذا المسجد هو عين الحقّ.. إنّك هنا يا أخي في عام 3020م.. حيث كفّت المساجد عن أن تكون مكانًا للصلاة.. واعلم أيضًا أنّ الأطفال يعيشون هنا في عزلة تامة عن آبائهم حتى يصيروا رجالًا أشدّاء.. لا تعجب يا أخي فالإنسان هذي الأيام قد كفّ عن أن يكون قردًا وعن أن ينتظر الأنبياء.. وسيأتيك الزمن الذي يعود فيه الإنسان رهطًا آخر لا شرقيًّا ولا غربيًّا لا هو مؤمن ولا هو كافر.. ستكون كل المعتقدات مضحكة للأطفال وستصير كل الكتب ألعابًا للأطفال يصنعون منها الصواريخ والزوارق الورقية..».

صاح بها زعفران: «وأين رجال المدينة؟» ضحكت وأجابت: «لا رجال ولا كهول ولا أمهات.. هي مدينة للأطفال فقط كآخر جنس بشري على الأرض وكلُّ مَن كبر مات من شدّة الطاعة ومن كثرة المعتقدات».. اسمع يا أخي.. «على المرء أن يكون حاملًا لشيء من الفوضى كي يلد نجمًا راقصًا».. صدق زرادشت...

عشرون ألف دينار.. جلست تحدّق في حزمة الأوراق النقدية الملقاة على الطاولة.. طاولة بلاستيكية صغيرة الحجم

تحيط بها أربعة كراسي فارغة.. كان يجلس هناك قرب النافذة على الكرسي المقابل لها.. ومن عاداته أن يلتهم طعامه بسرعة وألّا يتكلّم وقت الأكل.. إنه دومًا مستعجل لأنّه حريص على الدراسة والتميُّز في اختصاص الطبّ.. بالكاد يتبادل مع عائلته بعض الكلمات المقتضبة.. عن حرارة الطقس أو عن اكتظاظ الحافلة أو عن قلّة الوقت وتراكم الدروس والتربصات في مستشفيات المدينة.. يومها رجع باكرًا إلى البيت.. الكليات في حالة إضراب والاحتجاجات على أشدّها في شوارع العاصمة.. وأخبار الأرياف والمدن الداخلية فظيعة.. عدد كبير من الشهداء سقطوا هذه الأيام في القصرين وبوزيد وتالة.. العديد من الجنازات تشيِّع اليوم الجثامين إلى المقابر.. وضَعَ محفظته على تلك الطاولة التي تصلح للأكل وللدرس.. وخرج مستعجلًا إلى الشارع الكبير.. لاقتهُ أمّه في رأس النهج.. صاحت به فزعة «ارجع إلى المنزل يا ولدي.. البوليس يطلق الرصاص ضدّ المتظاهرين.. والشباب يسقطون قتلى في قلب المدينة».. لم يُجبها وانطلق يجري بكلِّ قواه نحو حتفه...

عشرون ألف دينار هي حصيلة يومه.. وهي مقابل روحه.. منذ متى تُباع الأرواح بالأوراق النقدية المريبة بالسارقين والماجنين؟ وهل هذا المال حلال أم جاء من صفقات ومؤامرات ومظالم شتّى؟ انهمرت الدموع من عينيها.. لقد كان يحلم بأن يكون طبيبًا ليساعد الناس ضدّ الموت.. هاهو يموت قبل موتهم وبعد موته.. قبل حلمه ومن أجل حلمهم.. اسمه «حلمي».. حلم كثيرًا بشكل شخصي

ومات بشكل عمومي.. حلم بنفسه ومات بدلًا من غيره.. بكت القصّة مع الأمّ وطفق القلم يشيّع جنازة الشهيد بالقصيدة. . .

قالت العصافير للزهر:

«هل لي بقليل من العطر

حتى أسافر إلى ذلك النجم؟»

قالت الزهرة:

«عندك ما يكفي من الأغنيات

وعندي زفرات هي ما تبقّى من بعض قلبي..

عندك ما يكفي من الشوق.. ومن الدهر..

وعندي ما يكفي من الحلم ومن الموت..».

ستة عشرة سنة من السجن.. تمتمت همسًا إلى الورق الذي ملَّ من وقع الأقلام التي سوّدته بالمؤامرات وبالألاعيب وبنزق اللغة.. كرهت مهنة الشؤم.. وتمنّت لو كانت فلّاحة تزرع القمح أو تسقي الحقول أو تنتزع الأعشاب الطفيلية.. وتمنّت لو كانت راعية أغنام أو بحّارة.. لاستراحت من عبء الكتابة ومن ضغط القلم ومن تملُّق الورق..

تعدَّدت أسماؤه.. كان البنات يفضلون آية الله ترافلتا.. نسبة إلى النجم السينمائي الأمريكي.. كان بينه وبين هذا النجم شبهًا في لون العيون.. لكنه لم يكن أمريكيًّا رغم خضرة عينيه ولم يكن ممثّلًا رغم تمثيله للحزب الإسلامي في بلاده..

وفي ركنٍ آخر من الزنزانة لمحته قابعًا شارد الذهن..

كان كهلًا في الأربعين.. شابَ في هذه السجن قبل أن تُدركه الشيخوخة.. كان اسمه محمّدًا.. لكنه لم يكن محمديًّا إلّا على سبيل الصدفة.. كان شيوعيًّا وكان مدافعًا عن مَن لا ربّ لهم ولا سقف يحميهم.

.. ضحكت من عبث الأسماء ومن قساوة الأقدار ومن حمق الطغيان.. الساكن الأول للزنزانة اسمه «هيثم ترافلتا» ويكون إسلامويًّا.. والثاني اسمه محمّدًا وهو ماركسي لينيني شيوعي.. لكن لا مشاحة في الأسماء.. لا أحد منهما تنبّأ بأنّه سيغادر يومًا تلك الزنزانة.. وقد يصير وزيرًا أو رئيسًا للبلاد.. أو قد يبقى متمرِّدًا على كل استبداد.. تبسّم محمد لهيثم وقال له: هل تملك سيجارة؟ أجابه: «أنا لا أدخّن غير الكتاب المقدّس».. ضحك منه.. ثمّ واصل شروده الذهني لمدّة سنين لا أحد يذكر عددها...

فتحت المذياع.. استسلمت لسماع آخر الأخبار... وانطلق المصدح يتلو الكلام تلو الكلام.. دون أن يستشير أحدًا ودون أن يهتمّ بالسامعين.. لم يكن يخطر ببالها أنّ ما هي بصدده مصير لشعب برمّته.. لكن ما هَمّ الحالمين وقدر الأحياء؟ واسترسل المذياع بخطبته قائلًا: «أصوات مطّاطية.. ومن يشتري؟» همّت بمقاطعته.. لكنّه لم يأبَه لأمرها.. همست تخاطب نفسها: «استمعي يا أقحوانة.. هدّئي من روعك.. لن تندمي.. قد تعثرين على عالم أفضل؟.» واستأنف المذياع الخبر قائلًا:

«تجارة الأصوات على قدم وساق هذه الأيام.. تجارة مفضوحة عارية الوجه والساقين.. وأحيانًا مُلثّمة أو منقَّبة أو

حتى متحجِّبة.. لا يهمّ فتلك تفاصيل لا تهم غير المعنيين بحرية اللباس والمعتقد.. الذين لا يبيعون ولا يُشترون..

من يشتري هذا الصوت يا أهل قرطاج؟ إنّه جهوري.. جمهوري.. مدني.. فصيح يغنّي ويرقص مع كل ريح وكل نسمة هواء.. إنه صوت حنجري مخملي زئبقي.. لا شيء يقلقه لا الوطن ولا الثورة ولا الشهداء.. ولا حتى كرامته.. فمَن يدفع أكثر لمثل هذه الأصوات البلاستيكية المطّاطية؟ ومن يدفع.. أيّ شيء.. لا يهم.. وحتى بأبخس الأثمان.. فنحن في كل الحالات شعب مسلم وقنوع ومتزهِّد..

هنا في تونس التي احتضنت ابن خلدون وأبا القاسم الشابي وابن الرشيق القيرواني والعلامة ابن المنظور من جمّع لسان العرب برمته، قد صار ممكنًا بيع أصوات البشر.. مسرح لفن الفظاعة والقبح.. قابل للّعن وللغلق.. لا شيء يدعو فيه إلى الفرجة على مهزلة لا تُضحِك بقدر ما تُبكي.. بل علينا أن نمرّ من النقد إلى الفضح والشتم.. وحدها الفضيحة كفيلة بإنصاف ديمقراطية يُغدَر بها قبل وصولها إلى الركح..

لقد صار مباحًا لمن لا حياء له أن يبيع الصوت والصورة والوجه.. بوعدٍ أو بعهد أو حتى بوعيد.. وإن لم يُتوفَّر حتى بكذبة أو بوعد زواج أو ختان.. سوقنا ناشطة راقصة وأبواق ترتفع منها أصوات للبيع وأخرى للحجز وثالثة للقمع ورابعة للصمت والإلجام.. أصوات تُباع في كل الأماكن المقدَّسة والمدنَّسة.. في الخمّارات والمقاهي وقاعات المؤتمرات.. مواخير جديدة نظيفة بلا أجساد ولا أعضاء. وهنا أيضًا يقنَعُ

الباعة وتجّار البضاعة حتى بصوت أو حنجرة حتى وإن كانت خرساء وبلسان مقصوص..

وفي بلد اخترع «لسان العرب» نفسه بعظمه ولحمه يندر أن تجد لسانًا في أفواه الباعة.. فقد استبدلوه بعضو آخر واحتفظ باللسان الحقيقي عضوًا احتياطيًّا..».

انبهرت بقدرته على الفضح.. واقتربت أكثر من هذا الصوت العجيب.. لقد ذكّرها بالكثير من الكوابيس القديمة.. احتضنت المذياع بحرارة علّها تسترجع ذاتها التي ضيّعتها في متاهات الكلمات... واصل قائلًا بأعلى صوته:

«يا أهل تونس في كل مكان، يا أهل الدندان ومنوبة والقصرين وصفاقس وتوزر ومدنين وجندوبة والكاف.. إن كان فيكم من باعَ صوته فعليه حالًا الالتحاق بالمشتري لأنه هو الآن بصدد سرقة أشياء أخرى منكم.. عقولكم وأحلامكم وبلادكم وبناتكم وأجسامكم ووجوهكم إن كنتم تملكون وجوهًا.. ويا مَن اشترى هذا الصوت.. مباركٌ عليك يا ابن أمّك ولتمضِ عميقًا في هذا الشكل «الديمقراطي» من «الدعارة السياسية».. بارككم الله ورحمكم أنتم وذويكم من تجار الأصوات بكل أطيافهم الحزبية وأعانتكم الآلهة على «المواخير الانتخابية المعاصرة».. أمّا نحن فسنبقى خجولين مدى الحياة ومدى الممات أيضًا من دماء الشهداء...» أغلقت المذياع وهرعت على عجل إلى السوق المركزية للتأكّد من هذا الخبر..

أرجوحة في جهنّم.. كانت تلك آخر الكلمات التي ما زالت تذكرها.. لم تنْسَ تمامًا تلك القصيدة التي أنشدها وهي

تنام على صدره.. لكنها لم تعد تذكر بما يكفي كل ما وقع ليلتها.. وكانت السَّماء تتلألأ بالنجوم لكن نجمًا واحدًا كان يرمقها.. أغرته بعيونها الغنجاء الكحيلة.. كانت تعلم جيدًا أنّ الإله الذي رسمها قد وهبها عيونًا ساحرة.. وأنّ كل الفتيان الذين لاقتهم في حياتها الأخرى كانوا مفتونين بها.. وأنّها كانت نزقة وضاحكة ومستهترة.. لكنّها بعد سنين لم تَعُدْ تحصيها.. لم تعد تهتمّ بمن سيلاقيها.. عيون مليئة بالغموض صارت تَعبُر بها كل يوم السماوات البعيدة ألف مرّة.. سألها يومًا «لماذا تُكثرين التحديق بالسَّماء» أجابته «إنّي أعدُّ النجوم» ضحك وقال «لكنك لا تحذقين فنّ الحساب» قالت «بلى فأنا أتسلى دومًا كلما أخطأت في العدّ». تلفَّت عنها إلى أنثى أكثر غباء وأشاع في البلد «أنّها جُنّت»..

كانت كل يوم تفتح عينيها مع مطلع الشمس.. وكانت تغمضها كلّما داهمت الخفافيش المدينة.. وها هي اليوم تتقاطع مرّة أخرى مع الكثير من الأشياء التي هرعت إليها تطلب منها نظرة واحدة كي تغنم اسمًا ومعنى أو حتى شتمًا أو لعنة أو احتقارًا.. كل الأشياء تنتظر عينيها كي تتَّخذ لنفسها مكانًا في هذا العالم.. حقيبتها اليدوية كانت أقربها إلى عينيها.. ثمّ طاولة المطبخ.. ثمّ رفوف الكتب.. لكنّ المرآة أصابتها الغيرة واحتدّت بها الضغينة والحسد.

«لماذا تأخرت أقحوانة عن التحديق بي وأنا عينها الثالثة».. وأقسمت على تقبيحها وتشويه صورتها منذ أن تلاقيها.. غير أنّ أقحوانة لم تعبء بها منذ ذلك اليوم..

وقرَّرت أن تنقطع عن المرآة حتى لا ينتحر نرسيس مرّة ثانية.. فماذا يجديها وجهٌ سئمت من حمله ومن تملُّق المغفلين عبر سطحه المخادع.. صارت تكره كل الأعضاء القديمة.. وصاحت إلى السَّماء بأعلى صوتها «يا آلهة الشرق والغرب.. إليّ بوجه جديد وإلّا حرّضت عليكم كل المؤمنين بكم ودفعت بهؤلاء المغفلين إلى إعلان العصيان الإلهي.. لا أحد سيستجديكم.. ولا أحد سيطلب عفوكم ورحمتكم.. لا أحد سيصلّي لكم..»..

أرجوحة في جهنم.. مَن يجرؤ على هذا الطلب؟ ولأي غرض ستصلح هذه الأرجوحة؟ للعب؟ للرقص؟ للحرق اللذيذ؟ ومَن منكم صار يقدر على التأرجح في جهنّم؟.

واستيقظت فجأة من قاع الأساطير القديمة التي تنام في جلدها بعض من آلهة العرب التي خافت من تهديدها وأحسَّت بالخطورة على مصالحها الاستراتيجية والبيداغوجية.. كارثة هي أقحوانة وكارثة كل امرأة تحرَّرت من المرآة.. وترى أصنام مكّة تسرع الخطى ويلحق بها النحَّاتون الوثنيون.. بعضهم لم يفرغ بعدُ من استكمال تمثاله فحمَلَه على كتفه مخافة أن يفوته الركب.. وآخر نسِيَ تصميم عين صنمه فأبطأ في الوصول إلى ركح الرواية.. لعنته أقحوانة بسحر حرف الألف... فعاد إلى الحجر ونسي بعضًا من عظامه في صحراء الخليج العربي.. التقت كل التماثيل التي وقع استكمالها في الأجل المحدَّد.. نصبت لكلِّ مَن نجح في العودة إلى الحياة وليمة شهية.. أكلوا وشربوا حتى سكروا.. وجيء بالقينات والمغنيات والجاريات

وكل أصناف الإناث والنساء.. وفجأة احتدّ النقاش بين اللات ومناة لأسباب شخصية جدًّا لا يُباح بها للعوام.. ولم تسمع غير هذه الكلمات «أرجوحة في جهنّم..».

وواصلت بنفسها ذاك النقاش علّها تهتك سرّ هؤلاء الوثنيين الذين يعبدون الحلوى تارة ويأكلوها تارة أخرى.. قالت: «أرجوحة في جهنّم... من يظفر بها من النسّاك والأولياء الصالحين؟ أيّ الأئمة سيفوز بهذا المنصب؟ هل جنّ الجاهليون أم أصيبوا بالتعب من فرط قوة ذاكرة العرب؟ أم تُراهم سكروا بالخمرة الدمشقية فذهلوا عن منصبهم وسقَطوا في معارك لا تهمّ أحدًا غير البشر».

أشفقت عليهم من انحدارهم إلى عالم اللهو واللعب ومن تنكيل لغة الضاد بهم.. صمتَت.. وفي لحظة صمتها التي طالَت حتى قلقت الحروف من الوقوف على حدود الورق، قفزت إحدى القينات التي كانت تداعب إحدى ملوك العرب الهاربين من البلاد أعزَّهم الله ورحمهم بوابِل سخطه وغضبه ولعنته.. قالت ضاحكة والمجون ظاهر على كل أعضاءها: «كفاكم خصامًا يا تماثيل العرب.. لقد أقلقتم راحة مولانا الملك وشوَّشتم عليه لذّة السلطان وأفسدتم مجلس الإمتاع والنزق.. ألا تخجلوا من أنفسكم ما زلتم تثيرون الشغب والصخب في مسائل لم تَعُدْ تغري أحد.. تحجّروا ثانية تحجّروا.. وإلّا طالبناكم بدفع الجزية والخراج وحلق رؤوسكم والطواف الأبدي بمكة..

«وحدهم من يقدرون على الرقص يستحقون أرجوحة في جهنّم تنسيهم متاعب الدنيا وأدران الروح والجسد».

ولمّا انتهت القينة.. ضحكت صاحبة الرواية من حماقة ذاكرتها التي حفظت تلك الحادثة.. وتمتمت في نفسها «لا تُصدّقيها يا أقحوانة.. فهي ذاكرة لعوب تختلق الأكاذيب والأوهام وتدفعك إلى التصديق بأنّ لك حياة قديمة وجذورًا بعيدة.. وما أنت سوى دودة من رحم الأرض.. تقدّمي باتّجاه آخر.. ولا تعودي من هذا الطريق..».

أحسّت ياسمين بالتعب.. نظرت إلى الساعة فوجدت الوقت متأخر جدًّا.. أغلقت رواية أمّها.. وغاصت في نوم عميق..



... أرجوحة في جهنّم..

كان يومًا طويلًا.. كل الناس تعبوا من المشي بأقدام حافية.. والطريق محفوفة بالأشواك من كل نوع.. نام الجميع على حافة البحر.. لم تبْقَ غير أقحوانة.. لا النوم يكحّل أجفانها ولا الذكريات تفارق عقلها المُثقَل بعصورٍ لم تَعُدْ تميِّز بينها.. شيء واحد هي الآن تراه أمامها.. واقعة قدومه إلى الجزيرة.. رثًّا قملًا جائعًا بائسًا.. يجرّ أذيال التعاسة الإنسانية واللعنة الإلهية.. كان يُسمّى كبير الرأس وكان أهل الحيّ ينادونه العُقربان.. نسبة إلى حشرة سمّها قاتل ولها قصص كثيرة مع مقبرة الجزيرة.. إذ هي من أثّث مساحتها بالسكّان الأليفين الصامتين الذين يخافون من الحكّام.. جلس على حافة الأريكة.. وكانت أقحوانة تعدّ الشاي الأحمر.. التفت صوب النافذة التي تطلّ على البحر.. وقال في إيقاع عبثي: «ألَم تعلمي بآخر الأخبار في الجزيرة.. أعرف جيّدًا أنّك لا تبالي بأيّ خبر مهما كانت فظاعته.. إذ ماذا يهمّ الجثامين بعد دفنها؟».

قاطعته في نزق: «وأنت أيّها الرأس الأحمق.. لماذا تعود إلى الجزيرة بعد كل هذي السنين؟ ألَم تسأم من الجلوس على هذه الأريكة الحزينة التي تحمّلتك سنينًا طويلة؟».

ردّ عليها متهكّمًا: «بلى.. لقد عدت إليك لأنّه لا أحد قبل بتشييع جثماني.. قالوا أنّي بالغت في الانتماء إلى أحزاب اليسار وفي الدفاع عن حقّ الجميع في الأكل والشرب والنوم والنكاح كلّما توفّرت الأعضاء والصلاحيات والنساء القينات والجاريات».

قالت وهي تغمز هزوًّا: «حتّى حفّاروا القبور صاروا هذه الأيّام ينتقون جيّدًا الجثث الجديرة بالدفن.. يا لبؤس هذا العصر الذي سقطنا فيه»..

ساد الصمت بينهما.. وفجأة دخلت إلى بهو البيت حسناء جميلة تطلب من أقحوانة بعضًا من الحلي والزينة ومساحيق التجميل.. لقد كانت مدعوّة إلى حضور عرس أحد الحكّام الجُدد.. لكنّها انشغلت عنها ولم تجبها عن طلبها.. والتفتت مذعورة كمن تذكّر أمرًا جللًا.. صاحت به: «أيّها الرأس الكبير.. ما الخبر الذي جئتني به.. هل شغلتك الجثامين عن الأمر المكين؟ انطقْ يا صاحب الحمق وإلّا قسمت رأسك نصفين».. وكانت تحمل بيدها سكّينة اللحم..

أجابها في فزع: «إنّي جئتُ كي أُعلمك بأنّ الجزيرة التي نحن عليها سيبتلعها البحر بعد أيّام قليلة.. وسنموت جميعًا غرقًا.. فاستمتعي بأعضائك قبل أن تصير طعامًا لقروش البحر ولعبة بين زعانف الدلافين»..

❋ ❋ ❋

صدفات حائرة...

أحسّت بقشعريرة برد حادّة.. وخطر ببالها للتوّ أن تمدّ يدها إلى بطنها طالبة شيئًا من الدفء.. لكنّها لم تجد يدها.. أين رحلت عنها في هذا الشتاء القارس؟ تذكرت أصابعها العشرة.. قد يكون أحدها وفيًّا لها.. لكنّها مُنيت بالخيبة.. حاولت أن تلفّ ساقيها حول أعلى جسمها بحثًا عن قليل من الأمان.. لكن لا واحد من أعضاءها كان يصاحبها.. استيقظت مذهولة.. وتملّكتها الأسئلة المرعبة: هل تكون قد تحوّلت إلى كائن آخر؟ أم أنّ أعضاءها سبقتها إلى زمن الرواية؟ أم تخلّى عنها بدنها من فرط الجنون؟.

أحسّت بالبلل.. بل بالغرق إلى حدّ النخاع.. أدركت حينئذٍ أنّ نبوّة الرأس الكبير قد تحقّقت.. إنّها تسكن قاع البحر بعد أن غرقت الجزيرة بالكامل.. هل تكون آخر الأحياء الناجين؟ ولماذا اختارها القدر كي تنجو وحيدة من الموت؟ قرّرت أن تفرح بنجاتها وأن تغرق عميقًا دون أن تندم على تحوُّل شعبها إلى عدم.. ولم تكن تدري أنّها لم تَعُد بشرًا.. ولم تعد لا أنثى ولا ذكر.. شيء واحد كان يشغلها هو القلم والورق لكتابة ما تبقّى من الغرق.. لكنّ المدينة التي غرقت فيها تمنع الكتابة لأنّها مضرّة بصحّة الآلهة...

ابتهجت.. لقد بدا لها أنّها نجحت أخيرًا في الخروج من أعضاءها القديمة.. وأنّها بصدد التحرُّر من ماضيها ومن مستقبلها.. لا تاريخ للصدفات ولا ذنب على أعشاب البحر.. همست في حسرة «خسرتُ البشر لكنّي ربحت البحر».. حاء واحدة كانت تفصل بينها وبينهم.. ماذا تستطيع هذه الحاء بمفردها؟.. لكنّ الحرف لم يكن وحيدًا.. ولم يكن ليستقرّ في مكان واحد.. كان يسبح ويغوص في قلب الأمواج.. والبحر يعزف موسيقى جديدة..

ماذا تستطيع أن تفعل بجسم صدفة بحرية.. هل بإمكانها أن تحلم وأن تتناسل وأن تحبّ وأن تنكّل وأن تتآمر على الكلمات؟ هل يمكنها أن تضحك وأن ترقص وأن تغضب وأن تلفّق الأكاذيب؟ سقطت في دائرة مائية من الأسئلة الهاربة إلى الأعماق.. ومن حسن حظّها جالَ بخاطرها كلام لأحد الحكماء «إنّنا لا نستحم في نفس النهر مرّتين».. أدركت حينئذٍ أنّ الشيخوخة لن تصيبها أبدًا.. وأدركت أنّ في مستطاعها الكثير حتى حينما تكون أقلّ من بشر.. بإمكانها أن تسبح وأن تستحمّ وأن تصير وأن تتحول على الدوام.. نجحت في الانتصار على الموت، لكنّها لم تنجح في إدراك الخلود.. لم تهتمّ بهذه التفاصيل.. واقتنعت بمصيرها الذي لا أحد بوسعه التنبؤ به.. وربّما لن يتسائل أحد عن الأقدار التي بحوزتها لأنّ سكّان الجزيرة غارقون في بحر آخر..

همست في قرارة البحر وهي تتلمس قشرتها الهشّة.. «قد لا تُعجِب أبنائي هذه الحكاية..» ردّت عليها صدفة مجاورة

«ليس المهمّ هو الحكايات.. كل ما يُكتب على الماء يتغيّر في كل لحظة.. وقد يمحي.. ولا تبقى غير الكلمات القادرة على الضحك.. اكتبي ما تشائين.. فالأطفال القادمون من الأعماق لن يقرأوا إلّا ما يُكتب من أجل الحياة».. رمقتها في صمت.. يبدو أنّ جارتها لم تفهم قصدها لأنّ صدفات البحر لا تنشغل بأطفالها.. وحدها الأمّ البشرية سليلة أديم الأرض ترغب دومًا في الاستيلاء على أبنائها في نحوٍ من الندم على لفظهم فوق سطح الأرض..

قالت الصدفة الصغيرة: «هل أنت ساكنة جديدة.. لم أرَكِ من قبل في الأعماق؟».

أجابت: «عفوًا.. لم نتعرّف بعدُ.. أنا اسمي أُقحوانة.. وأنت. . .؟».

استغربت سؤالها.. ردّت متعجّبة: «أيّ نوع من الأصداف أنت؟ وهل أنت بحريّة أم جنيّة؟ نحن سكّان الأعماق لا نحتاج إلى الأسماء.. إنّنا جميعًا صدفات بالقدر نفسه وبالاسم نفسه.. متماثلات إلى حدّ الضحك.. لا شيء يفرّق بيننا.. وكلٌّ منّا بإمكانها أن تكون الأخرى.. وأن تصير هي هي في الوقت نفسه.. لا فرق لدينا ولا حَرَج أن تعوّض الواحدة منّا الأخرى في أيّ موضع..».

قاطعتها أقحوانة في دهشة حادّة: «أأنتم متماثلون؟؟ كيف تحبّون وتغارون؟ وكيف تتناسلون وتتنافسون؟ وكيف تكذبون وتصدقون؟ وكيف تنافقون وتتملّقون؟ وكيف تتميزون وتبدعون

وتفشلون؟ وكيف تثورون وتطيعون؟ وماذا فعلتم بضمائر النحو؟ ألا تتألمون من غياب «أنا» في لغة الأصداف؟».

ضحكت الصدفة الصغيرة مِلء قشرتها الهشّة حتى كادت تخرج عن جلدها.. أجابت: «بلى نحن نحبّ ونكره ونتناسل ونضحك ونكذب ونفشل ونتألّم.. لكننا لا نحتاج في كل ذلك إلى النحو إطلاقًا.. لا أحد منّا يملك «أنا» خاصة به.. كلّ منّا تصير ما تريد كلّما رغبت بذلك.. فالأعماق رحبة تتّسع لكل أحلام البحر.. ولا شيء يضطرنا إلى الأسماء ولا إلى الضمائر ولا إلى دفتر المناداة..».

صمتت أقحوانة برهة من الزمن وقالت في حسرة: «وماذا فعلتم مع مشكل الهوية؟ لقد أتيتكم من مدينة احترقت بالكامل من فرط صِدام الهويات..».

ردّت عليها الصدفة في تهكّم: «لا شيء يضطرّ سكان البحار إلى الهوية.. نحن نحيا في صيرورة دائمة.. لا أحد يبقى هو هو إلّا بشكل مؤقت جدًّا.. وسريعًا ما تجرّنا الأمواج إلى أعماق مغايرة.. لكنّ هذا الحديث عن الهوية حكاية قديمة جدًّا كان يحكيها لنا ملك البحر في زمن بعيد جدًّا.. حينما كان للبحر ملكًا»..

ردّت أقحوانة في لهفة: «وأين ذهب ملك البحر.. إنّي مشتاقة إلى رؤيته.. لقد كانت جدّتي تقصّ لنا الكثير من الحكايات عنه».

أجابتها: «لن تتمكني من رؤيته صديقتي.. لأنه رحل عنّا

بلا رجعة.. طردته الأمواج العاتية إثر عاصفة عارمة أتت على كلّ العالم القديم ونكّلت بكلّ طغاة الأعماق»..

أجابت: «نحن أيضًا حدث لنا في مدينتنا حدثٌ مشابه.. لكنّ سكّان الأرض لم يفلحوا في إنقاذ أوطانهم من أكاذيب الدول.. لذلك غرق الجميع دون أن يكتبوا حكايتهم لأطفال مَنَعوا عنهم الحلوى وسمحوا لهم بالرقص في المساجد».

قالت الصدفة الصغيرة: «هيّا أعرّفك ببقية الصدفات..».

لملمت أعضاءها الجديدة وزحفت نحو الأعماق لاكتشاف قدرها الجديد.. همست في حيرة «تُرى ماذا تخبئ لنا أعشاب البحر؟».

جلست أقحوانة بين أعشاب البحر النائمة. كان النهار هادئًا كأنّ العاصفة قد انتهت، أو منحت البحر هُدنة مؤقتة.. لا أحد يدري متى ستعود، لكنّ الجميع يعلم أنّ حياة الموج فارغة بلا عواصف. كان اليوم يوم سبت حيث ارتاح الله من خلق العالم. غير أنّ الآلهة لا تهتمّ أبدًا إن كان ما خلقت جديرًا بالحياة والخلق أم غبيًّا وعديم الجدوى. وفجأة تعالت الضحكات من الأعماق. خطر لها أن ترسم بدلًا من الآلهة لوحة ضاحكة بالمشهد البحري. فقد سئمت الصدفات كآبة السلاحف ومكر الأخطبوط ولُعابه الأسود. لماذا لا نكتب تاريخ العاصفة من الجهة الضاحكة؟ نادت بأعلى صوتها كلّ صديقاتها للجلوس معها إلى ركح الحكاية.. لقد قررت أن تحكي للجميع حكاية العالم الذي قذف بها صدفة إلى الأعماق.. وسرعان ما التفّت بها كل الصدفات المجاورة..

قالت في بهجة وقد سرّها تلبية ندائها من طرف سكّان البحر.. يبدو أنّهم يحبون الحكايات على عكس بني جنسها الذين حرقوا المكتبة وأتلفوا كل الأقاصيص والكتب: «لقد آن الأوان أن نضحك ملء المعاني العميقة التي تُخبئها عنّا ضحكاتنا.. لا أحد يعلم مستطاع الضحك.. لأننا لا نضحك فقط كلما أضحكتنا تفاصيلنا اليومية.. بل يحدث أن نبكي أيضًا وأن نسخر وأن نشمت وأن نثأر وأن نثور وأن نغضب وأن نعبث وأن نُصرّف كل الطيش والنزق والحريات التي سُلبناها.. كل ذلك يختفي في الضحك.. اضحكوا قدر المستطاع قد يكون ذلك هو آخر ما تبقّى من ممكن الحياة ومن سياسات الأعماق.. ومن إمكانات الفرح بأننا ما زلنا هنا وبأنّا سنفنى هنا على حدّ الجرح والحرف..» قالت أصغر الصدفات: «وما الذي يضحك حين تغرقون؟ هل هو البحر أم موت مَنْ لا يُتقن البقاء في الأعماق؟».

ردّت أقحوانة: «بلى ما يضحك ويُبكي معًا هو ركح العبث الذي أصاب مدينتي قبل أن تبتلعها البحار.. ما حدث لنا شبيه بالعاصفة التي ذهب ضحيتها الموج المتمرِّد على الأقدار..» ثمّ طفقت تكتب على سطح الماء ضحكاتها ممّا حدَث لسكان مدينتها قبل تحوُّلها إلى كائن بحري.. كتبت ما يلي:

«سبع ضحكات هي حصيلة يوم بحري. إنّ البحر يزحف وهو بصدد ابتلاع البر.. لن تبقى غير العواصف وبعض الصدفات.. والكثير من المضحكات المبكيات..».

ضحكة أولى أرسلتها إلى الصدفات من عبثية مشهد

احتراق شابّ من عمق الريف.. صفعوه على خدّه الأيمن فأحرق نفسه بوسوسة من خدّه الأيسر فحُكِم عليه بالحرق مرّتين: حين صفعته بوليسة فغفر لها الحاكم الوقتي ذلك. وحين سيحرقه الله في جهنم لأن حرق النفس البشرية أمرٌ حرام، لكن المضحك هو أنّ هذا الفتى الملتهب لم يكن بشريًّا تمامًا. ربما كان أكثر من بشر أو أقل من بشر. وذاك هو ما لا تغفره الديانات ولا الدول.

وضحكة ثانية كتبتها للصدفات حينما اعتلى عرش العاصفة التي أجّجتها الحيتان الحرّة سلاحف هرمة ترهَّلت من كثرة الزحف تحت أقدام الأخطبوط ولم تعد تتذكر من الأجناس الحية غير «القرود» و«الشرذمة الضالة» و«الجرذان».. أمّا بقية البشر فلا يعرف عنها السلاحف شيئًا تحت مفعول حبيبات النوم وضيق القلب وضغط الدم وهبوط السكّر وأمراض أخرى..

وفي المرّة الثالثة ضحكت الصدفة من ازدحام المساجد بأنصاف المؤمنين.. لقد صار الجميع مصلّيًا في هذه المدينة.. وتكاد لا تميِّز يومئذٍ بين وجوه الصلاة ووجوه الحانة والمخدرات.. دخلوا الإسلام أفواجًا بعد أن كان أكثرهم يخاف من لحيته..

وضحكة رابعة من مشهد الأحزاب التي خرجت عن طور العقل والعدّ في حين يجنّ الفقر والبؤس ولا أحد من الطرفين يعلم إلى أين سيصل الحزب ولا أين يتوقف البؤس والذعر..

والضحكة الخامسة أشبه بالبكاء إزاء أطفال باتوا يبحثون عن غذائهم في مصبّات القُمامة.. هؤلاء أيضًا يلزمهم «حزب

القُمامة» وربما ينتخبه الكثير بدلًا من أحزاب الحداثة والحرية والديمقراطية والعدالة والإنسانية..

والضحكة السادسة اضحكوها ملء أفواهكم وإلى مَن استطاع إلى ذلك سبيلًا.. كل يوم يُحاكم الأخطبوط وعائلته في نشرات الأخبار.. وكل يوم يُطلق سراحَهم لعدم سماع الدعوى ولعدم ثبات الحجة ولعدم كفاية حجم الجرائم التي ارتكبوها في حق الشعب.. ثبّتوا إذًا ضحكاتكم جيّدًا..

وفي المرّة السابعة تشرق الصدفةُ من فرط مُلوحة الضحكة.. فيُغمى عليها. وفي أثناء ذلك ترى في الحلم الدكتاتور محميًّا جيدًا في مدينة الله، ذاك الله نفسه، الذي سيحرق البوعزيزي.. وترى أيضًا نساءه جميعًا وغلمانه حواليه يرفلون في حرير مكّة، لكنّ ما أضحكها بشكل مريع الأمر التالي : لقد شاهدت في حلمها سيدة تونس الأولى وهي تُلوّن شعر الدكتاتور باللون الأزرق البحري.

قاطعتها الصدفات في غضب: «أيّها التونسيون.. ويحَكُم لا تلمسوا لون البحر.. ولا تدنِّسوه بحكايات الحمقى..».

ردّت أقحوانة: «هدّئن من روعكنّ.. ليس في الاستعارات الأدبية خطر على البحار».. لكنّ الصدفات لم تسمعها.. واحتدّ النقاش بينهن حول مستقبل لون الأمواج.. وتعالت الأصوات وارتفعت حرارة الأعماق من فرط غيرة الأصداف على لون البحر.. طفقت تُؤجّجُ الأمواج وتُؤلّبها ثانية.. علّ العاصفة تمنح للأعماق لونًا جديدًا.. صمتت أقحوانة في حيرة من أمرها.. لماذا غضبت هذه القشريات

الصغيرة إلى هذا الحدّ؟ ألهذه الدرجة يغارون على اللون الأزرق؟ وما ضرّهم لو تغيّر لون الأعماق؟ ندمت على سوء تصريفها لشهوة الأدب.. وفكّرت في استراتيجية مغايرة لجرّ الصدفات إلى قصّتها دون أيّ شكل من عنف الاستعارة. . .

كانت الصدفة مطمئنة ترسم وتعلِّم الصدفات الصغيرة الرسم وتمتشق الألوان وتلعب بالريشة.. وكانت تظنّ أنّ ريشة الرسّامة هي أخطر الأسلحة بعد هدوء العاصفة.. ولكن ما راعها إلّا أنّ الليل قد جنّ في وضح النهار.. ودخلت العصا إلى القسم مرّة أخرى.. هي ليست عصا المعلّمة، فهي المعلّمة.. ضحكت ملء شدقيها وقالت: «هل جاؤوا يؤدّبون المعلّمة هذه المرّة..؟».

حينئذٍ قرّرت أن تستفتي أخطبوط القرية: سيّدي ومولاي أفتيني في هذا «هل أنّ تأديب المعلمات أمرٌ مباح أم مندوب إليه أم مندوب عليه؟» فقبض الأخطبوط على ظفائره الطويلة ورسم على الماء شيئًا قرأته الصدفة بسرعة لأنّه من الرسائل التي تمّحي ما أن تتمّ قراءتها.. قال:

«حين يجنّ الليل في المدينة ويستفحل به الجنون يومئذٍ يخرج الزمان عن طوره فتذهل القلوب عن عقولها وتتشرّد الأعضاء.. وحين يصير العلم والأدب تُهمة للعالمين فيُجلدُ الخيال خمسين جلدة كل يوم ممّا يعدّون من عُمر المخيال المُتعب بالسنين، فاعلم أعزّك الله أنّ ميعاد الكارثة من ناظره لقريب.. لا شيء يفصل حينئذٍ بين النصر والهزيمة غير خيط جميل.. خذي ريشتك وارسُميه جيّدًا بالحبر الأسود ولا تنسي

طرد البنفسج من حوض ألوانك.. قد يفسد عليك اللوحة مرّة أخرى فادفعي برسومك بعيدًا عن الهاوية.. ههنا حفرة عميقة لا أحد يحسن قيسها بالبركار والمسطرة غير مَن يحذق التحديق في الظلام.. ولا أحد يبصر في الظلام غير الخفافيش..

وحين يحكمون بجَلدك مائة جلدة في اليوم لأنّك انتصرت على الهاوية ونجحت في فكّ الطلاسم وتكنيس الأشباح من قلوب فتيان المدينة، فأعرضي أعزّك الله يومئذٍ عن القوم الجاهلين وأَمسِكي بلسانك وبعقلك وبحيائك عن الزائفين.. وقولي «صبرًا.. فلنا القلم والزمن.. إنّ وعد الله في سرّ كمين.. أنتِ هنا يا علّيسة الدهر سيّدة الأمر والنهي فقُصّي الجلود جيّدًا وأبحري حيثما شئتِ ثمّة وجه الله وحنّبعل يرقبك وسندباد البحر يعدك بقصّة أخرى.. ولا تغرنّك المجالس والكراسي وعدد المقاعد المزوّقة بالزنجبيل.. فلا خدور ولا قصور ولا قبور.. لا أحد انهزم ولا أحد انتصر ولا أحد يعلم الغيب غير علّام الغيوب سوف ينجيك غدًا من الكروب.. وسوف يمسي عليك المساء وحين تثقل الموازين ابحثي لك عن بغّال أو عن حمّال قديم يخفّف عنك وزرك.. واحذري حين ترسمين وجهًا آخر للمدينة من تلطيخ لوحتك بالزنابق المجفّفة بنار القرابين.. هل جلبت معك كلّ ألواحك الضاحكة؟ ولا تنسي اللون الأحمر وقّعي به جيّدًا هذا الليل الطويل.. ستشرق الشمس يومًا.. لا تبكي قد تُصابُ اللوحة بالكآبة وقد تحزن الألوان فتحجم عن الرسم.. فمن أين لنا بضحكة الأطفال من هذا الزمان الفقير؟» عندئذٍ ضحكت الصدفة وقالت في نفسها: «لا ذنب على الرسوم».

ليلتها نامت عميقًا. . لقد بدأت تشعر أنّ هذا العالم هو عالمها. . وأنّها ليست غريبة عن قدرها الجديد. . وأنّ كلّ المواضع صالحة للحلم. . حتى لو سكنّا جسم صدفة. . . قشرة واحدة وقطعة لحم كافية لكتابة الرواية. . لا شيء يضطرّنا إلى التكثير من الأعضاء. . المهمّ أن يكون لنا دماء تسري في موضع ما من كياننا اللحمي. . والبقية تتكفَّل بها حروف الضاد. .

تعالى صوت النباح من كل صوب. فزعت الصدفات الحائرة خارج مواقعها. بعضها يرتعد من الكلاب الشاردة التي تجمَّعت في قاع الهامور. وأخرى انكفأت على نفسها واختارت أن تكون مُحايدة، لكن أصغرهن سنًّا تسمّرت في مكانها مبهوتة ترقب المشهد. لم يحدث أن تَعكَّر صفو البحر من طرف كلابه. . وكان الضحية هذه المرّة كلب مناشد للأخطبوط. وكان الجلّاد كلب سمّى نفسه بالمثقَّف الثوري. لم تفهم الصدفة الصغيرة شيئًا لأنّ الجميع كان من جنس كلاب البحر فعَلامَ يتخاصمون وقد كان الجميع قبل العاصفة في وئام مع الأخطبوط؟. كان الركح أكبر من جسمها الذي تُخبّئه داخل قشرتها اللعوب. لكنّها تذكرت للتوّ طرفة قديمة عن الكلاب. . حين سُئل أحدها وقد هرب إلى بحر مُتاخم عن سبب ذلك، أجاب ساخرًا «من أجل النباح». كان على حقّ فالأخطبوط لم يكن يسمح بغير التصفيق على فظاعاته والصمت على مواخيره السرية.

ثمّة مَن حياتهم مستنقعات وثمّة مَن يصطاد في الماء العكر. ذاك هو الفرق الوحيد بين التصفيق العلني والصمت

السري.. لكن كلاهما من نوع الكلاب المناشدة التي عمّرت طويلًا، بفضل أصابعها المصفقة أو بحناجرها البكماء، الأخطبوط الدكتاتور. ولم يكن للأخطبوط أن يحافظ على أصابعه الثمانية لولا شعب كامل ناشدَه من أجل البقاء بصوته أو بصمته.. حمقاء هذي الكلاب التي تنبح ضدّ زملائها المثقّفين الذين اقتنص أسماءهم الأخطبوط لسببٍ فظيع لم يكن يسمح به دكتاتور جاهل هو أنهم تثقّفوا أكثر من اللازم.. بعض الضحايا كان مفكّرًا وكاتبًا عنيدًا من أجل الثقافة العربية.. وبعضهم طبيبًا يداوي الجراح والسرطانات وآخر حقوقيًّا من أجل الإنسان والإنسانية.. بعضها كان أكبر من أمعاء الدكتاتور السوداء.. لأن الأخطبوط، كما تعلمون، لا يمتلك رأسًا، بل له أمعاء فقط.. وحين يتعكَّر صفو البحر ويختصم كلاب الصوت مع كلاب الصمت وحين تختلط الأصوات المثقفة بعد رحيل الأخطبوط لا أحد يربح المعركة غير السلاحف لأنها تتقن فنّ الزحف، لكن الوقوف على الشاطئ مهارة لا تتقنها غير الصدفات. أمّا حين يتَّخذ المثقف شكل الأخطبوط لن يترعرع حينها في الأعماق غير الأعشاب الطفيلية.

ويظلّ كلاب الثقافة ينهشون لحم المثقفين ويوزِّعونه على أعمدة الجرائد بتهمة المناشدة. وسواء كانت المناشدة قد تمّت برضاء الطرفين وعن عشق أسطوري للمعشوق أم عن طريق الغصب والاغتصاب، فإن هذه الأسماء التي أصابتها لعنة المناشدة لا ينبغي أن تشعر بالخجل لوحدها وكأنّ باقي أعشاب البحر بريئة ونظيفة وثورية.. ويْحَكُم مَن كان ثوريًّا قبل دماء الشهداء غير السجناء والذين قُتلوا دون أن يعلم بهم أحد؟..

يا كلاب البحر نظِّفوا أياديكم وزعانفكم جيّدًا فكلكم مناشدون، رمزًا أو حقًّا، لا فرق بين التوابيت والقبور.. وحدهم الشهداء لم يناشدوا الأخطبوط الأحمق.. كلكم شاركتم في تجميل الواجهة. ويْحكُم من كلاب حمقاء.. كُلّكم مذنبون بأذنابكم وبأذيالكم.. بعقولكم وبأجسامكم.. بمن كتب وبمن صمت وبمَن تحصّن بالمكتبة.. وبمن انغمس في المجاز والرمز.. فتوقَّفوا عن تلويك هذه العلكة الركيكة التي ألهَتْكم عن الانشغال بالمجرمين الحقيقيين الذين سرقوا أموال الشعب واغتصبوا نساءه وأحلامه ودمّروا إمكانات الإبداع والحياة داخله.. وإن كان لا بدّ من تلويك علكة المناشدة التي تمسَّك بها أشباه الثوريين وأنصاف العقول.. وكلٌّ بما لديهم فرحون.. فلتحاسبوا كبار المناشدين الذين ما زالوا يتربعون على العرين... فإن الأشياء العظيمة لا تقبل إلّا بفعل عظيم أو فلتصمتوا صمتًا عظيمًا.. لأنّ مَن «كان ثوريًا حقيقيًا عليه أن يصغي جيدًا إلى نموّ الأعشاب» حذار من الصحراء وممَّن تُخبّئ الصحاري.. أمّا الصدفات فلا تعيش إلّا على الأغنيات..

يومئذٍ جيء بالصناديق. يحدّها فوقًا اللون الأحمر وشرقًا صناديق القمامة في الأحياء الفقيرة ويمينًا المساجد بمضخّمات صوت عوَّضت الصلاة بالحملة الانتخابية ويسارًا ترمقها عيون الشهداء ومن الغرب توابيت من مختلف الأحجام والأشكال احتفظت بأصواتها.. صناديق بيضاء شفّافة كعروس تأخّر عنها العريس في قاعات الاقتراع. عُرسُ مَن هذه الليلة؟ عرس الغربان أم عرس الجرذان؟ أم عرس الحمام؟ شفّافة هذي الصناديق.. لكن ماذا تُخفي في عرائها وخوائها من أقدار لهذا

الشعب؟ جيء إذًا بصناديق الاقتراع مُحمّلة بديمقراطية بلاستيكية من جنس المطاط المقوّى. مَن سيخرج منتصرًا من هذي الصناديق؟ ومَن لن يدخل إليها لضيق ذات اليد؟ ومَن سيختنق داخلها ويخرج جثّة من ورق منهزم؟ لِمن ستُصوِّت الصدفات؟ قالت: «طبعًا، سأصوّت لجميع أعضاء المجلس التأسيسي... دون ماء فرق بين أهل العقل وأهل النقل.. ودون تمييز بين أهل الشقاق وأهل الوفاق... ودون مفاضلة بين بائعي الله في القنوات وحماة جبّة الحلّاج، بين المدافعين عن الجوع بالجوع والذين اشتروا أصوات البعوض والضفادع بالمليارات من أجل شفافية النتائج...».. لكنّ الصدفات ما زالت بلا أعضاء، فكيف لها أن تمضي من دون الإبهام الأيمن أو أن تبصم من دون السبّابة اليُسرى؟ وهذه أعضاء انتخابية لا يمكن زرعها للغرض إلّا باستشارة دولية، لأنّ رأي العمّ سام ضروري في استيراد الديمقراطية لغير الناطقين بها... بل كيف ستُميّز بين اليسار واليمين.. وبأيِّ لغة سوف تُخاطب الأحزاب المؤقتة؟ لمن ستصوِّت لصناديق القُمامة أم لصناديق الشهداء؟ ثمّة مَن لا صوت له وثمّة مَن باع صوته بأبخس الأثمان وثمّة من خبّأ صوته للصراخ في الشوارع القادمة.. وآخرون عادوا إلى الصمت.. مَن سرق من الجياع حناجرهم؟؟ ورهط غير بلاستيكي المعدن أحجم عن لمس الصناديق خوفًا من أن تكون ملغّمة بأصوات مسروقة.. مطالبًا بصناديق أخرى وبتكنيس حقيقي للمدينة وألف عصفور يحرقون عبر البحر إلى دول أخرى هربًا من الصندوق وممّا يخبّئه من قصص بائدة ومن

جوع ديمقراطي ومن استبداد جمالي ومن ولائم وقتية سرعان ما تمضي..

نظرت إلى آخر النهج فرأت وجوهًا مُتعبة أثقلتها السجون السياسية تنادي إلى الخبز. لم تكن تملك بساطًا ولا ركحًا ولا تلاعبًا بالأضواء ولا سقفًا غير السَّماء. أعجبَها أن تكتفي بالبقاء على الأرض. جاءها النداء «أن ارجعي فهؤلاء يبعدونك عن ربّي».. فزعت من الأمر.. هذا يختبئ بالربّ وآخر بالسلف ونخبة بالعقل والكلّ يحيكون حول الديمقراطية خيالات من العجب.. احتارت.. لمن ستصوِّت الصدفات في الانتخابات؟ إحداهن اختارت حزب اللعب والأخرى تحبّ أهل «الشغب» والثالثة أقسمت على البقاء إلى جانب فلّاحات الحقل.. والرابعة صاحت «أن ارجعن إلى البحر.. لن أعطي صوتي لأحد». وأجابت الصدفة الحائرة «صوّتوا لمن تشاؤون.. إنهم متشابهون جدًّا.. لكن حافظوا على قدرتكم على الغضب خبّئوا سورتكم عميقًا في قلوبكم.. إنّي أرى استبدادًا آتيًا في الأفق»... ضحكت الجموع منها لأنّها تعرف جيّدًا أنَّ مَن يتقن حياة البحر لا تُخيفه ديدان الأرض.. وأنّ صوت هذه الأجسام التي بلا أعضاء لا يصل إلى الركح إلّا على سبيل الهزل.. هرولت نحو البحر وهي تعرف أنّ هذي المدينة ستنجح في العبور إلى «حُكم الشعب للشعب» لأنّها تدرّبت كفاية على فنّ الكذب.. قالت صدفة مستبشرة طيبة القلب «طوبى لهم لأنهم يتقنون فنّ التزحلق على العشب.. لا خوف على شعب له ربّ وله الجبال وله من البراغيث ما يكفي لحماية التوازن البيئي بين اليمين واليسار»، لكن كيف للديدان أن تصالح بين اليمين

واليمين وبين أهل اليسار وأهل اليسار؟ أجابت صدفة مشاغبة، ضاحكة من قدر البشر «لماذا يتكالبون على الخُطب؟ أليس تعليم الرقص للخلف أجمل من التصويت للسلف؟» صاحت بها صديقتها «اخرسي يا بنت لهب ودعي المدينة تمشي الهوينا نحو الشمس». كان عليهم إقصاؤها من البحر لأنّها لا تسعد إلّا بالشتم والهدم..

لكن المدينة دخلت رغم ذلك في الخلوة الانتخابية وقرَّرت أن تنسج قصّة أخرى. وجاء النداء أن «انتخبوا مهما كان الثمن. ملايين أم أرواحًا أو مهرجين جُدد. ربحنا كرامتنا وخسرنا معارك حقيقية أخرى، لكن لم نخسر الحلم..» وما زال في الوطن من صدّق ومن صدَقَ ومَن دفع ومن دافع. وما زال لدينا متَّسع للغضب. لا تحزنوا كثيرًا ممّا وقع وممّا يقع.. لأنّ «الديمقراطية لا تصلح إلّا لشعب من الملائكة» والحال أنّ شعبنا لا يمتلك إلّا نزرًا قليلًا منهم. كتبنا صفحة جديدة... لكنّنا لم نغيّر الحبر.. وربما علينا تغيير عنوان الكتاب.. وتعويض القلم بالقلب والدم.. أمعاء مرحة تكفي لهضم كلّ ما ابتلعناه كل هذي السنين من السمّ في الدسم.. على ألّا تعود الخنازير إلى الحكم..

سافرت بهنّ هذه المرّة إلى مكان رهيب.. مكان انتصبت فيه المشانق بكل شفافية في قلب مدينة القصرين.. انتصبت المشانق بديلًا عن انتصاب أعضاء أخرى.. واختلطت عليهنّ الصورة بالصوت بالحقيقة بالسرد بالموت.. لا أحد يدري من سيشنق ومن سيكتب ومن سيصوّر الشنق.. ومن سيموت شنقًا

في آخر المطاف.. الأعضاء اللحمية أم الحروف اللغوية.. أم الشعوب العربية.. كان الحدث عميقًا.. لذلك كانت دعوتها لسكان الأعماق دعوة شرعية جدًّا.. لا أحد من البشر الفانين بوسعه الغوص عميقًا في هذه المشانق إلّا مَن هو قادر على التخلّي عن أعضائه القديمة.. والسكن في الأعماق.

سألتها الصدفات: «لمن هذي المشانق؟».

اقتربت أقحوانة من المشهد.. وانطلقت في كتابته وهي لا تدري إن كانت تكتب عن المشانق أم هي بصدد شنق الرواية وشنق صاحبة الرواية..

واقفة، مُنتصبة القامة مفتولة العضلات.. تنتظر أهلها الذين بالكاد سكنوها للحظات. لا أحد بوسعه أن يسكنها إلّا مَن هو قادرٌ على الموت وحده. فارغة كانت.. وحيدة.. لا شيء أمامها غير بعض كاميرات التصوير.. سئمت من المُتطفّلين ومن المُحملقين فيها مبهوتين.. بعضهم يلعن وآخر يستغفر وثالث مرعوب. مشهد مريع زعزع كلّ عرائس البحر.. وتجمّدت الأمواج ولم يبْقَ غير الزّبد.. لمن هذي المشانق؟ ولماذا تُعاني من الوحدة؟ ومَن يشنق مَن؟؟ أسئلة فظيعة لا يستسيغها الانتقال الديمقراطي راودت إحدى الصدفات الفوضوية المتمردة التي أعلنت عصيانها البحري وقرَّرت أن تُسافر على عين مكان المشانق الخمسة من أجل تغطية الحدث وتأجيج الموج على الموج.. وكان عليها هذه المرّة أن تُحسِّن الزحف على أوراق الحلفاء لأنّ الشنق لا يحدث في المناطق الساحلية إنما يحدث فحسب حيث الحجر والصخر والفقر

والجوع والبطالة والمخدرات بدلًا من البحر والرمل والمُثلّجات والسائحات العاريات.. والمُترفين والمُترفات.. والرافلين في الحرير والرافلات.. لم يكن ملك البحر عادلًا في توزيع البحر بين الجهات. وحينما سمعت بنبأ المشانق استبشرت عميقًا وانطلقت تستكشف الخبر مُتوهِّمة أن العدالة الإلهية والانتقالية قد استجابت لحُلمها المتطرِّف.. وأنّ هذي المشانق قد هُيّئت لمن سرق البحر من الجياع.. لكن هيهات.. لأن ثمّة مَن يحلم نصف حلم.. وثمّة مَن لا يحلم أصلًا. وثمة مَن يبيع أحلامه مقابل الكراسي.. أدركت منذ اقترابها من ساحة المشانق الخمسة أنّ ما حصل أمر غريب تمامًا.. ليست المشانق التي حلمت بها.. أسماء أخرى تحملها.. أسماء لجياع تحمل شهادات جامعية.. جاؤوا يثأرون للثورة بموتهم.. وحين رسبوا ثانية في الخبز لم يجدوا غير أجسامهم الجائعة والمعطَّلة عن العمل ورقابهم المحالة على التقاعد الباكر للقصاص من نظام بقاياه أكثر خطرًا من رأسه وأذنابه أكثر دهاءً من وجهه. لقد أخطأوا في حقّ أنفسهم لأنهم حلموا أكثر ممّا تنصُّ عليه آداب الانتقال الديمقراطي.. طلبوا خبزًا فمنحوهم الديمقراطية.. طلبوا عملًا فوهبوهم حرية التعبير.. حوار للصمّ، أو على من «تقرأ قرآنك يا محمد؟؟» ولأنهم صاروا أحرارًا عبّروا شنقًا فشنقوا العبارة والحرية معًا. لقد أرادوا العبور.. فمنعوهم من الموت. قالت الصدفة الفوضوية، (عفوًا لا تغضبوا منها إن كنتم عقلاء وحداثويين وديمقراطيين)، «أخطأت المشانق ضحاياها مرّتين: مرّة حين تسامحت مع المجرمين وسرّاق الوطن.. ومرّة ثانية حين حاولت شنق الثوّار.. ورسبت مرّتين:

مرّة في شنق السرّاق ومرّة في شنق الثوّار الذين رسبوا هم بدورهم مرّتين: في امتحان الوظيفة وفي امتحان الشنق.. رسبوا في الحياة ورسبوا في الموت».. ركح للعبث أم للقساوة أم للضحك أم للموت قبل الموت؟. . .

لماذا يشنق الثوّار أنفسهم؟ أجابت صدفة رسمية مؤقّتة كانت بصدد وضع المساحيق على قشرتها الخارجية «هُمّج هؤلاء وغوغاء لا يعرفون المعنى المتحضِّر للثورة».. وأجابت صدفة من إدارة التعليم «أنّ امتحاناتها من أجل الوظيفة وقعت في الشفافية والمصداقية الكاملة» و«أن أبطال المشانق رسبوا في الامتحان».. لكن أيّ معنى لهذا الكلام حينما يكون المترشِّح للوظيفة قد رشّح نفسه دون استشارة الوزارة لعمل مغاير هو «الموت شنقًا».. هل أنقذت الحكومة المؤقتة المشنوقين من الموت؟ أم هم موتى قبل الشنق وبعده؟ لقد آمنوا بقوّة بأنَّ الثورة قد وقعت.. لكنهم أدركوا أنه شُبّه لهم.. لكن لماذا يشنقون أنفسهم؟ هل أعلنوها ثورة إلى حدّ الشنق؟ أمْ هم رأوا أنّ النصر غير قريب؟ وأولئك الذين استشهدوا تحت راية الثورة، هل ماتوا من أجل لا شيء؟ ولأنها ثورة متحضِّرة أكثر من اللازم ومتسامحة أكثر من اللازم ومتخلِّفة أكثر من الثورة الفرنسية نفسها، أخطأت ثورتنا في القطع مع الماضي، فصَعُب عليها العبور إلى المستقبل.. بقينا حيث مشينا.. وتثاقلت الخطوات.. وقف بنا الطريق حيث توهّمنا أنّه يحملنا ويمشي الهوينى. . . واحتدّ الخصام بين الصدفات.. وقالت أكثرهن تطرّفًا وشراسة «ربما شنقوا أنفسهم لأن مشانقنا فشلت في شنق مَن ينبغي شنقهم من سرّاق الشعب.. وربما

شنقوا الثورة في أنفسهم، نوع من سياسة «الثورة المحروقة» وربما لأنّ الثورة تطلب مزيدًا من الشهداء..» وفي كل الحالات لم يموتوا بما يكفي... ولم يتقنوا فنّ الموت.. ركح شيطاني حتى الآلهة هجرته.. «طوبى لشيء لم يصل» هل أرجَأوا الأعراس مرّة أخرى؟.. قرابين جدد لثورة لم تصل بعدُ.. وأضافت صدفات من حزب ممنوع «انتظرنا المشانق حيث لم تأتِ فأتت حيث لم ننتظرها.. حذار من غضب الجياع.. لا أحد يعلم ما يخبّئه المستقبل حتى.. لا أحد يعلم ما يستطيعه شعب اغتُصِب حُلمه». وضحكت الصدفة العابثة من الجميع قائلة «دعونا نتزحلق ونرقص بين الأعشاب ما شأن البحر بكل ذلك؟ ما همّنا والبشر؟ وما شأن الحيتان بالمشانق؟ ارجعي أيتها الصدفات الفوضوية إلى الأمواج العاتية.. لا شيء تبقّى غير لُعاب الحلزون وبعض الكلاب الصغيرة.. أمّا الأخطبوط فلا يحتمل الشنق لأنه بلا رقبة وبلا رأس.. كُلوا هنيئًا فهو يصلح للطبخ أيضًا».

صمتت عن الكلام.. يومها بكت كلّ الصدفات الصغيرة.. وأوشَك البحر على الغرق مرّة أخرى.. لولا حضور الخنساء التي أنشدت ما يلي:

كان يومًا طويلًا.. واشتدّ غضب الأمواج.. واحتدّ الغموض بالأعماق.. كلّ الحيتان فوجئت بالخبر المفزِع.. نادى المنادى: «أن أحضروا الجميع.. اليوم سوق بالمزاد العلني.. ثورة للبيع..».. لكنّ أقحوانة فحسب هي مَن كانت تعلم تفاصيل هذا اليوم.. فرحت بالخبر لأنّها أدركت أنّها نجحت في إغراء البحر وجرّ أمواجه وسكّانه إلى قصّتها....

ازدحم التجّار على الغنيمة.. طوابير طويلة والعُمُر قصير وساعات السياسة بحُسبان.. مَن يشتري هذه الثورة؟ عشّاقها جنّوا وتاهوا عنها إلى ثورة ثانية، لكن تجّار المدينة كانوا بالمرصاد.. منهم مَن ينوي الملكية العقارية ومنهم من اكتفى بالكراء وثالث يقنع برتبة «تيّاس» ورابعهم فرح بمجرّد الفرجة.. وخامس اكتفى بلغة الإشارات.. فالمشهد شديد الإغراء.. وأيّ إغراء أشدّ من ثورة قبضوا عليها في حالة من العراء التشكيلي الفاحش.. ومَن يستطيع إليها سبيلًا؟ صاحب آداب النقاش أم صاحب آداب النكاح؟.

وتدحرجت الصدفات إلى موقع الجريمة.. كان النهار ساخنًا وسُحبٌ تهدِّد بمطر غزير. أطياف متنوعة من البشر على قياس «حق الاختلاف»، وآخرون شبيهون «بحق الخلافة»، وشقّ رابع مُنع من الصعود على الركح فوعد بمواصلة الشغب وبثّ الخلاف. وآخر قرَّر المكوث في الخلف كي لا يحرق وجوهه الأمامية التي قرَّر إخفاءها إلى حين الانتخابات الرئاسية.. وكلهم انحدروا في منطق الخُلف..

لِكُلِّ ثورة ثمنها، لكن ثورتنا، التي لم يقرِّر متحذلقونا بعدُ تسميتها باسمها الحقيقي، خوفًا من أن يسجلها التاريخ في كراريس الحكومة، لها أثمان متعددة. بعضها يُضحك وآخر يُغري وثالث يُبكي.. ورابع مُقرف إلى حدّ الندم.. لكن ما همّنا وعواطف البشر؟ لا مجال للعواطف في السياسات الحكيمة.. من يشتري هذه الثورة؟ ومن يملكها ومَن صاحب الحق الشرعي فيها؟ احتدّ الخصام.. قالت الصدفة الفوضوية «الثورة ملك

للثوّار وللشهداء» أجابتها صدفة رسمية «لكن الشهداء ماتوا.. وليس للموتى الحق في الإرث. أمّا الثوّار فصاروا أحزابًا ولم يعد لهم الحق في الثورة إلّا في معنى إرساء الانتقال الديمقراطي» عمليات تدجين طويلة النفس وعمليات تجميل مؤبّدة.. والثوار صاروا إلى تصاوير عُلّقت بعناية على جدران المدن.. وتمّ حفظ تصاوير الشهداء لعدم سماع الدعوى.

وتجمّلت ثورتنا بأبهى الحُلل.. ووقفت على رصيف المدينة تسهر على راحة الانتقال الديمقراطي.. مَن يقدر على تأمين العبور؟ من يقدر على الدفع أكثر؟ كلٌّ وضع الثمن على الطاولة.. هذا بعلبة سجائر وخمسة دنانير لشباب الثورة.. وآخر بصكوك للبنزين.. وثالث بمائتي دينار لكل من التحى خصّيصًا من أجل استقبال الثورة واستدبارها.. وفصيلة مُشابهة قرّرت تزويج كل العوانس لرجالات الثورة بكل أجناسها.. وكلٌّ على قدر المستطاع.. وكتيبة مُجاورة تُساوم بالختان مُكافأة لأطفال الثورة.. كل الختانات كانت بلا مُقابل مالي، هدية لكلٍّ أعضاء العائلات وبقدر ما تتوفّر كل منها على الأعضاء المناسبة.. وإلّا فختان الكبار مُباح ومُستحبّ، بل ومندوب إليه..

وهذي التصاوير المعلَّقة على الجدران عبئًا ثقيلًا على الأقدار هي أيضًا ثمن من أثمان الثورة.. فنّ جمالي لطيف ورعاية فائقة وتدريب عالي الذكاء على النسيان ونبذ الإقصاء والتهميش والمصاحة والمسامحة والاعتذار.. تصاويرنا تملأ الجدران فأين ذهبت تصاوير من ماتوا؟ تصاوير جميلة ومزوَّقة لرجالٍ بعضهم يلبس البدلة السوداء للمرة الأولى بعد ليلة

عُرسه.. وآخر شيخ يَعِدُ بمستقبل للشباب.. ونساء جيئ بهنّ خصّيصًا على الجدران من أجل المُناصفة.. وانقسمت الحيطان نصفين.. نصف للذكور ونصف للإناث.. لكن أجناس أخرى بقيت مهضومة الحقوق..

وتحوَّلت الثورة إلى رسّام ماهر للوجوه الجديدة.. والشرط الوحيد لجمالية اللوحة هو نظافة كل وجه منها.. بالرغم من المساحيق كلما كان ينبغي على هذي الوجوه تقديم برامجها على الشاشة.. لكن صورهم على الجدران لا تُظهر منهم غير وجوههم «النظيفة» أمّا أياديهم فلا أحد يراها على الجدار ولا أحد يعلم ماذا تُخفي؟ استشهاديون جُدُد يتزاحمون على المجلس التأسيسي بعضهم حطب وآخر ولّاعات.. بعضهم قرابين وآخرون سكاكين.. والكذبة أكبر من الجميع.. بعضهم يقولها بصوت عالٍ «إن الثورة يقوم بها الشرفاء وينهب ثمارها الانتهازيون».. وبعضهم حَلُم حُلمًا وصدّقه.. واحتدّ النقاش في شأن مآل الثورة.. هل وقعت؟ أم لم تقع؟ هل نستكملها أم نبكي على سقوطها؟ هل نستأنفها أم نصنع لأنفسنا ثورة جديدة حقيقية هذه المرّة؟ لا أحد بوسعه أن يجيب بشكل حاسم، لكن الذين مُنعوا من المشاركة في هذه الوليمة يَعِدُون بمستقبل آخر.. ويضحك أثرياء الثورة ملء أفواههم المُتخمة لأنهم أدركوا جيدًا نجاح المهزلة.. أمّا مَن رصيدهم عدد الجياع فيبتسمون ابتسامة الجوكندا لأنهم يملكون الشوارع بدلًا من الفنادق.. ضحكت الصدفات من هذا المشهد الكوميدي وقالت في نفسها: «علامَ يتخاصمون؟ إنهم مثيرون للشفقة ألَم يروا كيف سُرقت الثورة بأيادي العهد القديم لحذقها ومهارتها في

ممارسة السياسة؟».. وقالت إحداهنّ: «من الأفضل ألّا يعرفوا بهذا النبأ، ومن الصحّي لأمعائهم ألّا يأكلوا هذه الصدفة، فهي غير مناسبة للديمقراطيين» ألم يكن حزبُنا الواحد والأوحد سابقًا حزبًا ديمقراطيًّا باسمه ولقبه؟ وقالت الصدفات «ما همّنا والسياسة فالبحر أرحم؟» لا تخافوا فإن الصدفة من القشريات الجارحة، لكنها غير قاتلة لأنّها لا تملك أيّ عضو كي تُميت أو كي تموت، وليس لها أي أعضاء مترشِّحة لانتخابات المجلس التأسيسي. إنّها تُتقن فحسب الرجوع إلى الشاطئ.

لكن من أجل أن تُبارك بيعة الثورة وأن تتمّ في كنف الشرعية جيء بعدل أشهاد. فالشاهد لا غنى عنه في الصفقات وخاصة حينما نبيع إحدى الثورات العربية وهي كثيرة هذه الأيام.. طوبى لمن باع وطوبى لمن اشترى وخاصة طوبى لمن هرب من السوق...



منعوها من الخيال..

سئمت الصدفة الصغيرة من حياة البحار.. عُشب كئيب ورمل أخرس وصِدام دموي بين القروش.. والسلاحف لا تملّ من الزحف وخنازير لا تستحي من نتونة أفواهها.. وكثرت الجلجلة والبلبلة والوكوكة.. ولا أحد أدرك معنى الفرح.. ومضخّات صوت تنادي «أن اسجدوا لله الواحد ولا تسألوا لماذا وزّع البحر بشكل غير عادل. ولا تسألوا لماذا يجوع الأحرار ولا يأكلون من الثدي..» وانقسمت الأسماك الكبيرة إلى أحزاب.. هذا تراه يمسك بزعانفه يجرّها إلى القبر، وآخر يبيع جلده في اليوم مرّتين.. وثالث يَعِدُ بالزيادة في النسل.. ورابع هرب بالفأس.. وخامس يخبّئ طواحينه في فمه بكل مهارة كي يطحن أحلام الحيتان ويُحوّلها إلى رمل.. قرّرت السفر إلى بلاد الخيال بحثًا عن الحلم.. واندفعت بكلّ لحمها تزحف جاهدة نحو حلمها.. لا شيء بوسعه أن يوقفها.. قاتم هو الليل في الأعماق.. ومُعتّمة هي الطريق إلى إله البحر.. كانت منشغلة بأمر واحد: كيف تصل إلى ملك هذا البحر الذي زرع فيه شعبًا من الأسماك المتناحرة حول العشب والربّ والكراسي والرقص على ركح القيامة. كانت ترغب في أن تُحدِّثه عمّا تفعل القروش بالحيتان الصغيرة وما تصنعه الضباع

بالجُثث.. وصلت باكرًا إلى حديقة واسعة تتلألأ أنوارها بكل أطياف اللون.. وموسيقى تُدغدغ الأمواج من كل صوب.. هوذا إله البحر وتحيط به كل الأسماك المظلومة والجائعة والمتألمة من قهر الأخطبوط.. وجه لطيف جميل يشعّ المرح من مُحيّاه طفق يعيد توزيع البحر على السمك ويُهديها باقات من الفرح. وجاء موعد الحفل فنزل الجميع إلى الرقص.. واقتربت الصدفة الصغيرة في وجل تقبّل تلك اليد قائلة «لماذا يحجبونك عن السمك لماذا رسموك بالدم ووسموك بالجبروت والقهر..؟ لماذا رسموك كئيبًا لا تُحبُّ أن نرقص وأن نحلم وأن نرسم؟ ألا تحبّ الحياة والضحك؟ لماذا يمنعوك من الفنّ وأنت أجمل فكرة للحلم؟»

سكتت فجأة عن القول لأنّ يدًا متعجرفة اقتلعتها بكلِّ عنف من هذا الحلم.. صاحت بها إحدى ضباع البحر: «مَن سمح لك بأن تتخيَلي في المعبد؟ أنت ممنوعة من الحلم ومن الرقص؟ ألم تسمعي بأنّ دستورنا الجديد قد حَجَرَ على سكان البحر امتهان الفنّ؟».

ومن بعيد تعالت أصوات خنازير البحر أن امنعوها من السفر.. وبعد لحظات وصلت سيارة البوليس. وفي المحكمة حوكمت بتُهمة خطيرة هي الخيال المضرّ بالمخيال. ولأنها صغيرة البدن لم تفهم هذا اللعب اللغوي. منعوها من الخيال وحبسوها في قشرتها إلى الأبد.. وفي السجن تعلّمت الصدفة الصغيرة أنّ خيالها أكبر من براءتها وأنّها أخطأت وقت الحلم، ففي البحر سرطانات أخطر على الله وعلى البشر من خيال الأصداف ومن رقصات الأعشاب..

سوق كبيرة انتصبت في قلب الحكاية.. إنّها سوق الديمقراطية.. لمن ستصوِّت الصدفات؟ وهل تحتاج البحار إلى الأحزاب؟ هل الصدفات سلفية أم علمانية؟ ضحك سكّان الأعماق من أسئلة أقحوانة.. لأنّها بدت لهم أسئلة سخيفة وحمقاء.. لكنّها مصرّة على مراودة الأمواج وتضليلها وتغيير وجهتها.. كانت صيّادة ماهرة.. فلم تكتَفِ ببعض الصدفات، بل اقتنصت البحر برمّته.. هو أغرق جزيرتها وهي تغرقه بالحكايات.. هو ابتلع أهلها.. وهي ستجمّد كل ملوحته وتحوِّله إلى سطح أبيض للكتابة.. ستغمره بالحروف مثلما غمر جزيرتها بالأمواج...

خرجت الصدفات الحائرة صباحًا باكرًا إلى سوق الانتخابات تتجوّل زاحفة بقشرتها الجارحة على بساط الديمقراطية.. كان السوق يُهيّء ليوم ساخن.. وبدأت الحركة تدبّ حثيثًا.. هناك من يهرول مسعورًا نحو الركح وهناك مَن لا يقدر على الوصول وهناك من لا يريد الوصول أصلًا.. ومن بعيد تعالى صوت المؤذّن «أن اقتربت ساعة الديمقراطية فليتوضّأ الجميع استعدادًا لها» تذكّرت أنّها غير معنية لأنّها خرجت للتوّ من مياه البحر. توجّه جمع غفير من ذوي القائمتين مهرولين نحو الشاطئ. كل يتوضّأ بحسب طقوس حزبه. وكَثُر اللغط حول الأعضاء المعنية بالتطهير والمكلّفة بالسير على درب الانتقال الديمقراطي. هذا وجب عليه أن يغتسل برُمّته لأن أعضاءه تورّطت بالكامل في صناديق القُمامة وآخر مُطالَبٌ بغسل أطرافه السفلية فحسب لأنّه بالكاد تدنّست أقدامه وثالث بوسعه الاكتفاء بالتيمم لأن الديمقراطية بالنيات. ورابع عليه

فقط أن يغسل وجهه إذا ما توفّر له ذاك الوجه. وخامسهم حُكم عليه بإزالة جسمه بالكامل حيث لا ينفع البحر في ما أفسده الدهر. ورغم ذلك لا أحد وقع إقصاؤه من سكّان القُمامة لبراعتهم في التأقلم مع الزبالة. أمّا أصحاب النوايا الحسنة فوقع إخراجهم من بساط الديمقراطية بتُهمة تعاطيهم لغريزة الشمّ يوم فاحت رائحة الخنازير في المدينة. فرائحة الخنازير أخطر على مصير الديمقراطية من الخنازير أنفسهم. والحسّ الديمقراطي أندر وجودًا من التنظير لها..

وسريعًا ما رسموا ثنايا مختلفة. ونصبوا قوائمهم التي زيّنوها بسبعة أسماء تخليدًا لذكرى السابع الذي لا أحد شُفيَ منه بما يكفي ونوّعوا الوجوه واختلطت الإناث بالذكور في مشهد إيروسي عجيب.. لا أحد منهم على ثوريتهم وصدقهم اعترض على انتمائه إلى الرقم سبعة.. وكلهم إخلاص للوطن ولا حرج على الأرقام لو توضّأت وتيممت بالبحر والحجر.. واندفعوا يتسابقون نحو المدينة الفاضلة. هذا يَعِدُ بتقريب البحر إلى الجهات المحرومة منه. وآخر يطالب بمحاسبة الشهداء. وآخر يدافع على الجرحى بعد الإعاقة وقبل الموت. وحزب مبدع يستنكر قلّة عدد شهدائنا بالنسبة إلى الثورات الأخرى. ويحثّ على المزيد من سقوط الأرواح.. حتّى يعلو شأننا بين الأمم. ويطالب ببناء مستشفيات لضحايا الثورة القادمة في نظرة استكشافية طريفة للمستقبل. وآخر يَعِدُ الفقراء باكتشاف مناجم ومعادن جديدة في بطن الأرض بعد أن شبعت البطون فوق الأرض جوعًا وقرمًا. ورهط حريص على مستقبل النوع البشري يعدنا بإكثار النسل وتخصيب كل النساء وكل الرجال وباقي

ديدان الأرض على قدم المساواة.. ولا فرق بين الحيوانات إلّا بقدرتها على إعمار الأرض من أجل الديمقراطية التي تقوم على العدد. ومَن لا يحذق الحساب عليه الاكتفاء بالأدب.

ومن بعيد تلألأت الأنوار وتلاعبت بالأنظار واندفعت الصدفات مع الحشود نحو الوليمة. مأدبة فاخرة شهية لإشباع البطون وتبكيت الظنون. أكلوا إلى حدّ التُخمة وقام الخطيب يصول ويجول انبهر الجميع.. مليارات من حساب الدينارات وسينعم الجميع بالعمل والأمل والزواج السعيد. وفجأة انطفأت كل الأنوار لأنّ أحدهم نطق عن لاوعي أحمق باسم الثورة.. وسقط السقف على البطون المُتخمة واختلطت الأعضاء بالهراوات السوداء. وضحكات تتعالى من شيطان مليونير «أن أفيقوا كانت مجرّد خدعة بصرية. وأن الثورة اسم لمرض مُعدٍ.. وعلى الجميع إذًا أن يدفعوا ثمن العشاء» بعضهم دفع وبعضهم تخلّى عن جزء كبير من أعضائه. أمّا البقية فقد عادوا إلى عادة الزحف، لكنّ الطرق كثيرة. وبوسع الصدفات أن تُغيّر وجهتها نحو جهة لا يسقط فيها السقف على الرأس.





ثورة شهرزاد

جلست على حافة الحلم تنثر عبثًا لغويًا في انتظار أن يلتحق بها زعفران.. قالت: وقف الزمان على ضفّتي يسألني:

«ماذا فعلت بالوقت المؤقت
تبذّرينه في الضجيج والنزق..
لما تعبثين بذاكرتي؟»
قال المكان: «ألم ترَ كيف صار جرحي
ركحًا للركوب على فرحتي
وكيف صارت سمائي مسرحًا
لصناعة الكذب..؟»
أجاب الزمان: «عندي مكان لمذبحتي
أبعدوا عنّي جثّتي
أسقطوا عنّي أصنامي
فقد أتعبتني..»
ضحك المكان وردّ في كبرياء:
«غلّقوا أبواب هذا الزمان..
عندي سماء أخرى لولادة نجمتي..».

«أين أنت يا ياسمين؟ مرّ زمان طويل وأنا أتيه في أركان المدينة بحثًا عنك.. لا أحد أخبرني بأنّك تقبعين هنا في هذا الكوخ القديم.. هل اعتزلت الدنيا؟ هل سئمت حياة الأطفال الذين لا همّ لهم غير استرجاع نبتة الحلوى والتهام السكّريات؟ معك حقّ يا حبيبتي.. إنّ حياة تلك المدينة فارغة يؤثثها اللهو العبثي وبكاء الرضّع وقصورهم عن مواجهة حكّام المدينة بمفردهم..».

إنّه صوت زعفران. ابتهجت أيّما بهجة وارتمت في أحضانه.. لم تصدّق أنّه سيعود إليها بعد أن فقدته منذ زمان.. خالت أنّه غرق في أعماق الجزيرة مع الغارقين.. كان عليه أن يعود ليستكمل قدرًا رسمته أقحوانة بيديها مستعينة على حكمة الآلهة بمجون الحروف..

أمسكت بيده اليمنى.. وسارا نحو وجهة غامضة في صمت عميق.. لا أحد منهما تجرّأ على قطع ذاك الصمت لأنّه لا أحد منهما يملك ناصية الأقدار التي ستجمع بينهما في هذه الحكاية.. لكنّ ياسمين كانت تعلم جيّدًا أنّ زعفران ليس بأخيها، بل هو زوجها الذي ستتزوّجه غصبًا عن إرادتها وبقدرٍ من الرواية الحقيقية أكثر من الواقع نفسه.. وذلك إثر استشهاد زوجها الأول حلمي.. لكنّها لن تبكيه الآن لأنّها كانت قد تزوّجته في رواية أخرى وفي خلسة من الأدب..

تَعِبا من السير.. وجنّ عليهما الليل فجأة ودون احترام لتوقيت غرينتش.. في هذه المدينة وحده سلّم رشتر لتوقيت الزلازل قادر على قياس الزمن الكارثي الذي سقطوا فيه.. ناما

ليلتها معًا.. في أحد الحدائق العمومية.. تغطّيهما السَّماء وتحضنهما الأعشاب اليتيمة الظمآنة إلى أجساد العشّاق الذين قلّت زياراتهم مع تصاعد موجة الشذوذ الجنسي في هذه الربوع الغامضة الهوية..

حَلما معًا الحلم نفسه من فرط ما التحما معًا للاحتماء من صقيع الشتاء.. حلما معًا حُلمًا واحدًا.. وهو أمر لم يحدث قطّ لبشر.. حلما أنّهما سقطا بين دفّتي ألف ليلة وليلة.. لكن مَن يستطيع احتمال هذه الخطّة؟ وهل بوسعهما أن يسكنا طويلًا هذا الحلم؟ معلّقان بين النوم واليقظة وبين الحلم والكابوس.. ضمّها إليه بحرارة وهمس في أذنيها في غفلة من حارس الأحلام.. «هيّا لنذهب عميقًا في دهاليزنا القديمة. إنّي أحنّ إلى تلك الحكايا التي قرأت منها الكثير حينما كنت صغيرًا.. وكنت أسترِقُ السمع إلى شهرزاد وهي تغري شهريار إلى ليلة أخرى.. هيّا علّنا نوجّه الذاكرة وجهة أخرى..».

ابتسمت في مكر وقالت: «كم تمنيت أن أسكن ذاك الجسم المعطّر بهزائم الرجل الشرقي وشهواته المؤجلة بالقصص.. هيّا أيها الشيطان احملنا معًا إلى فساتين شهرزاد..».

ردّ عابثًا: «أعدك بأن أعيد الكفن إلى أصحابه.. لن تُوْأَدي مرّة ثانية»..

وافقا معًا على هذا الحلم.. كلٌّ وأسبابه العميقة.. لكن حارس الأحلام كان أمكر من حراس الحقيقة.. فقد اكتفى بتعيينهما في رتبتَيْ الجارية دعوب والمارد الأسود. وهي مرتبة

أقل بكثير من طموحهما... أوشك الحلم على التبخّر.. غضبا وتمرّدا على هذا الحظّ من شأنهما.. وهدّدا بانقلاب خيالي.. خافَتْ أضغاث الأحلام لعدم تعوُّدها على الثائرين.. وأمرت لهما بتعيين جديد أغراهما جدًّا.. فقرّرا أن المكوث في الحلم أرحم من مدينة لا تؤمن بغير الحمقى والجبناء..

شهرزاد وشهريار هي الوظيفة الأدبية الجديدة لياسمين وزعفران..

طوبى لهما.. على ألّا يبوحا بسرّ عدم موتهما.. مثلما مات أبطال الحكاية.. لكن ما الذي يميّز بطلًا قصصيًّا عن بطل آخر؟ ما الذي يجعل أحدهم يستعمل استعمالًا مؤقتًا والآخر ينعم بالخلود؟ وما شروط حياة بعضهم وموت الآخرين؟ ومَن بوسعه أن يتنبّأ بمصير كلّ واحد من أبطال الرواية؟ وكيف يقع التنكيل ببعضهم قتلًا أو قهرًا أو فقرًا أو بؤسًا وحزنًا في حين ينعم آخرون بكل هدايا الحياة.. فيسعدون ويعشقون ويرقصون..؟.

نام شهريار قبل موعد النوم.. تسلّلت خلسة إلى خارج القصر.. وتوجّهت إلى السوق لاقتناء بعض الغلال... وفي الطريق توقّفت أمام بائع الجرائد.. لفَت انتباهها عنوان غريب «هنا تُباعُ الشعوب خِلسةً...» وهرعت تلتهم النصّ في نهم شديد.. خلسة جاءت إلى هنا.. وخلسة تسلّل شبحها إلى هذه المدينة.. لكن كيف تُباع الشعوب خلسة؟ مَن شَهِدَ تلك البيعة.. ومن قبض على الشاري.. كم ثمن شعب من الشعوب؟.. أسئلة لا تهمّ أحد غيرها.. وداهمها المقال في غير موضعه.. كان بلا

توقيع.. خوفًا أم حذرًا أم امّحى الاسم من طول الزمن؟ قالوا أنّهم شطبوا اسمها من الجريدة لأنّها لم تكن ليبيرالية بما يكفي... وكان اليوم موافقًا لما سمّوه بالانتقال الديمقراطي.. لذلك قرأت ما كتبت:

«اصطفّوا صفوفًا صفوفًا في ساحات المدارس. أرهاط من الأجسام والأرواح والهندسات والعطور. التقت جميعًا من أجل الانتقال الديمقراطي.. إلى أين؟ لا أحد يهمّه هذا السؤال وربّما لا أحد يدري وفي كل الحالات نحن بخير، لنا ربّنا ومدننا ولنا الليل واللحوم البيضاء وزينة الحياة الدنيا.. ولنا الجوع والجهل والفقر والبؤس ولنا الحانات والمواخير ولنا الحمق فماذا نصنع بالذكاء وحتى الحرية لا نحتاجها كثيرًا، بل هي من الكماليات..

إنّه الانتقال الديمقراطي.. حذارِ قد يُداهمك شيطانه في أيّ ركن من أركان نفسك بشرط أنّ لديك نفسًا.. وإنْ اشتروها مع صوتك كمكمِّل انتخابي فبوسعك الاقتراع بجسمك فحسب.. لا حَرَجَ على الإبهام الأيمن وحذار من السبّابة اليسرى. وحتّى «صوابع فاطمة» الرمضانية تكفي لإشباع حاجة الصناديق. اصطفّ جيّدًا والتحم بالجسم الذي يسبقك في الصفّ وحاسب جيدًا على حركاتك وحروزك الملصقة بين يديك لأنّ سعر اللحوم الحمراء قد فاقت كل التوقعات والبطون الخاوية.. حذار من الالتحام الديمقراطي هنا قد يشتدّ القرم بأحدهم فيصير لاحمًا جدًّا وقد يصير جرذًا أو قردًا أو حتّى خنزيرًا.. كل أنواع الحيوانات مرخّص بها من أجل الانتقال

السلمي والتأسيس العُضوي والجلوس على الكرسي.. كراسي متحرِّكة صُمِّمت خصّيصًا ووفق مواصفات تونسية..

وجاء الانتقال الديمقراطي. داهم المدن والأرياف رأسًا بعد صلاة الفجر وعلى حين غرّة. وقبضت الديمقراطية على المدينة متلبّسة بخروقات مدنية هي من شِيَمِ الكرامة والعدالة والعريضة الشعبية والنكبة الإنسانية.. هذه مدننا زيّناها بالحنّاء وبخّرناها بالعنبر الأسود وكلتوسة جدّتي.. فخرجت ترفل في الحرير تراود الجياع على أصواتهم وبعض من أعضائهم الأخرى دعمًا لأعضاء المجلس التأسيسي. وفي غفلة من المعلّم الذي تحوَّل إلى عون صفٍّ سكر الجميع بزواج المتعة الديمقراطي التعددي.. كان عُرسًا.. وكان يومًا طويلًا.. وكان زواجًا نهاريًّا.. فمن يشتري.. هنا تُباع الشعوب خلسة.. ولأول مرّة يتقنون فنّ الاصطفاف ولأول مرّة تُباع الشعوب بهذا القدر من الكميات التي فاقت كل التوقعات الحكومية ولأول مرّة لا تشارك الحكومة إدارة الديمقراطية.. ولأول مرّة يَنتخب الشعب وينتحب معًا.. ولأول مرّة ينتصر وينهزم ويفرح ويحزن.. رائعة أنتِ يا بلادي.. أحبّك حين انتخبتِ وحين سُرقتِ وحين حلمتِ وحين أخطأتِ وحين رسبتِ وحين قُتلت يوم قُتل «الثور الأصفر».. فمن أين آتيك بدمنة كي يُحرّرك من حماقة كليلة؟ ومن أين آتيك بحشّاد ثانية حتّى يُغتال بدلًا عنك؟.

هنا تُباع الشعوب خلسة. خمرًا أسكر الجميع فتوجّهوا رأسًا نحو مكاتب الاقتراع ولا أحد يدري ما الذي أسكره؟ جوعه أم يُتمه السياسي أم حماقته أم حبّه للوطن؟ كثرة تائهة

خائفة مُتعبة بالفواتير والقروض البنكية ومنهوكة بكبش العيد.. فضّل بعضهم أن يصير هو الكبش وفضّل آخرون أكل اللحوم البيضاء ورهط ثالث تحوّل إلى مجرّد كائن عاشب.. كان تمرين أول في الصفّ وفي الانضباط.. ملّوا من شمس الخريف الحارقة.. لا أحد كان يهتم كثيرًا بصوته الذي سبقه إلى الصندوق.. فكم ذهبت أصواتهم هدرًا.. وكم بقيت هذه الأصوات معطّلة عن التصويت إلى حدّ صارت فيه لا تعني شيئًا كبيرًا إن منحها إلى أيِّ جهة.. فالجميع متشابهون.. وفي كل الحالات لقد تعوّدوا على الحزب الواحد.. تخيفنا الكثرة والتعدُّد والاختلاف.. لا ذنب عليهم.. فقد اصطفّوا جيدًا هذه المرة.. وفي المرة القادمة سوف يتدرّبون على الصفّ أكثر.. فهل كانوا يرغبون فعلًا في الديمقراطية؟ ليس بدهيًّا.. ويبدو أنّ لهم حاجات أخرى أكثر أهمية.. وثمّة في هذه الحكاية أكثر من شعب.. ولأول مرّة نكتشف أن لدينا شعوبًا.. هناك الشُعب والعشب والنّخب.. الجميع انتصر والجميع انهزم معًا.. مبروك لشعب تونس ولعشبه ولشُعبه.. مبارك على من انتصر انتخابيًّا وعلى من انهزم ثقافيًّا وعلى من انسحب سياسيًّا وعلى من صمت إراديًّا واعتباطيًّا.. من انتخب ليس الشعب كاملًا.. نصف الشعب لم ينتخب.. ألا تهمّه الديمقراطية؟.

انفردت بنفسها ليلًا.. وشهريار متعبٌ من مَكْرِها ومن ألاعيبها الساحرة.. كل وعودها كانت كاذبة وكل سكان الحلم يَغطُّون في نوم عميق.. خدّرتهم بعطرها.. إنّها ترياق وسمّ وسحر.. وكلُّ من يدمن عليها لا ملاذ له غير النوم بقية العُمر..

وتزاحمت على خيالها الراقص كل أشكال الحكايا.. كل واحدة منها تريد أن تكتب الأولى قبل أن تستيقظ الدول من جديد.. شعرت بالدوار.. واستسلمت لسيل الكلمات.. دون أن تفرِّق بين ما لها وما عليها.. لا أخلاق للحكايات.. أرادت لنفسها أن تغفل عن كل المرجعيّات.. تاهت بعيدًا.. وانطلقت بحركة كوميدية تعلَّمتها من شهرزاد:

«مشيت وفي منتصف طريق الحياة وجدت نفسي في غابة مظلمة حينها أدركت أنّه قد ضاعت منّي معالم الطريق». هكذا يتيه خالق الكوميديا الإلهية،.. فهل يحقّ لنا أن نتيه مثله.. أو هل أنّ مثل هذا التيه مقصور فحسب على الإلهيين؟.. أمّا الطينة البشرية فقدَرُها أن تمكث في الوحل؟ لكنّ الظلام لا يفرّق بين تيه العظيم وتيه التافهين. فجأة اكتشفت إذًا أنّي في هذه الغابة المظلمة لم أكن وحدي تمامًا.. كلّ أشباحي كانت معي. ومن بعيد ومن مكان أشبه بحفريّات إله قديم بلغت إلى آذاني قهقهات ضحكة الحكيم اليوناني ديمقريطس جاءت تهزّ هذا العالم من حولي. ما أتفه هذا المشهد يا معشر العرب.. اختلطت دماء القاتل بالمقتول. وهرب الجلّاد ولا شيء غير الجثث. وجاء أبو جهل وأبو لهب وزوجته تبشّر بكثرة الحطب. وجاءت الخنساء تبكي وأقسمت بآلهة قريش أن تحجّ ثانية بجلبابها الوثني إلى ربّ البيت.. لا أحد لامها على السواد بعد قتل جميع أبنائها في عرس الإله الأخير. وأرهاط أخرى من البشر قدمت إلى غابتي تؤجّج الظلام على ظلمتي.. لا أحد كان يحتاج إلى النور.. فلا شيء يستحقّ أن نحدّق فيه ومن الأرحم أن يبقى الجميع أشباحًا ونسخًا بلا لون. رأيت أوديب

بعينين لا ترى غير الهاويات والحُفر.. كم كانت عميقة هذه الهاوية التي سقطنا فيها معًا وانحدرنا وتدحرجنا منذ صلاة الفجر.. وضيّعنا الشمس والصحراء. كلّ النجوم أفلت عنّا فمن ربُّنا يا تُرى في عتمة هذا الليل؟ وفجأة طلع علينا أبو العلاء بلزومياته التي لم تَعُدْ تلزم أحدًا غير الذين يحذقون الإقامة في الظلام والأبصار حيث ينحسر البصر وتضيق ذات اليد عن اليد.. ما حال اللاذقية بعدك يا ابن القارح وأين جنان الخلود في هذا المسرح العبثي من الدماء المهدورة ظلمًا وقهرًا.. ادفعوا بهذا الركح إلى العدم.. ومُباح لكم نزع وجوهكم.. لا شيء يدعوكم إلى حملها معكم.. ففي الغابة المظلمة لن تبصروا إلّا بأشباحكم وأحلامكم وكوابيسكم.. وذاك يكفي كي تسكنوا ملء العبث هذه المرحلة من تاريخهم.. أمّا ما سوف يأتي فلا أحد بوسعه أن يتنبّأ به ولا بما سيكون.. فالمستقبل قد يكون مرَّ من هنا وأفل عنّا.. أمّا عن الماضي فلا أحد يعرف إلى أيّ جهة هو يمضي.. اضحكوا بقدر المستطاع.. أمّا البكاء فغير مباح إلّا بتشييع التوابيت كلّما توفرت بالعدد المطلوب وعلى قدر المساواة.. من هنا فهابطًا تدرّبوا على دسّ البصل في البصل فهو كفيل بحمايتكم من الأمراض الخبيثة ومن خبث الأحزاب وتآمرهم على الشعب وعلى العقل..

وأغلقت الكتاب.. كانت تتأرجح بين شهريار وزعفران. أيّهما تعانق هذه الليلة.. الكائن الورقي أم الزوج الحقيقي.. الأخ حسب الرواية أم الأب حسب القدر.. ثمة درجات في الوجود.. وثمّة نسخ ونسخ للنسخ.. وأطياف وأشباح وضلال.. وثمة الوجود الكاذب والوجود الوهمي والوجود الزائف.. وثمّة

الأصل والوجود الحقيقي والقدر المقضي.. وثمّة الكارثة والعبث وثمة الموت والعدم والفراغ والهاوية.. من أيّ المغاور تعودين يا ياسمين؟ قبل سنين كنت طفلة ذات جمال خرافي تولدين في رمشة عين من بين أيادي أقحوانة.. كنت بريئة كالطيف.. كلون البحر.. كالعصافير الجميلة.. وها أنت الآن تُصابين بعدوى الأدب.. كم كنت مذنبة يا أقحوانة.. ماذا فعلت ببراءة الأطفال؟ وماذا تريدين من هذه الزهور البريّة؟.

وفي خضمّ هذا الدوار سمعت صوتًا غريبًا يسألها في نوع من الغباء المفضوح:

«هل أنّ أكل لحم الجنّ حلال أم حرام أم مندوب عليه؟»... لم تصدق أذنيها.. هل تكون جنّت فعلًا كما شاعَ عنها بين الناس حتى تخلط بين لحم الجنّ ولحم الجنون ولحم الكلمات؟ وليكن.. يبدو أنّ جنونها ليس كافيًا لحمايتها من حماقة أسئلة العامة في هذا الزمن.. قلّبت السؤال مرّات عديدة على حدّ القلم إلى حدّ اشمئزّت فيه الأوراق من نتونة هذا النوع من اللحم الذي ارتمى عليه من دون استئذان أحزاب اليسار والقطب الحداثي في البلد.. لا أحد استشار المجلس التأسيسي في هذا الأمر ولا أحد طالب بإدراج هذه القضية بالدستور الجديد.. وفجأة أحسَّت الديمقراطية بالخطر على الشعب.. كلّ هذه الكوارث الخرافية وأقاصيص الغول ورجم الزاني والزانية وعذابات القبور ونكتة بيع القصور.. هي من إفرازات حرية التعبير والاعتقاد والاحتجاب والانتقاب.. فهلّا حميتم العقل من هذا المرض؟.

هل أكل لحم الجنّ حلال أم حرام أم مندوب إليه؟ مسألة خطيرة على مستقبل العقل والجنون في المدينة.. لذلك قرّرت شهرزاد أن تتزيَّن جيدًا من أجل الحسم في هذا الأمر.. لبست فستانها الحريري الأصفر الموشّى بالذهب وأفرطت في التبرّج بحلي عثَرت عليهم الحكومة في قصر الرئيس الهارب.. وتعطّرت بعطر كوكو شانال الفرنسي.. وأكثرت من المساحيق على وجهها الصبوح حتى صار القلم يهذي.. واستيقظت فيه نعرات الجاهليين وأوشك على أن يتحوّل من وضع الحبر إلى وضع الذكر.. كان مفتونًا بها إلى حدّ نسيانه للقصة التي جاء من أجلها.. وتخيّل نفسه فقيهًا في آداب النكاح ومجالس الخمر.. واستنفرت شهرزاد من مجون هذا القلم.. أمسكت به بقوة بنات العرب وصاحت «أن ارجع إلى رشدك.. دعك من المحصنات ولتكتَفِ بالجواري» غضب القلم وأحس بأنّ كبرياء الذكر قد أُهين بالحبر.. أضرَبَ على الكتابة.. واعتصَمَ على سور القوافي ينتظر مرور جاريته قبل جنون الليل والجنّ.. اشتدّ غضبها فكسرته على اثنين وطفقت تكتب بعطرها على الهواء مباشرة.. وازدحمت حولها كل الشاشات تصوِّر الركح..

جمّعت كلّ فقهاء العرب.. وجيء بالأئمة الأربعة.. ووقفت شهرزاد في قلب المسرح.. «سيّدي أعزّك الله أفتني في هذا المأرب.. هل تسمحوا لي بأكل لحم الجنّ شرعًا.. لأنّي سئمت الجنون والمجانين في هذا البلد.. علّني أُشفى فأشفيهم من الخرافات والأباطيل والتلاعب بالشريعة.. وعلّني أتحرَّر من خبث هذا القلم الذي سكنني منذ مدة بعيدة ولم أتعافَ منه لا بالكذب ولا بالصدق ولا بالشعر وبالأدب.. ولا بالدين ولا

بالكفر.. أعِذْنِي مولاي إلى حمقي وبساطتي وعقلي وأعفُ عني من شرّ الكتابة والكتب».

تحنحن من بحّة قديمة في صوته من فرط القيام والقعود، قال واثقًا من علمه: «بلى.. هذا عين الهراء.. بل أكل لحم الجنّ حرام على كلِّ مَن آمن بالله وبيوم القيامة وبأحلام شعبه وبالديمقراطية.. وهو حرام أيضًا على كلِّ مَن استشهد من الثوار العرب وعلى كل مَن سيستشهد في الثورات القادمة وفي صحراء الخليج العربي..».

قاطعته شهرزاد قائلة:

«لكنّ فتواك لم تقنعني ولن تقنع كلَّ من يخاف من الاحتجاج على الظلم وطغيان الملوك في هذا الزمن.. هات حجّتك وإلّا حدَثَ معك ما حدث مع القلم..».

استنفر الفقيه لأنّه لم يكن من حزب الأغلبية وأحسَّ بالخطر على بعض المقاعد اليتيمة التي غنمها من الديمقراطية.. أجاب خائفًا من بطش شهرزاد: «أكل لحم الجنّ حرام لأنّه لم يُذبَح ذبحًا شرعيًّا.. ولأنّه لا يملك دماءً شبيهة بدماء الكبش والماعز والإبل.. ولأنّ لحمه مُرٌّ بشهادة مَن جرّبوه من الصابئين والبوذيين والمدمنين على الخمر..».

صاحت به شهرزاد: «كيف تقول هذا يا مولانا ومنقذنا من خرافات الجاهلين بحقيقة الشرع.. ألَمْ تعلم أنّ الله قد أمر الجنّ بالسجود للبشر.. فلماذا لا يجيز لنا بلحمه مشويًّا على الحطب؟ أم لأنّ الحطب قد نَدَر واندثر منذ أن لعن الله زوجة أبي لهب؟».

أجاب الفقيه في ظرف وكرم الأعرابي: «لقد حلّ لكم أن تأكلوا كل اللحوم بما فيها لحم الجنّ.. لكن احذروا من جنون البقر وجنون الدجاج وجنون الحجّاج ثانية.. فذاك خطر على الرؤوس والأقلام والأعشاب الطبيعية.. وعاشت نساؤنا تجنّ علينا وتكيد لنا وتتمنَّعن وهنّ الراغبات.. وإنّ كيدهن عظيم».

ضحكت شهرزاد ملء جنونها وملء الجنّ الذي يسكنها وتمتمت لأحد الصحفيات: «أحمقٌ مَن ما زال يجلس إلى هذا المجلس».

لقد هرب شهريار يوم سمِعَ من العرّافة بأنّ جنًّا يطارده لأنّه قتل زوجته حين خانته مع عبده الأسود وعلمت شهرزاد أخيرًا أنّ هذا الجنّ هو نفسه الذي أغوى زوجته لغدره.. وهو الجنّ نفسه الذي يدفعه كل ليلة إلى قتل النساء بعد فضّ بكارتهن.. لكنّ شهرزاد مسخته مخصيًّا من كثرة الحكي والكذب...

ولم تَبْقَ على العرش غير شهرزاد التي أقسمت أمام شاشة التلفزة بأن تغري الجنّ بالسجود إلى البشر وبأنّ النساء سوف تكون يومًا حاكمات هذا البلد...

بعد ألف سنة من عُمُر الحكايا.. انفتح الكتاب على مصراعيه.. وأسرعت أحداث البلاد إلى الورق.. أيّها سنحكيه وأيّها سنخفيه؟ وأيّها سيميتنا وأيّها سنحييه؟.

ألف ليلة وليلة وشهرزاد لم تَنَمْ بعدُ وحكاياها عن العفاريت والمارد الأسود لم تنته. وهذا شهريار يحمل في قلبه ألف امرأة وألف قصّة وعضو ناقص وعقل زائد والبواقي لم

توضع في الحسبان. هذي حكايانا نكتبها جميعًا بالأيادي نفسها وبكلّ الأقلام نطعن الورق ونبذّر الحبر فوق الحبر.. وننحر كلّ الكلمات ونعرضها عارية خجولة منكسرة الفؤاد على مرأى من كل العيون.. الضاحكة والمستهزئة واللامبالية والساذجة وطيبة القلب والماكرة والحاسدة. وحين نتّخذ من الحروف وجهًا ندفع به إلى الواجهة حينها يخبّئ الجميع وجوهه عن الرائي. هيّا اخرجي أيتها الوجوه الخفية.. تجلّى أيّها الوجه الماكر المتواري وراء الخطب والحروف اليتيمة.. تجلّى لعلّ لنا حلمًا نحيا به لعلّ..

خرجت كلّ الوجوه إلى الركح.. أرهاط كانت لا فرق فيها بين الجميل والقبيح وبين الوسيم والبائس.. كنت تراها مكفهرّة تخفي في ربطة العنق أرواحًا متعبة وكسولة أنهكتها الخمور والحروز ومضخمات الصوت الآتية من المساجد والأحزاب.. هذا بناقوس يدقّ وذا بمئذنة يصيح. ويجيء المعرّي ثانية إلى الزمن.. ويضحك منّا أبو القاسم الشابي.. ماذا أرادت هذي الشعوب؟ لست أدري ولا أحد يدري وحتى إن كان فينا مَن يدري فيبدو أنّ ضربًا من الرقابة الذاتية بدأت بعدُ في التسلُّل إلى قلوبنا وإلى حروفنا التي تمتنع عن التجلّي خوفًا من أن تحترق بنار الأبجدية..

واستوت الأرض فجأة من بين أيدينا ومن خلفنا وخرّت الجبال باكية على أفول النجم.. وطُلب من الزهر أن يتدخّل ليؤلِّف بين القلوب كي لا ينفضّ المجلس من حولنا. فلينتهِ هذا الصراع العقيم بين ثيران اليمين وثيران اليسار.. غلّقوا أبواب

الملعب وتصالحوا مع أنفسكم ومع جراحكم ومع شعوبكم ومع كلّ فنون القصص لديكم.. وإن لم يتيسَّر لكم ذلك الأمر جرّبوا قليلًا من الحمق ودعوا خيباتكم تكبر بشكل طبيعي واذهبوا عميقًا في أوهام شعوبكم.. قليل من الحمق وقليل من المكر والكثير من الحبّ تجعل حكايا شهرزاد أجمل وأجمل.

ليلة أخرى وشهرزاد لا تأخذها سنة ولا نوم وفي القلب عفريت وفي القصر مارد يتربّص بعذراء رابعة لم تأتِ. كان عليها أن تحكي وأن تحكي.. وكلّما كفّت عن الحكي داهمتها أشباح الذبح والكفن. بدأت الحكاية من النهاية. هنا المارد ما زال حيًّا، لكنّه غيّر من عنوان حزبه أمّا شهريار فلم يرحل تمامًا عن البلد، بل غيّر قليلًا من عباءته ومن طريقته في حلق ذقنه. ومن بعيد بدا لون الأفق بلا أفق بنفسجي متوهّج من شدّة الفقه. وانتصب شهريار في قلب العرش يوزّع العدل بين أهل الجنس نفسه ويحكم طول اليوم بالحقّ.. وجاءت شهرزاد قبل الذبح وأصرّت دنيازاد على أختها أن تحكي.. حيلة أنثى لا يقدر عليها أيُّ ذكر. وحتى لا تموت نطقت شهرزاد بالعجب: «كان يا مكان في حاضر الزمان مارد من الأنس والخمر والجنس طاغية من أشدّهم بأسًا وحمقًا استبدّ بأهل البلاد واستباح أرزاقهم ونساءهم.. لكنّ عقربة اندسّت في فراشه ليلًا ودسّت له السُّم في الدسم.. وفي الغد استيقظت قرطاج على شروق الشمس «قاطعها شهريار غاضبًا: «ويحك يا امرأة من لهب لقد قتلتني بقصّتي.. إليّ بالكفن». أجابت شهرزاد في دلال وسحر: «لبّيك مولايا وسيّدي.. بلى كنت أحكي.. وكان المارد مسجونًا في حكايتي فلا خوف عليك من عفريتة القصص، بل

هو الليل طالَ على البلد.. دعني أحكي لك حكاية الحمار والثور». ولم تَنَمْ شهرزاد إلى اليوم. وما زالت تحكي لكلّ طاغية يأتي.. وما زالت تُلهيه عن الوأد.. لكنّ ماردًا آخر طلَع عليها من آخر الزمن مُثقلًا بالسماوات وبالبخور المُعتّق بصحراء عدن. ضحكت شهرزاد وهمست لدنيازاد «هل أصمت أم أحكي.. هذا المارد لا يُحبُّ صوتي..».

ولم يأتِ الصباح لأنّ الديك نسي كيف ينذر بالفجر المباح.. لكنّ شهرزاد ما زالت تحكي وتحكي كي لا يموت شهريار من غلاء فواتير الغاز والضوء..

أغلقت الكتاب لتوعُّك صحيّ في القلم.. ووقفت تخطب في الحشد.. أسكتها شهريار بحركة الكفن.. واستولى على الركح يقرأ عليهم ما كتبت كل امرأة لطغاة البلد تظاهرت بالطاعة وانضمَّت إلى الحشد بابتسامة المكر...

«هذي حكايانا نكتبها جميعًا بأقلام لا فرق فيها بين الأبيض والأسود.. كلّ منّا شهرزاد وشهريار سوف يضحك طويلًا من شدّة الندم.. كلّ منّا كان كثيرًا من العدد ومن الغضب ومن الحمق.. لذلك صرنا شعبًا من شدّة التعب. ما شأن شهرزاد باللقب والنسب... خذوا حكاياكم مأخذ الجدّ وغلّقوا أبواب الخصام بين أهل الرقص والطقس وبين اليمنى واليسرى.. يسّروا على شعوبكم وانزلوا إلى جراحكم وأعماق أريافكم ستلقون أقاصيصكم في انتظاركم.. جرّبوا بعض المحبّة وقليلًا من الحمق الطيّب على أنفسكم سوف تعبرون الظلام دون أن تُصاب عيونكم باللفظ».

وما زال الليل طويلًا وشهرزاد أتعبتها الحكاية. فلا الثور يرغب في استئناف الحرث في الحقل ولا الحمار أنصفه صاحب البيت. وحده الديك يسيطر على الوضع. أمّا عن العفريت فقد استبْلَهَ الصيّاد وسمّم كل أسماك البحر مخافة من طغيان الملك على العشب.. حذار من هذه الحكاية قد يُصلب فيها حكيم الرومان وقد تقطع أوصال الحلّاج ثانية وثانية تَقْتلع هند كبد البطل.. وكلّ من لمَسَ القصّة بالعين المجرّدة سيعاقبه شهريار خوفًا من أن يُفشى سرّه بين ملوك العرب في حكايته المشبوهة مع زوجته القديمة والعبد الأسود.. لكنّ شهرزاد ما جاءت إلينا من وراء الكتاب في فستانها الحريري المزركش بالذهب إلّا من أجل هتك الحجاب بين الملوك والعباد. لا خوف عليكم من شهريار الكذب فكلّما حكينا حكايته بالقلم كلّما أسقطناه في قنّينة الحبر وغلّقنا عليه جيّدًا أبواب الدهر..

رشّت على الركح قليلًا من العطر.. فانتعش شهريار.. واستنفر وصار يحملق فيها بعينٍ ملؤها العشق وأخرى ملؤها الذبح.. أسرعي يا ابنة أمّي فكّكي العرش قليلًا وقُصّيه قصًّا وأسقطيه بالحرف واطعني الطغيان برصاص القلم وبسمّ الحبر.. أسقطي العرش سريعًا قبل أن تتحوّلي إلى نعش.. وبدأت الحكاية من سوق المدينة: «مولايا وسيدي، دعنا من حكايا الفرس والروم ومن لقمان ونعمان ومن المارد الأسود الذي خانته القيان، وهيّا معي إلى السوق نشتري فاكهة ولوزًا.. ففيه فائدة كبرى لكبار الملوك.. ففي قلبي يوم طويل وطوابير من الجوع وطوابير.. وهذه سوقنا تمتلئ تفّاحًا شاميًّا وسفرجلًا

عثمانيًّا وياسمينًا حلبيًّا وبنفسجًا تونسيًّا ولحمًا ليبيًّا وحليبًا يمنيًّا.. لكن.. لا أحد يشتري.. فالفاكهة صارت في مملكتك يا مولايا لا تصلح إلّا للعرض فقط ولا أحد يتجرّأ على الاقتراب منها غير الأحزاب الليبيرالية ومُترَفي المدينة. أمّا أصحاب الشهرية فاختاروا اللحوم البيضاء والأعشاب الطبية والحمية الأيكولوجية.. أمّا ذوي الحاجات الخصوصية فالصوم أرحم لهم من شراء التفاح الأحمر والنوم أخفّ ضررًا من أكل السمك والموت أيسر من الاقتراب من مجزرة الحيّ.. أمّا البنفسج التونسي فالحجّ لمن استطاع إليه سبيلًا.. وحين تصير طوابير الجائعين عاشبة سرعان ما يغير الخضّار من أسعار العشب احترامًا لتكاليف البيئة المهدّدة بالانقراض في المستقبل.. رعاياك يا سيّدي سيموتون جوعًا وهذا أخطر على مملكتك من كلّ حكاياتك مع غدر النساء ومن تهريج القيان مع عبدك الأسود..».

صاح شهريار غضبًا: «ويلك من امرأة مهذار.. اصمتي هذا الكلام غير مباح».. اقتربت منه شهرزاد وأمسكت بيديه في دلال وقالت «لبّيك سيّدي.. لا خير في مُلكٍ بلا رعايا.. وإن ماتت رعيتك من أين سنأتيك بالبنات؟ اليوم رأيت نفرًا من الرعية يكتظون على المزابل بحثًا عمّا يسدّون به الرمق فهلّا خفّفت عنهم غلاء المعيشة».. ضحك شهريار «يا لك من حمقاء.. فليحمدوا الله على صناديق القُمامة.. ألم تعلمي أنّ الملوك كالنمل إذا دخلوا قرية خرّبوها.. كوني جميلة واصمتي.. أمّا عن رعيّتي.. فهم لم يأكلوا النخالة بعدُ». لكنّ شهرزاد قالت في نفسها «يا له من ملك أحمق هذا الذي

يغطّي عرشه بالحكاية ويلفّ وجهه بجلد عفريت قديم، ألم يعلم أنّ النخالة صارت أغلى ثمنًا من الخبز وأندر من الكبريت الأحمر في زمان صارت فيه قشور القمح أنفع للبدن وللعقل..» وواصلت قائلة بصوت سحريّ: «اعذرني يا سيّدي أنا الآن أشفق عليك من قسوة القصص، زمانك قد ولّى منذ أن صارت النخالة من علف للبهائم إلى عقّار طبّي يُباع في الصيدليات لشفاء الأمعاء المريضة والمعدة العاجزة عن هضم ما طرأ من الأحداث في الزمن.. سوف أهديك كأسًا من خليط النخالة والخمر وأدفنك ثانية بين أوراقي وتحت قلمي.. اليوم أعددتُ لك القصّة كلّها لتذهب بكَ عميقًا في دهاليز الدهر.. اسْعَدْ بقصّتك وحيدًا.. هكذا يُجازى شهريار كلّما ظهر على ركح الأمم».

وأغلقت شهرزاد الكتاب جيّدًا على العفاريت.. وفي القلب قصّة سوف تأتي، ستكتبها مرّة أخرى إلى كلّ من يرغب في العبور إلى بلاد يسكنها شعب من الجبّارين حيث يموت المارد في القصة وقبل أن يأتي..

دخلت شهرزاد في فستانها الحريري تمشي الهُوينى.. لا تدري أهي تسير نحو عُرسها أم نحو حتفها.. وخلخال ذهبي في ساقيها والحنّاء تُخضّبُ كفّيها شبيهة بدماء القتلى الذين ما زالوا يسقطون في الشوارع العربية.. كحيلة العينين في عُمق سواد الليل.. كم كانت تُشبه حكاياها التي تقصّها قربانًا عنّا، وفي قلبها تُخبّئ شعبها وفي قصص تغمرها بعطرها في كل الليالي التي أنقذتنا.. لكنّها لا تدري هذه المرّة هل ستكتب الملهاة أم ستكتب

المأساة ولا تدري ماذا سيجري في هذه الحكاية: هل سيُسمّم الراهب الكتاب كي لا نضحك البتّة من الكُتب، أم سيحرق مكتبة المعبد كي لا نقرأ إلى الأبد؟.

رمقت «شهريار الكذب» بعيون ملؤها الحرف، وكانت عيناه تستعجلانها على الحكي من فرط التعب من الحكم.. وبدأت الحكاية: «سيّدي ومولاي جئتُك الليلة بحكاية عن رهط من الحُكّام الذين سقطوا في هذا العصر.. دخلوا المدينة عند المغرب وقد استوى النهار بأيادي رجالها ونساءها الذين كنّسوا الشوارع من الخنازير وعفاريت القصر.. وبعد أن مات فرسان في عنفوان العُمر من أجل البلد، ركبت الأحزاب على الركح وطفقت تتخاصم على الحكم.. وتبادل أرهاط وأرهاط السباب والشتائم والثلب.. وانتشرت حملات التكفير بين النُخب والفقه.. وانتشرت البِدع وصار الجميع إلى «كفرة من تحت كفرة».. كأنّ الله يحتاج إلى ضجيج العباد وأطماعهم ونفوسهم الضعيفة.. وكأنّ الشعب ناقص عقل ودين ومحبّة لربّه.. وانتشر الجوع فيما أبعد من الإيمان والكفر.. كم أنت جائع أيّها الجوع.. كيف تجرّأت على أن تستولي على البيوت إلى هذا الحدّ؟» قاطعها شهريار في جزع: «ويحك يا امرأة.. لقد خرجت عن النصّ.. ونسيت أن تحكي إليّ عن حكّام العصر.. لا أريد أن أسمع عن الجوع والفقر وعن الربّ. ما شأن الملوك بالدين والكفر؟ إن هو إلّا مكر كي نستولي على الحكم... أعيديني إلى القصر».. ضحكت شهرزاد همسًا.. وعرفت حينها أنّها أصابت الهدف.. فهي هنا كي تتدرّب على فنّ الرماية كي تُحوّل الحكاية إلى رمح تسدّده إلى قلب الملك كلّما فكّر بالذبح..

قالت في نغمة تدُسُّ السمّ في الدسم: «عفوًا سيّدي ومولاي.. ما أردت إغضابك.. لذلك اضطررت إلى تبديل وجهة الحكاية.. فحكّام هذا العصر قد اختصموا إلى حدّ الخجل حول من يترأس الحكومة ومن يترأس الدولة ومن يترأس «المصلحة الوطنية».. فهذا حاكم يريد الإخافة وآخر يريد سوق النّخاسة وثالث ينادي بالحداثة.. وطالت بهم الحال دهرًا من الزمن في عراك لا ينتهي».

سئم الشعب الذي صار وحيدًا إزاء غلاء المعيشة.. ولم يفهم ما يريده حاكم البلد.. فخرج يجول الشوارع ضاحكًا بشكل جماعيّ، وصاح الجميع في صوت واحد: «.. ماذا أصابكم يا حكّامنا الجُدُد.. هل نسيتم أنّ «الشعب هو الذي يريد» في هذا الزمن؟ مَن صار فيكم هذا الشعب برمّته.. مَن في حجم هذا الجوع وهذا الغضب.. مَن يقدر على حمل هذا الجبل.. من سمّاكم.. من علّاكم فوق جراحنا.. يا الله تجلّى نعلّ لنا وطنًا لنسكنه لعلّ.. فزع الحكّام من ضحكة الشعب.. وهرول كلٌّ إلى حزبه وغلَق حانوته على نفسه.. وتجمّد كلٌّ منه يحملق في وجهه.. هل هذا وجه أم عضو آخر.. هل يخجل من نفسه أم يضحك أم يبكي؟ أم يبحث عن نفسه التي بها سيخجل أم سيضحك أم سيبكي». اغتاض شهريار من صاحبة العطر وفرغ صبره وصاح من أعلى الركح: «أسرعي يا ناقصة العقل أسرّي إليّ بما ارتآه حكام العصر.. فقد نكّلت بالقصر وها أنت تسيرين رأسًا نحو الكفن» اقتربت منه شهرزاد في دلال ومسكت بيده في سحر: «عذرًا مولايا وسيّدي. لا شيء يستحق

الغضب.. فحكام هذا العصر لا يخجلوا من الشعب.. فحاكمنا بخير تمامًا ولا أحد يصل إلى قلبه غير الحكاية، هو الآن يا سيّدي يعتلي صهوة العرش خاطبًا في الناس: «أنا حاكمكم الأعلى.. فلا أحد يضحك من العرش. ومَن أضحكته الحكاية فليضحك وحيدًا بشكل شخصي.. ممنوع عليكم الضحك جهرًا وبشكل عمومي.. ومن هو مُصاب بإرادة الشعب عليه الحرق حالًا عبر البحر إلى بلاد الزنج» ضحك شهريار بشكل جنوني.. واستمرّ على هذه الحال إلى اليوم.. صاحت به شهرزاد: «ماذا دهاك أيّها الحاكم العربي؟ هل تضحك من نفسك أم تضحك من القصّة التي تشبهك إلى حدّ الموت.. هل جُنّ الحاكم العربي؟ طوبى للحكاية.. فلنكنّسه جيّدًا بحكايانا قبل أن يتجسّد ثانية في ثنايانا»..

جاؤوا متأخرين عن بقية الحشد.. كلٌّ وجرحه وكلٌّ وعضوه المبتور وكلٌّ والعطب الثوري الذي أصابه.. كل واحد فيهم كان يحمل قصته معه.. لكن القارئ لمثل هذه القصص غير موجود في هذه المدينة.. حدّقت مليًّا في وجوههم.. وصارت تقرأ في سرعة مذهلة كلّ ما رسمته جراحهم.. صاحت بالحشود الواقفة على حدود الحكاية:

«يا أهل تونس هل أتاكم دُعاء جرحى الثورة؟ لقد وهبوكم أعضاءهم وأهدوكم آلامهم.. فماذا سوف تمنحوهم؟ أيّ هدية تلملم جراحهم وتُعيد إليهم بعض أعضائهم؟.

انهمروا من كلّ ريف ومن كلّ أشواك الطريق. جاؤوا من صميم الجرح والجوع والنسيان والغضب.. كلّ يحمل ما تبقى

من جسمه معه وكلّ يذكر عضوًا مبتورًا من أعضائه يوم كان معه ويوم هاجره ويوم بُترت يده أو ساقه أو بعض من أحشاء لم يعد يسمّيها من شدّة الزحام على ساحة الثورة.. اصطفّوا بشكل فوضوي أمام المستشفى العسكري وجاءت الكاميرات والمصوّرات وكثرت عيون المتطفّلين والبائسين والدجّالين.. لم يكونوا في حاجة إلى دموع أحد.. فكفاهم دموع أمّهاتهم وأخواتهم وزوجاتهم وحبيباتهم.. لم يأتوا لاستجداء أيّ أحد وهُم مَن وَهَب نفسه لرصاص الطغيان القديم.. أبعدوا عنهم التصاوير قد يصيروا أوثانًا بعد حين.. لا تجسّدوا جراحهم قد تغضب أعضاءهم المبتورة لأنّها لم تأتِ معهم هذه المرّة..

بالأمس كانوا مواطنين يوميين يذهبون إلى السوق وإلى المدرسة وإلى المسجد وإلى خمّارة الحيّ.. وكان بعضهم يطلب علمًا وآخر يحرث حقلًا وثالث يجلس القرفصاء على أرصفة المدينة ورابع يطلب كأسًا.. فجاءت الثورة فأهدَتْ كل منهم رصاصة في عضو من أعضائه التي لا يملك غيرها. وصار لهم اليوم اسم يجمعهم في الضرّاء والضرّاء.. إنّهم جرحى الثورة.. تهمتهم أنّهم لم يموتوا بما يكفي كي نمنحهم وسام الشهداء.. وتهمتهم أنّهم أخطأوا الموت ولم يتقنوا فنّ الشهادة.. فصار وجودهم معلّقًا بين الحياة والموت.. وهاهم يقبعون بجراحهم على التخوم بين الشهيد والفقيد وبين التاريخ والإعاقة وبين الظلم والجرح.. وحين انشغل الجميع من السياسيين المنتصرين بجراحهم في توزيع الحقائب وتقاسم الغنائم وجد جرحى الثورة أنفسهم نسيًا منسيًّا. وصارت الثورة نفسها وحيدة يتيمة في ضجيج المنابر والأحزاب. ثورة مجروحة

أو جرحى الثورة اسم واحد لكوميديا إلهية لم تعد تُضحِك أحدًا... فلا هم ماتوا كي يكونوا شهداء ولا هم عاشوا كي يصيروا وزراء.. وقَفَ أحدهم وكتب بعُضوه المبتور على الهواء دعاء لا يقرأه غير سكّان السَّماء.. وفي لمحة البصر طفق القلم يكتب من وحي الدماء.. اقرؤوه على وجوه الملأ وكلّ مَن لا يخجل من وجه حزبه عليه أن يذهب طوعًا إلى مستشفى البُلهاء: «اللهمّ اغفر لنا ثورتنا وارحم جراحنا واستقبل أعضاءنا المبتورة بجنان رحمتك وأعزّ طغاتنا السابقين واللاحقين واحمهم من الصدق والعدل وارجُم عبادك المنافقين».. «اللهمّ يا إنّي قد تحقّقت بك منّي فلا صبر لي عنّي لما أصبت منّي».. أدعوك يا الله أن تقتصّ لنا من الظالمين ومن الدجّالين ومن الزائفين.. ومن الذين يجادلون في جراحنا بغير جرح ولا ألم دفين.. وقل ربّي زدني جرحًا فأنا من عبادك الصابرين. اللهمّ اعفنا شرّ الحقيبة وشرّ الرئاسة وشرّ النخاسة. اللهمّ لا تحشرنا مع جرحى الحداثة ولا مع جرحى السياسة. ولا تكتب لنا مجلسًا مع أهل الخلافة واجعلنا من الجائعين الصابرين. اللهمّ أبعد جراحنا عن اليمين واليسار وعن شرّ سلف لشرّ خلف.. اللهمّ اكتب لنا في الآخرة خيمة للمعتصمين وامنحنا دارًا للكتب الممنوعة من طرف عبادك الضالين ولا تمنّ علينا بما لا طاقة لنا به. اللهمّ امنع عن الإمبرياليين والسارقين قموحنا وتمورنا وعنبنا وخيولنا ووزّعها بالقسطاس على الجائعين. اللهمّ لا تعطهم شيئًا من علمك ولا مالًا يجورون به علينا واقتصّ لنا من كل الظالمين ولا تحسب يا الله أنّا نصدّق الزائفين وأنّا نتّبع سماسرة الدنيا وأصحاب البدع في الدين.. «اللهمّ إنّي أعوذ

بك من سلطان جائر وصديق غادر وغريم ماكر وقريب مناكر وشريك خائن ودار ضيّقة» وإنّي اللهمّ أوكلت جراحي إليك فكُن بها عطوفًا رحيمًا.. لقد تُبنا عن اتيان فعلة الثورة فاقبل توبتنا وإنّا نادمون يا أرحم الراحمين فاقطع دابر البهتان والطغيان في بلادنا واهدي أمّتنا إلى الصراط المستقيم.. إليك توبتنا وإليك نكبتنا وإليك خيبتنا فأنت أعلم العالمين».

آمين.. يا ربّ العالمين ويا شعبًا وهب نفسه للجبّارين.. آمين.. آمين.

سكتت شهرزاد عن الكلام الحرام.. وغمزت شهريار بطرف عينها الماكرة.. غابا عن الركح خلسة.. وتوجّها رأسًا نحو حلم آخر...

انضمّ الجميع إلى المجلس.. كان ذلك اليوم حاسمًا في تاريخ المدينة.. اليوم سيتمّ انتخاب رؤساء ثلاثة للبلاد.. رئيسًا للمجلس ورئيسًا للحكومة ورئيسًا للدولة.. تُرى هل سيحسنون الاختيار أم سيخطئون العدّ ككلّ مرّة؟ هكذا تساءلت شهرزاد وسارعت بالدخول إلى المجلس..

اشتدّ بهم الليل وتأخّر وقت العشاء وداهم أعضاء المجلس شبح الجوع.. جوع إلى الأصوات وجوع إلى الدجاج وجوع إلى التهام أحلام الجياع.. ودارت الماكينة دورتها الأخيرة.. وسقط المعتصمون تحت حائط القصر مغشيًّا عليهم.. لا أحد يدري ما الذي يجري؟ وانتفضت الخنساء من بين المقاعد تحمل بيدها اليُمنى ديوان الشعر وباليسرى صُوَر فرسان قبيلة بكر ابن وائل. وتقدّمت نحو رئيس المجلس قائلة:

«بلغني يا سيّدي ونحن على مشارف مكّة أنّ قبائل قرطاجنّة تشكو من كثرة الخوض في الزائف من المسائل ومن قعودكم عن إنصاف الأقليّة وسلّة الخبز فارغة وفنادقكم تغصّ برقاعة الخطابيين وكثرة المصوّتين ورطانة الحقوقيين.. أفتنا يا سيّدي المصطفى في الخصومة بين الفعيل والفعليل.. ما حكمها وقد اشتبها وتعطّلت مصالح الأمّة وأحوال الخاصّة والعامّة.. وتعفّنت جروح الثائرين وبُطون الجائعين.. فجمّع يا سيّدي ما تبقّى من الأصوات وغلّق أبواب المجلس قبل استفحال الديمقراطية بالبلاد»..

أصابه الفزع وانتفض من مقعده من شدّة الجزع ولولا ورع الشيخوخة لما رأيناه يجري ويجري.. غير أنّه تماسك لحنكته وحكمته ورشده.. صاح بالمرأة الملفوفة بالسواد: «ومَن تكونين وهل سمحتم بلباس النقاب في المجلس؟ أبعدوها عنّي وكفاني حُجبًا إلى هذا الحدّ» تقدّم سلفيٌّ إلى الركح مطمئنًا خنساء العرب: «لا تعجبي سيّدتي.. لقد أصيب المجلس بأخطاء في الشكل وحَادَ النحو عن الإعراب وتبعثرت تفعيلات العرب.. وتاهت تفعيلة الرئيس عن حركة النصب.. هذه الأمة أُصيبت بالديمقراطية فهيّا ندعو الربّ كي يشفع لها ويغفر لها ضلالها عن الحقّ والحكم الرشيد» صاحت الخنساء على أحرّ من الجمر «كيف ستفصلون إذًا بين الرئاسات والصلوحيات والألقاب؟ كيف ستوزّعون الحقائب؟ وكيف ستحكمون بالعدل والخبز والدفء؟».

وفزع أبو حيّان من سديم العصر وطفق يخطب في الجمع

دون استشارة أحد: «إن كنتم تقصدونها بالنصب فصوّتوا إلى مطلع الفجر واذكروا أنّ وزن الفعيل يُقال على أكثر من خطب فهو يُقال على الصغير والكبير وعلى البخيل والضرير وعلى المرير والدليل وعلى الهديل والصهيل وعلى القليل والفقير وعلى الجميل والدخيل.. وان أردتموها بالضمّ فأنتم اخترتم التصغير بما فيه من لُطف التنغيم وذلّ التقليل وخزي التحقير ووخز الضمير وخفّة وزن ما كان عليكم بالثقيل.. فكّكوا تفعيلاتكم جيّدًا واحسموا أمركم في أيّ المعاني تقولون رئيس أمّتكم.. حتى نحذف من التفعيلة كلّ ما لا يلائم القسطاس المستقيم في هذا المجلس؟» انتفض أحدهم وكان أحدّهم أنيابًا وأحضرهم أسبابًا وأقواهم لسانًا وحجّة..: «بلى إن هي إلّا أصواتًا نملكها وحناجر نسكتها وأرزاقًا نمسكها.. ورعاعًا نسوسها.. فإن كنت من أهل الأغلبية فأمّك هاوية وما أدراك ما هي.. وإن كنت من أهل الأقلية فنحن ننصحك بالصمت لأنّك خسرت القضيّة». وازدحم الجميع على زرّ التصويت يتلهّفون على إعطاء أصواتهم بأقصى سرعة.. وجاءت كل الأفعال من المهموز إلى المغموز إلى المضاعف والمعتلّ ووقف الفعل الناقص بلا صوت لأنّه أقلية ولأنّه ممنوع من الصرف وسانده جمع التكسير.. لكنّ الجياع والبطّالين رسبوا في النحو وفي الصرف وفي الفقر.. وأومأت إليهم العدالة الانتقالية بمغادرة المكان لأنّهم أخطأوا الطريق إلى الحياة المدنية.

قالت الخنساء: «ما أحمق هذا العصر وهذا الرهط الذي أقحمني في هذا الركح؟ اللهمّ أتمّ عليهم ما أرادوها

وبلّغهم ما أملوه وأبعدني عن اللوثات القبيحة واللطخات الفاضحة والحكايا الموحشة والتفعيلات التائهة عن الصراط المستقيم..» آمين يا ربّ التونسيين..

واحتدّ النقاش واشتدّ الإعراب وغضبت كل التفعيلات لأفول الليالي الملاح.. وصوّتت كلّ الأفعال من المهموز إلى المغموز إلى المضاعف والمعتلّ.. وجاءت كل ركاكة النحو من النطيحة والكسيحة والذبيحة إلى ذات الهُمزة اللُمزة إلى مكر الفقه.. أمّا الفعل الثلاثي فقبع ينتظر تحوّله إلى رتبة تفعيلة الفعيل دون انشغال بالصلوحيات..

أدمنوا على الرؤساء بالأغلبية.. وامتنعت الأقلية عن التصويت. لقد ضاعت أصواتهم في الصناديق ولم تُحتسب.. كانت من البواقي.. أجهش أحدهم بالبكاء.. وبكى زميله الذي يجلس بجانبه.. وأصابت عدوى البكاء باقي أعضاء حزب الأقلية.. وتعالى نواح السافرات.. غضبت شهرزاد من ضعف النساء ووقفت تخطب في المجلس دون أن تضغط على الزرّ:

«أبشر أيّها الأقليّ فلن ترضَ عنك النصارى ولا اليهود ولا قوم لوط ولا الصابئة ولا الجاهليين ولا البوذيين.. أنت مشاغب رغم لطفك وأنت مذموم رغم حداثة مشاعرك.. وأنت غربي رغم عروبتك. وأنت معارضٌ في كلِّ الأحوال ومهما كان الرئيس.. أبشر يا هذا.. مهما كانت ثقافتك ومهما كانت ثورتك ومهما كانت لحيتك وعطرك أنت الأقلية سواء كنت ذكرًا أم كنت أنثى.. وإن كنت تونسيًّا فبوسعك أن تصير رئيسًا مرتقبًا للبلاد بعد فوات الأوان أو قبل مجيء النهار.. لكن

عليك أن تتثبت من نفسك بعد الترشح وقبل التصويت.. وكلّما كنت ذكرًا وكنت أغلبية فتصويتك واجب بالشرع.. وكلّما كنت أنثى وكنت أقلية فحلال على السلف الصالح ومباحة لكل من أدّى اليمين الدستورية.. وحين تثقل موازينك فأنت تحمل الخير للبلاد وللعباد.. وحين تخفّ موازينك فاحذر من يوم الأربعاء لأنّه ليس يومك.. بل هو يوم العرّافين وحماة الثورة.. حذار يا هذا إلى أن تتبيّن الخيط الأسود من الخيط الأسود فحين يشتدّ الليل لا فرق بين الأجناس إلّا ببطاقة الحزب.. ابحث عن بطاقتك جيّدًا قد تكون خبّأتها في قنّ الدجاج.. سيمسي عليك المساء ثانية ولا شيء يحميك من البرد غير سردوك جامعي أو سردوك تأسيسي فاحذر الخلط بين الديكين أحدهما يُحسن الآذان والآخر لا يصلح إلّا لإلقاء الدرس..

أيّها الأقليّ سوف يرغمونك على الديمقراطية فلا تقل لهم أُفّ ولا تنهرهم وقل ربّي أعنهم على ما فيه خير الدوابّ والإبل والخيول الذهبية.. وإن سألوك هل أنت سعيد بالرئيس الجديد فعليك أن تُنعم بلسان القلم وأن تضحك إلى حدّ النواجذ وأن لا تكتفي بابتسامة الجوكندا.. لا تنشر الكآبة على وجهك.. وارسم شجرة خضراء على جدار بيتك إن كنت صاحب البيت.. واستبشر بهذا الخبر فقد يأتيك من ورائه خبر آخر أو مقعد حتّى في الحافلة.. أيّها الأقليّ كُن تونسيًّا مرّة أخرى وكُن قنوعًا وكُن حامدًا وكُن شكورًا.. أيّها الأقليّ سواء كنت ذكرًا أم أنثى أو كنت ريفيًّا أو مدنيًّا أو منجميًّا: لا حلّ لك غير السير في الشوارع والنظر إلى الحوانيت المغلقة، وقراءة الجرائد إن سمحوا لك بها.. أمّا غير هذا فبوسعك

أحيانًا أن ترتاح قليلًا على الرصيف أو أن تنتعل حذاءً حديثًا أو أن تُصلّي إن كنت تحفظ الفاتحة والإخلاص عن ظهر قلب.. وإن كنت لا تحفظها لا حرج عليك فاذهب إلى أقرب كتّاب وسجّل اسمك.. ولا تخجل من سهوك عن ذكر الله فهو غفور رحيم.. وإن أُصبت بآفة النسيان فغادر المكان واقصد لتوّك سوق الخضار.. بإمكانك اقتناء الكثير من الجزر فتخلطها بالقليل من القرع والزبدة.. ستصبح فورًا ديمقراطيًّا إلى الأبد.. وحينئذٍ سوف تفرح برئيس البلاد وسوف تعود إلى المجلس وتسترجع رشدك الانتخابي وتصفّق لانتصار العدل وانهزام عربة الفاكهة.. لكن حذار من غضب الكتلة.. قد لا تقبلك بصفتك أقليًّا وبصفتك منشقًّا عن الصفّ.. حينها لا حَلّ أمامك غير التدرّب كفاية على الوقوف في الصفّ وعلى قبول الكفّ بالكفّ وعلى إعطاء كل ما لديك من الصمت ومن الصوت.. وحذار من استنفاذ صوتك فأنت بعده لن تكون في المعارضة وقد تفقد لقب الأقلية وقد تنتهي صلوحياتك بوصفك ذكرًا أو بوصفك أنثى.. وهي الطامّة الكبرى إذ كيف ستتثبت من هويتك الحزبية يوم القيامة.. لا تكن جحودًا.. فمثلك مردود عليك وتشنيعك فاضح لأهل مدينتك.. واعلم أنّ الأغلبية الناظمة للرشد والواعدة بحسن المآب ستوزّع عليكم المساكن والمآكل وكلّ الأوزار الثقيلة.. فإن لم تستطع حمل وزرها فعليك أن تمارس رياضة حمل الأثقال إن كنت تملك بدنًا.. وإن كنت تملك نفسًا فقط فصبر أيّوب أو خمّارة البلد قبل أن تُقفل.. أيّها الأقليّ عليك أن تتدرّب على نسيان الديمقراطية فهي قول مرذول ورأي مخذول.. وكلّما نجحت في فقدان ذاكرتك كلّما عدت إلى

رشدك ودنياك ودينك.. يومئذٍ ستدرك جيّدًا أنّك في بلد أمين عُدْ إلى ربّك وإلى أولي أمرك وادْعُ الله أن يهديك إلى صراط الأغلبية.. آمين يا ربّ الأقليّة..».

جفّت كل الدموع وانصرف الجميع إلى احتساء القهوة.. وابتسمت لشهريار.. همّ باحتضانها.. لقد أبدعت في خطبتها.. همست له.. لا تبالغ في مشاعرك تجاهي.. حتى لا نخرج من الحلم...

لم يكن حلمًا.. كانت كوابسه أكثر من وعوده.. وجاء اليوم الذي قرَّر فيه المجلس توزيع الحرية بالعدل على كل بطّالة البلد...

واصطفّت الشاحنات أمام المجلس الديمقراطي لحمل ما تيسّر من الحرية ومن جبّة الحلّاج ومن سيوف الحجّاج ومن دعاء الفجر ومن أحلام المعارضة ومن نظّارات الرئيس. وتزاحم الرجال يعبّئون الحمولات رصًّا رصًّا وتقاطعت السواعد بالمناكب وبالعناكب صفًّا صفًّا وأطنان أخرى من الذاكرة ومن المستطيلة الشعبية ما زالت في الطريق إلى الشحن والدهس والرفس.. لا أحد كان على علم بما يجري. ولا أحد يهمّه إلى أين سيُحمل هذا الشحن.. لأنّ سوق الحرية وحوانيت الهوية كانت في ريعانها والبضاعة كثيرة والخير يعمّ الجميع.. وأهل المدينة قد شبعوا وسكروا ورقصوا واعتصموا وأضربوا.. ولم يقعدوا عن شأوِ مَن تقدّم عنهم بآلاف السنين.. وعلموا أن لا عزّ لهم إلّا بالمعارضة ولا معقل إلّا بمرصد للحرية ومنابر لحفظ الهوية ولا فخر إلّا بتوزيع عادل لدعوات جدّتي على كل بطّالة البلد..

وانطلقت الشاحنات جريًا نحو أرياف بعيدة عن المدن.. وحطّت برحالها صباحًا أمام ساحة المسجد. وأسرع الأهالي يستكشفون الخبر. ونادى المنادى بأعلى صوت المؤذن: أن أبشروا يا فقراء البلاد اليوم ينفرج الكرب ويزول الهمّ والغمّ.. أبشروا هذا يومكم. أطنان من الهوية وأرطال من الحرية هي هبة لكم ووعد من رئيسكم ومكافأة لشهدائكم وعلى دمائكم.. تقدّموا فهذا رزق حلال عليكم.. خذوا ما طاب لكم وكل ما تشتهي عيونكم.. هذه بضاعتكم رُدّت إليكم.. هذي هُويّتكم، وهذه حريات حلال عليكم.. أحبّوا ما شئتم من اليمين إلى اليسار ومن الكتلة الشرقية إلى العريضة القزوردية.. خذوها برمتها معكم إلى بيوتكم واخلطوها بدعوات جدّاتكم وبدستور بلادكم... ستزول البطالة عنكم وتبرؤون من الفقر ومن برد الشتاء. وبقدرة قادر تبنون بيوتًا لكم وتلبسون معاطف من الفريبات الرفيعة وتأكلون كل أنواع الأعشاب الصحية من الفطريات إلى الثدييات..».

ساد صمت رهيب.. وأصاب الذهول كل الحشد..لا أحد فَهِمَ ما قاله الموزّع ولا أحد صدّق ما سمع.. خرج أحدهم إلى الركح وأخذ يخطب بأعلى صوت: «مهلًا يا سيّدي لم نفهم من كلامك أيّ شيء.. فإلينا بالهبات والهدايا والسبايا.. واكفينا شرّ الخطب والمدح والثلب.. أخبرنا سيّدي ماذا عن كل هذا الشحن.. ألا يحقّ بكم وقد ندُر الرزق وخفّت موازينكم أن تتقشفوا؟ وماذا عن الهوية. وبماذا تعدُ؟. هل هي صناعة أم بضاعة.. هل هي إلهية أم بشرية.. هل هي من الجنّ أم من الإنس؟ وماذا تقصدون بالحرية؟ هل تُؤكل أم

تُلبس أم تُنكح؟ أم هي معمل للشغل؟ وأين سنخبّئ كل هذا الكمّ من السلعة.. فديارنا الياجورية القصيرة بالكاد تكفينا من الحرّ ومن القرّ؟» أجاب الناطق المؤقت باسم العدالة التجريبية: «اطمئنّ يا أخي فنحن جلبنا لكم أيضًا طنًّا من السافرات ورطلًا من المنقّبات وتسعين رطلًا من المتحجّبات هي حلال عليكم وزيجات صالحات تصلح للنكاح وللطبخ منذ الصباح ولتسديد الكراء ولوازم الدفن.. كلّما عدّدتم الزوجات المحصنات كلّما زالت البطالة عن جيوبكم والفقر عن قلوبكم والجوع عن بطونكم.. أبشروا هذا زمن الحريّات وعذابات القبر.. أنت حرّ يا صاح لأنّك آمنت بالشعب وبحق الاختلاف وبحرية اللباس والتنفس والأكل».

صاح الحشد قبل أن يضغط رئيس المجلس على الزرّ: «لكنّك نسيت يا موزّع العدل أن تجلب معك حريّة البطالة وحرية الجوع وحريّة الشرب وحريّة النشل وحرية الحرق وحرية الموت».

ومن آخر القنّ قفز مهرّج الحيّ غير مكترث بإرادة الشعب: «بأيّ أمر جاؤوا إلينا من المدن.. أمّا عن السافرات فلنا منها ما يكفي.. أمّا عن طواسين الحلّاج فلا أحد طلبها في هذا الحي.. أمّا عن جبّته فليس فيها مُتسع لكل هذا الحشد.. أمّا عن أعضائه فلا أحد يتحمّل قصّها ثانية على رؤوس الملأ.. فما ينقصنا ليس الكتاب ولا الجمعيات ولا قينات العرب.. بل خبز لبطنٍ وشغل لابنٍ وحاسوب لطفلٍ وجدران تحضننا قبل أن يحتضننا القبر»..

فزعت الشاحنات من هذا اللغط وشرَعَت في إفراغ الحمولة

على الأرض.. وتطايرت أوراق الكتب تنتثر هنا وهناك.. ووقف الحشد ينظر في عجب.. بينما سارع الأطفال إلى جمع ما تيسَّر من الورق واختلفوا حول مدى صلاحيتها ومدى صلوحيتها.. فبعضهم عاد إلى الحي يصنع صواريخ ورقية ويلهو بها مع الريح.. وآخر جمّعها وخبّأها قد تصلح يومًا لتحميه من العين والسحر والقرّ.. وآخر خطرت بباله أن يزرع أوراق الهوية ودساتير الحرية والجمعيات المدنية بالحقل.. علّها تصير زهورًا ويكثر العشب للدّواب والأغنام والإبل.. فيشبع الجياع.. وتبرأ الأوجاع ويزهر الإكليل بالجبل..

اللهمّ ارحمنا من عذاب السياسة ومن شرّ الصحافة ومن سخط الخصاصة وقِنا شرّ الاعتصامات والثورات الآتيات وخفّف عنّا وزر الكمبيالات وثقل الفاتورات.. آمين على كل التونسيين..

جنّ الليل ثانية على المدينة.. والحلم متواصل.. هيّا استعدّي حبيبتي.. هذا ليل استثنائي في حياتك يا شهرزاد.. سيوزّع المجلس فيه الحقائب على النساء والرجال بالمناصفة وعلى سنّة الديمقراطية والذاكرة العربية واحترام حقوق الإنسان.. جمّعت ما تبقى فيها من المهارات البلاغية ومن الحذلقة القصصية.. وتسرولت وتعطّرت.. وغمزت بعينها الكحيلة حارس الأحلام.. ووعدته بليلة أخرى.. طلب أن تفي بوعدها هذه المرّة.. همست في سخرية: «يا له من أحمق.. هل ثمّة أحلام حقيقية؟ وهل تفي الأحلام بوعودها؟..» ردّ زعفران: «لا يهمّ.. علينا خداعه إلى آخر رمق من الحكاية»..

وصلت إلى المجلس متأخرة.. وزّعوا كل الحقائب على

الرجال.. وكاد المجلس ينفضّ.. صاحت بهم «مهلًا.. يا شهريار الديمقراطية والحداثة السياسية.. أين حقيبتي؟..» ردّ عليها: «أمرنا لك بحقيبة النساء.. وإن شئت خذي أيضًا حقيبة البيئة للأعشاب الطبيعية حفظًا للتوابل الغذائية وللغازات الصحيّة»..

وجاؤوا إليها بالحقيبة.. تسلّمتها بأيادي مرتعشة لا تدري ما الذي ستصنع بها لوحدها.. وهل ستكفي حقيبة واحدة لكل النساء.. لم تكن تدري ما الذي بداخلها.. ولمّا فتحتها وجدتها مكتظة بالعرعار والإكليل وأوراق الحلفاء وخضر عديدة المنافع وفواكه من كل الأنواع. علمت حينها أنّها لم تغنَم من الديمقراطية ومن حق المناصفة ومن تصويتها الدائم لأحزاب الكتلة ومن عدائها للمعارضة إلّا بجنس النبات تسقيه ليلًا وتشمّه صباحًا وتطبخه عند الغداء.. صاحت كل النساء برئيس المجلس «سيدي ومولاي، هل حقيبة واحدة تكفي؟ وكيف ستتَّسع واحدة فقط لكل أغراضنا المنزلية والمهنية.. وأين ستضع كل منّا المساحيق التجميلية.. وأقلامهن كثيرة نساء اليوم يا سيدي من قلم الرصاص إلى قلم العيون إلى قلم الشفاه.. إلى قلم الحبر.. ودفتر الشيكات ودفتر الفاتورات.. ومكان حصن الحصين وكتاب الدعوات وسجادة الصلاة وقلادة السبحانيات.. أليس من الظلم ألّا نغنم إلّا بحقيبة حفظ النبات بالرغم من كثرة أصواتنا ومن سلاطة ألسنتنا ومن مكر النساء ومن تحصيننا لرجالنا ولأولادنا ومن لزومنا البيوت وقت طيش الرجال في الحانات والزيجات العرفيات والعشيقات والقينات..؟».

صاح الرئيس: «عفوًا سيدتي.. بل أمرنا لكنّ بوزارة النساء حتى تجدن متَّسعًا لكل أغراضكن السرية والعمومية والمدنية.. فلا تكثري من الهذر.. لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة..».

صاحت به شهرزاد: «ألم تعلم يا سيدي أنّ الملوك كلّما دخلوا مدينة خرّبوها.. أمّا عن وزارة النساء فهي حقٌّ لنا إلهيٌّ مقدّس ولا قدرة للرجال على تدبيرها اللهم إلّا مَن غيّر جنسه واختار المحايدة البيولوجية على الفحولة العربية.. وقد خصصناها لحفظ ملابسنا الداخلية عن عيون الرجال المتطفلين النهمين على فتح حقائبنا السرية.. وهي حقيبة لا تكفي أرهاط النساء التونسيات.. فهل ستتَّسع حقيبة واحدة للنساء السافرات والمحجبات والمنقبات؟.. والنساء المستبلهات والمخلصات وناقصات العقل.. والخجولات والمستقلات والمحكومات بلزوم البيت.. هل ستصل إليهن أخبار الحقيبة.. والفلاحات الكادحات.. والعاملات اليوميات.. والمضروبات والمجلودات.. هل ستتسع لدموعهن..؟؟ حقيبة واحدة للنساء وأخرى لرعاية حقوق النبات.. والبنات المغتصبات والملعونات والعازبات والعانسات والمتشردات والعشيقات والمتزوجات النهاريات.. والجائعات اللاتي تأكلن من ثديهنّ.. هل ستشملهن رعاية الوزارات والحقيبات..؟» وأخذت في الدعاء:

«اللهمّ اجعل هذا الكلام دعاء مقبولًا واحفظه لفظًا يتلو بعضه بعضًا.. واحفظ النساء من اللغط والنقص واللوثات القبيحة والحقيبة المريبة.. وسامح الله رجال السياسة ولغة الضاد ذات النميمة وذات الشكيمة وذات الهُمزة اللُّمزة..

واكفنا شرّ امرأة جزوع هلعة تكدّر العطاء وتؤخّر العشاء وتمنع الماعون.. ولا خشية على الوزارة من امرأة ثابتة القلب قوية اللسان شديدة العزم.. مع بحح جميل ولثغة حلوة في صوتها... آمين.. فإنّ كيدهن عظيمٌ..».

جذبها إليه وجرّها في حركة انفعالية خارج المجلس.. توجّها معًا إلى المدينة.. سارا طويلًا في صمت عميق.. كانا يتأرجحان بين الأحلام والكوابيس.. ولفّهما الضباب وتزاحمت الكوابيس عليهما في كرّة واحدة.. واكتظّت مساحة الحلم بأرهاط من البشر أشبه بالجنّ.. بأشباح مختلفة الألوان والأطياف والروائح.. من أين جاؤوا دفعة واحدة؟ وإلى أين يذهبون؟ وأيّ قصة ستّتسع لهذا العدد المهول؟ من أين سيأكل هؤلاء المتسولون؟ وأين كانوا يختبأون طيلة هذي السنين؟ آه يا كواليس المدينة.. كم من دهاليز بؤس.. وكم من سراديب تعاسة جمّعت في شرايينك؟.

فزعت شهرزاد من هذا المشهد الفظيع.. يتراصون على أرصفة الشوارع وأياديهم ممدودة.. وأجسامهم مغلولة جوعًا إلى الحياة.. اندفعت نحوهم تسألهم:

أيّها المتسوّل على أرصفة المدينة.. مَن أنت؟ متسوّل كاذب لا ينطلي مكرك على أذكياء البلاد الذين يتجاهلونك بضعف البخلاء؟ أم أنت متسوّل حقيقي تشهر بؤسك في وجوه مارّة أثقلتها الديون البنكية وجحود الزوجات؟ احسم أمرك جيدًا إن كنت من الذكور أم من الإناث.. عليك أن تختار شكل لحيتك الجمالية إن كانت تروق لك الماركسية الغربية أو السلفية الشرقية.. وإن كنت أنثى، عليك أن تتثبت من شكل

اللباس الذي يروق لك.. فتكونين من أهل النقاب أو من أهل الحجاب.. أو كوني سافرة أو حتى من روّاد المواخير السرية والعلنية.. وإن كنت عزباء فلكِ في إيقاف السيارات الخليجية والليبية مآرب إنسانية.. أيّها المتسوّل.. هل أنت من العلمانيين فنكفّرك ونجعلك في زمرة الفنانين والمبدعين والشعراء يتبعهم الغاوون في تونس يهيمون.. وفي كل واد بنو سعد.. هل سمعت بالثورة التونسية؟ كم عدد شهدائها؟ واحذر من نسيان أسمائهم مثلما يفعل نوّابنا في مجالسنا التأسيسية للعدالة الانتقالية.. ماذا غنمت من ثورتنا الفتية ومن الديمقراطية الوقتية؟.. أيّها المتسوّل ليست هذه أسئلتك الشخصية.. واصل فنّك الخاص للسؤال.. فأنت آخر من بقي متسائلًا بعد الحملة الانتخابية وتأجيل الخصم من الشهرية.. أيّها المتسوّل.. لست شهيدًا ليُتلى اسمك وموتك وصورتك على الفضائية.. ولست جريحًا حتّى تنطلق أشغال حكومتنا بصرف ما تبقّى لك من ثمن العضو المبتور أو المجروح أو المشوّه اعتباطًا برصاص لن يُحاسَب عليه لا القنّاص ولا وزير الداخلية.. ولست من القطيع حتى تنتصر في الديمقراطية.. مَن أنت.. أيّها السائل لُقمة العيش اليومية.. هل أنت ضحية أم ابتلاك الله بالبلية؟ أيّها المتسوّل مهما كانت الصلاحيات لرئيس الجمهورية تدثّر جيّدًا ببؤسك.. فأنت لست على قائمة الملفات الحالية.. تدثّر جيّدًا ببعض الصدقات العابرة.. وادعُ الله.. إن كان لك ربًّا يحميك.. فليتجلّى.. أيها المتسوّل على من تقرأ سؤالك.. وعلى مَن تبسط يدك.. وعلى مَن تنشر دعواتك.. لا أحد يسمعك.. وفي قلبك مائة قصة.. فأين الروائيون في هذا البلد

الأمين.. وفي يدك أدران دنيا هزيلة وفي عينيك دمع حسير.. وفقر الدم في عروقك يجري.. حتى دماؤنا فقيرة.. أيها الفقر كم أنت منتظم في هذه الديار.. كم أنت حريص على السكن في هذه المدينة.. وتجلّى كابوسك فجأة.. وكانت شاشتنا الحالية تخفي وجهك بالمساحيق البنفسجية.. اكسروا هذي المرايا الزجاجية أيّها المتحذلقون في ثياب الحرية..» وقال الثوري في الإمتاع والمؤانسة لمن يحمل اسم التوحيد نفسه «نعوذ بالله من فتنة العالم الفاجر وفتنة القائد الجاهل» وقال النبي ﷺ: «سيكون في أمّتي علماء فسّاق وقرّاء جهّال».. أيّهما أنت أيّها المتسوّل الحاذق في تقوى السؤال؟ لست بالقارئ، بل أنتَ الكاتب لتاريخ الرصيف وكل الكواليس الخفية... لستَ عضوًا في الجمعية لكنك تحمل وجه المدينة بأياديك السحرية.. أيّها المتسوّل عُد إلى ربّك.. إن كنت تراه في قلبك.. ورتّل عليهم «ألم يجدك يتيمًا فآوى.. وعائلًا فأغنى».. وستصرف لك حكومتنا الموقّرة شهرية.. فتصير قادرًا على الحلم.. وإن خابَ أملك في العدالة الانتقالية.. فالعن هذا الزمان واتَّخذ لنفسك مكانًا قصيًّا في الصحراء الغربية...

حاوَلَ قدر جهده أن يلجمها عن الكلام.. لكنّها استعصت عليه كدابّة وحشية في الظلام.. خاف من صوتها.. اكتفى بالصمت اتّقاءً لشرّ كوابيس الأحلام..

كان يغطّ في نوم عميق.. وكانت تعاني من أرق فظيع.. غادرت الفراش واتَّجهت نحو النافذة.. ضجيج وأصوات وأقدام تدكّ الأرض دكًّا.. ما الذي يحدث هذه الليلة.. أحسّت بوجع في السبّابة اليُسرى.. حدّقت بأصابعها جيّدًا.. ورم خبيث

لاحَ لها فجأة بإحدى أصابعها.. شيء ما سيحدث في سراديب شهرزاد.. ماذا فعلت أيّتها السبّابة اللعينة في غفلة منّي؟.

أجابت: «إنّها الانتخابات يا شهرزاد.. لمن ستصوتين الليلة؟ وأيّ شهريار سيعجبك؟.. واسترسلت السبّابة في الكلام.. لم يكن بإمكانها أن تدوّن كل شيء..

أيّها البشري العربي.. هذه ليلة استثنائية في حياتك.. لقد انتقلت أعضاؤك انتخابيًّا. تريّث قليلًا قبل أن تضع قدميك في نعليك ولا تستعجل على غسل وجهك ولا على حكّ أذنيك ودع أمعاءك خاوية ولا تتبرّع بأيٍّ نقطة من دمائك. هذه المتاهة صمّمتها بنفسك.. احلم قدر المستطاع. لا تلوي شدقيك يا ابن أمّي، و ابتلع ريقك جيّدًا قبل أن تنبس ببنت شفة. دعْكَ من أيّ لبُوس.. لا تغضب ولا تضحك ولا تفرح ولا تحزن ولا تيأس ولا تحلم ولا تشتم ولا تمدح. متشائل أنت مزبهلّ مصفهرّ مكفهرّ مثلما شئت. قليل من العطالة في عواطفك مندوب إليها ومباحة.. وتدريجيًّا سوف تُدرك مَن فيك سبَقك إلى الديمقراطية ومَن فيك سبق صوتك إليك.. دماغك أم قلبك أم أقدامك أم سبّابتك اليُسرى. ثبّت خُطاك جيّدًا وتدرّب قليلًا على الصمت. حذار من طغيان اللسان ومن الهذر سوف تنفضّ أعضاؤك من حولك. لا يجوز لك أن تكون جزئيًّا في أخطائك ولا أن تصيب نصف الحقّ وبين هذا وذاك أنت شعبي وأنت حطبي.. ليتني كنت حطّابًا لكنت أضرمت نارًا في الأبجديّة، لكن كبش العيد أقرب إلى معدتي من حروف انهزمت في الصناديق..

مَن مِن أعضائك توكّل بالديمقراطية؟ احسم أمرك.. اليوم

أمر وغدًا لهب وعروس في الطريق إليك.. وأنت الشقيّ وأنت خمّارة البلد وأنت الرسم والرسّام، وسارق اللوحة نسيَت اسمه العدالة الانتقالية.. احسم أمر اسمك وهويتك.. إن كنت ذاتًا بلا صفات أو كنت شعبًا أو كنت دهرًا أو كنتَ مواطنًا كونيًّا أم أنت رعاع وقطعان بلا شهرية.. أو أنت جموع أو حشود تائهة هائمة في صحراء العرب.. يا ابن العرب يا بعضًا من دمائي وبعضًا من حرفي وبقية من الجروح الأبية.. يا أكثر من رهط ومن قلب ومن شعب.. كم أنت غِرّ. كم أنت شهم. كم أنت رائع ومريع في أخطائك وأوهامك وأشواكك.. كم أنت بديع في حرفك وجرحك وجوعك وحمقك ومكرك وخوفك وكفرك وعقلك ورقصك.. احسم اسمك.. ما همّني إن كنت كل شيء أو كنت لا شيء غير خبز وماء وعاصفة قادمة.. فكبش العيد يناديك ويثغو ههنا.. اصقل سكاكينك جيّدًا..

وإيّاك أن تخطئ الضحية.. ربّما ننحر أكباشنا أو ننحر أبناءنا.. من يدري من ذبحنا هذا العيد؟.

من هنا نبدأ.. من الأقدام المُتعبة بالسير طويلًا.. أنهكتها الثنايا وتقطّعت بها السبل. لا شيء قَدِم من فرط الركل غير الصناديق. من «هنا فهابطًا» ننحدر إلى التاريخ من فوهته الواسعة. لا أحد يدري أيّ شكل هندسي رسمناه بالسبّابة اليسرى وربّما رسمنا بأنفسنا دائرة مُربّعة مَن دخلها لن يخرج منها إلّا «خطًّا منحرفًا». كلّنا في خندق واحد وهو عرسنا جميعًا، لكنّ العريس لم يلتحق بعدُ بالحفل. انتصرنا وانهزمنا واستوت الأرض مرّة أخرى على يدينا. ما أروعنا وما أفظع

يُتمنا وما أجمل حُمق العقل في بلادنا.. وحتّى مَن غَنِم منّا مقعدًا في المجلس التأسيسي فهو مضطرّ للجلوس ولطيّ قامته مهما تطاولت في البنيان كي تكون متلائمة مع قِصَر قامة الكراسي وكسلها وقعودها وماضيها الأسود الملطّخ بأشباح الدكتاتورية البائدة. غسّلوا هذي الكراسي قبل إتيانها أنّى شئتم. كراسيكم حرْث لكم. ليس على المؤمن حرج أمّا «الكافر» فقد خرج منها قبل الفرز.

قالت الأقدام الواقفة من الصبح «أنا مَن صنع لهذه الأجسام هذا العصر. لقد وقفت يومًا كاملًا والتصق جلدي بجلد نعلي فصرت طورًا جلد ثورٍ وأطوارًا جلدًا للبراغيث وفي أغلب المرّات كنت مضطرًّا إلى الالتحام بجلود الخنازير.. أنا رئيسة المجلس التأسيسي فأنا من تحمّلت هذه الأجسام بثقلها وهزالها وروائحها وفقرها الدموي.. بعجائنها وغازاتها.. أنا رئيسة البلد بصفتي الجماعية كأنثى وباسم حقّ التناصف الذي لم يكن منصفًا وباسم حق التعدُّد في الأزواج والزوجات».. قاطعتها الأمعاء ضاحكة «بل أنا رئيسة كل الأعضاء الجسمانية والسياسية فأنا مَن مَوَّل هذه الأجسام بالطاقة الشمسية وبالقهوة السوداء العربية. فمن دون بطونكم ومصارينكم الوسطى هل من حاجة إلى ما يبرر سوراتكم وإلى ما يواري سوءاتكم الانتخابية؟ ومن دون أحشائكم الأمامية كيف ستهضمون هزائمكم وأخطاءكم الخلفية؟» قاطعتها المرارة في غضب «كفاكِ استبلاهًا للأعضاء الشعبية، بل أنا رئيستكم جميعًا.. من دوني ما كانت معدتكم قادرة على إخفاء ما ابتلعتم من طعون وخروق وسرقات انتخابية». وأمام الجميع وفي كامل الشفافية

صمَتَ القلب وامتنع إراديًّا عن الكلام لأنّه اكتشف بشكل متأخّر جدًّا أنّ موقعه في الجهة اليُسرى من الجسم الديمقراطي سيّئ التوقيت تمامًا وأنّ عليه أن يتعلّم كيف يصمت بما يكفي قبل أن ينزف ثانية بما يُرضي.. أمّا الدماغ فقرّر أن يتوقف عن العمل لأنّه لم يكن مدعوًّا أصلًا إلى هذا الزمن وسجّل في دفاتره السرية ما يلي «لن أعود إلى هذا الخندق قبل أن أخترع لنفسي شعبًا آخرًا يؤمن بي».. لا أحد تساءل عن غيابه عن الحفل.. وواصل جميع الأعضاء توزيع الحقائب.. غير أنّ عُضوًا واحدًا ضحك من هذا الركح وكان يغمز هُزُوًّا من وراء الكواليس قائلًا «ما هذا إلّا مسرحٌ للدمى.. حرّكته السبّابة اليُسرى»، لكنّ السبّابة اليُسرى أتلفت الحبر والورق وهربت بالفأس وبالحطب...

بأيِّ حبرٍ ستكتبين يا شهرزاد.. لعن الله السبّابة اليُسرى.. سوف تُخرجُنا من هذا الحلم الذي جمّعنا في حركة ساحرة.. تمسّكي جيّدًا يا ياسمين ابحثي لنا في أسرع وقت عن حبر جديد..».

أجابت: «لا حرج عليك يا زعفران.. سوف أكتب بعطر شهرزاد هذه المرّة.. وسوف أظلّ أغري حارس الأحلام بقلمي المتوهّج.. لا أحد يقدر على ختان قصتي».

... واشتدّ الليل بالمدينة مرّة أخرى.. ونعقت غربان الشرق من كل صوب وحدب وتجمّعت بومات المارد الأسود في قلب السَّماء وزغردت فيها الخفافيش ورقصت آخر العفاريت وانهمرت الجحافل بأردية وألوية وأُضحية وعور

وعورات وناقصين عقل وزائدين فقر.. امتلأت الساحات حتّى غصّ المكان وشرّق الزمان.. وفي وسط الركح جلست شهرزاد على قلق ترمق حروف الحكاية بعين العجب والفزع.. لكن الجمع الغفير استاء من الصمت فنطق المارد الأسود في حنق: «ويحك أيّتها المرأة العنيدة.. لماذا تصمتين والركب مكتمل والركح مزدحم وكواكب الأسنّة والرماح وبريق الصفاح في عطش إلى دماء الإناث.. إلينا بالحكاية وإلّا لعنتك الملائكة إلى الصباح».

لملمت شهرزاد فتنتها وحنّاها وعطرها، وضربت بخمارها على وجهها، وقالت «ومن أين جمّعتم كلَّ هذا العدد من العفاريت وأنا التي كنت أحسب أنّي طردتهم من الحكاية وطعنتهم بحدّ القلم وسمّمتهم بالحبر.. وكلّما جاؤوا إلى دهر فرقعوه وإلى عقل وحقّ فقبّحوه وإلى قصّة فعقروها وإلى أدب فأهدروه..»؟.

صاح بها المارد الأسود وقد فرغ صبره: «افتحي الكتاب واقرئي يا داهية الدهر ولا تسألي فالسؤال طاعون للنفس وهذر النسوان وباء للبدن.. ومن كثر سؤاله قلّ حياؤه ومات قلبه».

فتحت شهرزاد ديوان الحكايا، لكنّها لم تعرف كيف تقرأ البداية ولا النهاية.. حملقَت عميقًا في ظاهر اللفظ فقلّبته على كلِّ جوانبه، لكن الحروف أحجمت عن النطق.. أُصيبت شهرزاد بالذهول والفزع.. ما بال حروفي عصيّة عنّي؟ تُراها تحتجّ على الجَلد والضرب الذي لحقها من طغيان هذا الزمن؟ أم تُراها تعبت من الحكي؟ أو سئمت من الانتماء إلى لغة

العرب؟ أم تراها تخجل من صوتي؟ احتارت شهرزاد من الأمر ففزعت إلى سيبويه تسأله «أن افتني في حديث الحرف.. فأنتَ أدرى بمكر هذه اللغة» أصيب عالم العرب بالعجب فهو للمرّة الأولى في حياته وفي مماته الطويل الأمد يُسأل عن ثورة الحرف؟ وكيف للحروف أن تعصي أمر خالقها ومولاها وسيّد النعم؟ وحينما عجز عن الحلّ فزع إلى فطاحل النحو والشعر والأدب.. وجيء بالأخطل والحطيئة وبشّار والمتنبي وابن الورد والسيرافي ومسكويه والجاحظ والتوحيدي ووقفت الخنساء في آخر الصفّ.. لا أحد من رجال العرب فَهِم قُعود الحروف وامتناعها عن اللفظ.. وضحكت الخنساء من وراء الحجب ضاربة بردائها الأسود على الكتب.. وقالت في كبرياء المحصّنات العالمات بمكر الدهر: «ويحكم يا علماء العرب.. ما الذي أصابكم بالجحود والحمق؟ وكيف جيء بكم إلى عصر دثور الأدب وبوار العلم والإعراض عن الحقّ؟ ما الذي أخرس حروفكم عن النطق؟ ألا ترون أنّ تاء التأنيث قد حُذفت من المعجم؟ أم تُراكم أُصبتم بعماء هذا العصر؟» .. حينها فهمت شهرزاد أنّ العفاريت قد سرقوا تاء التأنيث من اللغة ووأدوها في لبّ البحر.. فصاحت بالمارد الأسود «يا لك من أحمق يا بطل قصّتي.. كيف أحكي دون أن أنطق بالوردة والقُبلة وكيف أحكيك عن النساء العورات والناقصات والمتبرّجات والسافرات.. والمحصّنات.. والعالمات والماكرات وساحرات الملك؟ أعيدوا إلينا تاء التأنيث قبل أن تتحوّل الوردة إلى قنبلة والمدينة إلى مزبلة» وواصلت حروف الضاد اعتصامها أمام المكتبة تحتجّ على منع تاء التأنيث من الاختلاط.

ضاعت تاء التأنيث.. فزعت كل ذكور المدينة.. كيف سيتدبرون أمر نساءهم؟.

ضحكت شهرزاد ملء شدقيها.. كانت تخبّئ في قلبها ألف تاء وألف أنثى.. هرع إليها كلّ الرجال من الحالمين والمهووسين والمدمنين طالبين إحدى التاءات لقضاء حاجاتهم اليومية.. قالت «استعينوا على نسائكم بالصمت أو بالسوط.. لا حاجة لكم بلغة الضاد.. هذه التاء مضرّة بالأمّة خطيرة على أهل الذمّة.. كم ألّبت عليكم من السافرات.. اهجروهنّ في النحو.. ستأتين إليكم ساجدات مطيعات..»؟.

استبشر الذكور بما سمعوه.. وراح كل منهم إلى نساءه في خيلاء وعربدة جاهلية.. أمّا شهرزاد فكانت تحضّر لمكيدة إضافية..

مدّ يده يبحث عنها.. كان مكانها فارغًا.. قفز من فراشه في فزع.. أين أنت يا ياسمين؟ هرعت إليه مسرعة.. وهمست في حذر: «اخفض صوتك يا زعفران.. لقد أعجبني هذا الحلم.. ما زال لديّ معارك كثيرة ونصوص في الطريق إلى الحكاية.. لا تستعجل على النهاية..».

أجابها «ومِن أين تلدين كل هذي الحكايا يا شهرزاد؟ كل سكّان المدينة يملكون حروف الضاد.. أمّا أنت فتصنعين منها نوعًا آخر من البشريين.. هُم يتكلّمون اعتباطًا وسُدى.. وأنت تنسجين مدنًا جديدة...».

أجابته: «هي الكارثة يا شهريار.. أقدر على الإنجاب من كل إناث الإنس والجان..».

قاطعها على عجل: «هيّا يا شهرزاد.. لا تسكتي.. كلّ الكلام مباح.. إن انقطعت عنه سوف يمنعونا من هذا الحلم.. وسوف نسقط ثانية في حماقة المدينة التي تاهت عن سكّانها.. احكي يا حبيبتي حتى لا ينتصر علينا هؤلاء المشعوذون»....

لم تكن تعلم أنّ حلم زوجها قد سقط شهيدًا في شوارع العاصمة.. لقد ألهاها الحلم عن ابنتيها لؤلؤة وياقوتة.. تُرى هل أينعتا؟.. أم ذَبُلتا من فرط جفاف الحديقة؟...

كانت تشعر بأرق شديد.. قرّرت الذهاب إلى سوق المدينة لاقتناء بعض الحاجات النسائية الممنوعة من التصريف.. وما راعها إلّا أن وجدت سوقًا أخرى غريبة السلع والبائعين.. إنّها سوق سلفية حرّة.. مكتظّة بالذاكرة وبشخوص بعيدة..

تساءلت: «ما بالهم قد غيّروا زمان الحلم؟ هذا المكان لم يكن في الحسبان وليس من بنود العقد بيننا وبين بائع الأحلام.. ما الذي حدث؟ وأيّ عطب طرأ على هذا الركح؟ وانطلقت في الحكي في سرعة البرق.. وازدحم المكان بكائنات غريبة لم تكن من السكان الأصليين للمدينة...

سوق سلفية حرة وبرخصة شرعية تنتصب انتصابًا عشوائيًّا في قلب المدينة وتحديدًا حذو الجامع الكبير.. يحيط بها من اليمين مغازات ليبيرالية.. ومن اليسار المترو الخفيف.. ومن الأعلى مسجد رسمي موقّع من طرف دولة الاستبداد المخلوعة أملًا في استبداد قادم.. ومن الوسط أحلام الجياع والبؤساء في الأرض.. وعرضًا ديون الإمبريالية وشبح الصهيونية وقصص الإرهاب والأصوليات الدينية..

سوق للسلفيين بأسعار حرة وفي متناول كل الجياع وكلّ الرعاع وكل عباد الله الطيبين.. والذين سيَهديهم بعد حين بقدر استفحال الأزمة الاقتصادية.. سوق لبيع السلفية بأخلاق السلفيين تتموقع بين الإيمان الوهابي وتنظيم القاعدة شرقًا وبين الكفر الحداثي للمترو الخفيف وعلمانية سافرة للمواطنين القادمة ملابسهم من الإمبريالية العالمية.. والطريف اللطيف العفيف الخفيف الهزلي التراجيدي معًا، هو أنّ هذه السوق تنتصب في مفصل رئيس من مفاصل شارع الحرية.. لا أحد يدري حينئذٍ ما الذي سيحدث للحرية حينما تحتضن سوقًا سلفية مضادة لسيغنال لتنظيف الأسنان بوصفه منظِّفًا كافرًا بثوابت الأمة وخارجًا عن أئمتها الصالحين وكافرًا برائحة بخورها المبارك..

لا تندهش أيها التونسي.. تماسك جيدًا أنت الآن في قلب حياتك اليومية ومباشرة بعد ثورة عالمية هزّت عالمًا استبداديًّا وهدمت أركانه.. لكن سوقك السلفية المنتصبة في قلب شارع الحرية بإمكانها أن توفِّر لك سواكًا حارًّا لكلِّ فم أبخر وعطورًا عتيقة لا أحد يدري كم عمقها.. ولأيّ المآرب أتوا بها للتعطُّر أم للتعطّن أم لإعماء العيون عن فراغ البطون.. تخيَّل أيها التونسي كيف أصبحت بعد أن حلمت بالحرية وبالارتقاء إلى مقام العالمية.. أصبحت سلفيًّا بلا شهرية.. وأصبحت جائعًا مع الكثير من الدعوات والسبحانيات والصلوات.. وأصبحت قادرًا على أن تكون أفغانيًّا.. تخيل أنّك اقتطعت جزءًا من خريطة أفغانستان وأنّك بصدد جرّ لحية طويلة من باكستان إلى تونستان عبر الصومال وسجنانستان.. حاسب عليها وتلطّف حين تمسك بها بيدك اليسرى.. ولا تَقرَبها إلّا بعد الوضوء وقبل ركوب الحافلات

السافرات.. وحين يُغمى عليك من شدّة الخوف من عذاب القبر، سوف يمنحوك عصيرًا من حصن منيع تصير به رجلًا مساءً وعبدًا صالحًا بعد العصر ومواطنًا حرًّا كلما ركبت المترو الخفيف بعد صلاة المغرب متوجهًا إلى منبتك في إحدى جيوب الفقر.. أيها التونسي أبشر فإن سوق السلفية تحميك من الجوع بالجوع ويبيع الجياع للجياع أمّا الإمبريالية فمحصَّنة في بنوك أمنية.. لا أحد سيشتري عطرك وقميصك غير أخيك الذي دمّره البؤس والوهم والطاغوت.. أمّا من أمّه هاوية فله الشهرية والتفاح الأحمر وكل أنواع الخمور والعصور.. لا تقترب أكثر من البؤس لأنّه يحرقك ولن يضحك منك غير مترفيها والمتخمين نقدًا وعدًّا وضحكًا ولعبًا بآمال شعب طالَ انتظاره للكرامة الإنسانية..

أيها السلفي أنا لا أخشى لحيتك ولا قميصك ولا عطرك، بل أشفق عليك من وهمك... إن كنت سلفيًّا حقيقيًّا ومن غدرك إن كنت بنفسجيًّا... وأنت في كل الحالات ابن شعبي وابن فقري وسليل أرض طيبة ودماء زكية. أيّها التونسي لا تسأل من وراء هذه السوق السلفية فقد شرّع لها المجلس التأسيسي أعزّ الله أعضاءه فهو الضامن الأخير لكل ما أفرزته ثورتنا البهية المسروقة والمغدورة.. من ضياع أحلام الشهداء إلى بيع الوهم للجياع.. سوق سلفية لحلّ الأزمة الاقتصادية أم لدفع الشعب إلى الكارثة؟؟ لا أحد يدري غير رئيس الجمهورية الذي لم يتخذ بعدُ إجراءً في هذه المنطقة السلفية الحرة والكافرة بالدولة المدنية..

توجّهنا أنا وشهريار وبعض من سكان الحلم الأصليين إلى الشارع الرئيس.. الموعد نفسه والمكان نفسه بعد سنة..

وصلنا عند الساعة التاسعة تمامًا.. لكن يبدو أنّا وصلنا متأخرين كعادة العُقلاء أو كعادة المعارضة والأقليات.. وكان أسلافنا يهزون الأرض هزًّا بالأعلام السوداء والأعلام البيضاء.. انقسموا إلى لونين، لكنّ لون سمائهم واحدة.. رمادية في عمقها.. ملتحية غيومًا لم تعرف كيف تبكي.. وكثر التكبير والدعوات وأصوات اختلطت فيها أنغام الموت بأنغام الحياة بالسبحانيات.. لكن فوق أيّ أرض وقفوا يراقصون القدر هذه المرّة؟. إنّهم مرابطون على ساحة المسرح البلدي. وكثرت الأصوات واحتدّ الضجيج والزحام.. لا أحد يدري مَن كانوا على وجه الحقيقة؟ وهل جاؤوا من أجل البلاد أم من أجل الله أم من أجل الثورة أم من أجل الارتزاق؟ وهل كانوا واقفين هنا منذ سنة، يوم سقط الشهداء من أجل حياة الذين تعطّلوا عن الحياة..؟ لكنّ الغريب في هذه الحكاية هو نوعية المكان الذي يرفسونه بأقدامهم ويدهسونه بأصواتهم.. هل كان يجدر بهم التسبيح والتكبير ورفع أعلام الخلافة أمام المسرح البلدي.. مكان «ملعون مدنّس بالفن وبشياطين المسرح ومآسيه وملاهيه وأفكاره الحداثية؟» لا شيء كان يدور ببالي.. فكل الناس صاروا أحرارًا فيما يعتقدون.. لكنّي وَدَدْتُ فقط في قرارة نفسي أنّهم غيّروا من موقعهم...

ربّما كان يجدر بهم التظاهر بجانب تمثال ابن خلدون.. لكنّه كان سيرفض اقتحام ساحته وتشويش صفاء علم التاريخ الذي هو بصدد استكمال مقدمته.. أو كان يجدر بهم الوقوف في ساحة الساعة الكبيرة التي تحسب الوقت المهدور والزمن الضائع.. لكنّ الحسّ التاريخي ليس من عاداتهم.. ففكَّرت أن

يتوجّهوا إلى ساحة نزل أفريكا.. لكن ذاك المكان «موبوء بالخمرة والفرنكفونية والبلاد الغربية وموجة التقدمية».. أشفقت عليهم من ضيق المدينة في وجوه هذه الأعلام السوداء والبيضاء الراقصة على نسائم الشارع الكبير.. وأدركت أخيرًا أنّ المكان الوحيد المناسب لهم هو ساحة المسرح البلدي وأنهم ككل مرّة لم يُخطئوا العدّ.. ذلك أنّ في الأمر نيّة حسنة من جهة هذا الطيف من أبناء الشعب في إخراج ركحيٍّ عملاق لمسرحية سياسية كوميدية تراجيدية.. أضحكت الجميع وأبكتهم في الوقت ذاته.. كوميديا إلهية تونسية هذه المرّة.. فمن أين لنا بـ«دانتي» يلبس برنوسًا وعمامة.. ويتكلم اللغات الثلاث دون أن يشكُل الحروف العربية ولا الأعجمية؟.

«مهلًا يا صاحب القلم.. سنقطف رأسك كلّما أينع...»

كانت هذه الجملة مكتوبة بالأحرف الغليظة على باب القصر.. فزعت شهرزاد من الأمر.. وأسرعت إلى شهريار تخبره بالأمر..

دخلت في هلع إلى الركح.. أصابها الذهول للتوّ لأنّها وجدته فارغًا.. لا أحد في انتظارها من الأبطال ولا من الشخوص ولا من الصامتين الذين يكمّلون زينة المشهد.. حتّى المتفرجين لم يحضروا اليوم على غير عادتهم.. لا أحد يهتم بشأنها هذا اليوم.. تُرى هل كسدت بضاعتها؟ أم هل سئم الناس من عادة الحكي؟ أم تراهم ملّوا من غطرسة شهريار ومن حمقه ومن أمزجته المتقلبة إزاء شهرزاد المخضّبة بالحنّاء وبالمسك وبزينة زبيدة وأسماء وحسناء وعائشة وخديجة وبنت جحش.. وكل جميلات العرب الذين لم تعد تذكرهم من فرط إدمانها على الحكي وعلى الخصي...

صاحت بجاريتها. أسرعي إليّ.. فالأمر جلل.. يا دعوب.. اذهبي وأدركي علّة هذا الخطب؟ هل هجرني عشّاق اللغة أم هي مكيدة من خنساء البكاء والدهاء الشعري..؟ وانطلقت دعوب نحو البلاط تسأل سيّدها عن سبب تأخر حلول ركب القصص.. فوجدته مقيّدًا بالأغلال والجند حواليه يمنعون زيارته.. فزعت من هذا الأمر.. وعادت تجري إلى شهرزاد.. ولمّا قصّت عليها ما رأت.. فهمت شهرزاد أنّ فنّ الأدب في خطر.. بدّلت وجهتها نحو مكان آخر..

دخلت مدينة اكتظَّ فيها الناس في شكل هندسة حمقاء.. اقتربت من الحشد.. ومن بعيد لمحت وجه الحجّاج يخطب بأعلى صوته: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته.. يا أهل قرطاج يا أهل التين والزيتون.. سوف نصدِّر تموركم وخموركم وخيولكم.. سوف نبيع قصوركم.. حتى نطعم الجياع ونشغل العاطلين عن العمل.. أمّا مَن آمن بنا فلَهُ في حكومتنا وزارة هبة له مقابل أيام السجن التي قضاها في عهد الاستبداد.. أمّا مَن كان مسافرًا فأمّه هاوية وما أدراك ما هي.. رئاسة حامية.. مقابل هجرته ومقابل طلاقه للنساء الغربيات ومقابل زواجه من التونسيات.. أمّا مَن كفر بحزبنا وكانت موازينه مثقلة باليسار والحداثة والموسيقى الغربية الصاخبة.. فلن يُحشَر مع أعضاء المجلس التأسيسي ولن ينال في حكومتنا أيّ مقعد حتّى مقاعد المحطة ممنوعة عليه..» قاطعته شهرزاد بصوت جهوريّ جمهوري حداثي: «وما فتواك يا سيّدي في أهل الأدب وأصحاب القلم..؟» صاح بها الحجّاج: «هؤلاء سنقطف رؤوسهم كلما أينعت» صاحت هلعة: «لبيّك سيّدي.. ومَن مِن

أصحاب القلم لن يُقطف رأسه».. أجابها: «كل مَن كان مطيعًا.. وكل مَن أكثر من ذكر الله.. ومن قراءة كتابه المقدَّس.. أمّا مَن أراد كتابة كتابه بنفسه فنأتيك برأسه»..

غادرت الركح في صمت.. قالت في نفسها: «إلى أين يدفعون بهذا الشعب؟ إلى الحمق.. إلى الجنون.. إلى ذاكرة الطغيان والظلم؟ سامح الله الحكاية.. تنظر بعيدًا فيما وراء الرواية.. وتدفع بالكتابة إلى الاستباق على النهاية.. نهاية التاريخ والجغرافيا والهندسة والفنون.. نهاية عهد الرقص.

لكن لا خير في نهار بلا رقص..



حفل خليـع...

وانفتح باب الزنزانة بحركة عصبية متوترة.. كان أشبه بزبانية جهنّم.. أسود الوجه.. غليظ الشفاه.. منتفخ العينين.. قامته في طول جدار السجن المحفوف بالزجاج المتكسّر على أفواه المخمورين والملعونين والمشرّدين. هو أشهر سجّان هنا متحصِّل على شهادات في الكفاءة العالية في القمع والتعذيب وفي اقتلاع الاعترافات من قلوب الرجال.. لا أحد استعصى عليه غير سكّان الزنزانة رقم سبعة.. جاء هذا الصباح وفي قلبه المغلول بالحقد أمنية وحيدة.. أن ينتصر على هذين السجينين بكلّ الوسائل.. سوف يغنم من وراء هزيمتهما لقب مدير عام لهذا السجن.. وبات يعدّ غنائمه.. سيّارة خاصّة مدفوعة البنزين.. منحة سكن إضافية.. مشروع زواج وأبناء والكثير من اللحوم المشوية.. عليه أن يركّع هذين السجينين بالذات حتّى يغنم من ذلك حياة يومية.. كم حَلُم بهذا الوعد وبهذا اليوم المستحيل.. فهو لم يعرف أبدًا طعم العائلة والأب والأمّ.. ولا يدري أيّ رحم قذف به قذفًا اعتباطيًّا إلى هذا العالم.. كل الناس هنا تكرهه لأن لا أحد منهم يُدرك ما معنى أن يكون الإنسان لقيطًا.. جيء به إلى الحياة على سبيل الخطأ ورموا به في هذا السجن في رتبة سجّان على سبيل العبث.. وأقسم أن

يكون سجّانًا حقيقيًّا على سبيل الثأر.. ووعدوه بحياة يومية لو نجح في الثأر لهم من هذين السجينين العابثين بمكر الطغيان في هذا البلد.. لا أحد يدرك أيّ معنى لأن يكون وجودك خطأ فادحًا في حقّ الحياة وفي خطأ الحبّ الفاشل وفي حقّ الشرف.. فاستعملته الدولة خطأ كاملًا لارتكاب مزيد من الأخطاء ولمعالجة الأخطاء بالأخطاء..

يتوجّه رأسًا إلى السجين الأوّل.. الذي كان يحتلّ الفراش السفلي.. من أيّ طينة صُنع هذا الشيء الممدّد على هذا السرير؟ لا أظنّ أنّ له قلبًا واحدًا وعقلًا واحدًا وجسدًا واحدًا.. فكلّما انتصرتُ فيه على جسد قام لي جسده الآخر صامدًا صلدًا كجلمود صخر.. لا أظنّ أنّ أمّه ضاجعت أباه لليلة واحدة كي ينبت في أرحامها.. ولا أظنّ أنّه وُلد في كرّة واحدة..

ناداه بصوته المتعجرف: «هيّا أيّها الملعون.. أفِقْ من نومك.. هذا اليوم ليس يومك، بل هو يومي أنا.. سوف أجعل منك سجينًا حقيقيًّا وسوف تجعل منّي بشرًا عاديًّا له الحقّ في حياة يومية كبقية الحمقى..».

رمقه بنظرة باردة.. بدا هذا السجّان المغفّل واثقًا من نفسه أكثر من اللازم... ويحه منه.. فهو لا يدرك عمق العدم الساكن في قلب همّام.. لقد استوت عنده كل الوضعيات.. السجن والمدينة.. النوم والموت.. السجّان والجدار.. الجلوس والوقوف قسرًا كامل اليوم.. مشدودًا إلى وثاق من حديد. التفت عنه صوب الحائط الباهت المبصوق عليه ألف

مرّة.. وتظاهر بأنّه لم يسمع أيّ شيء.. أن يسمع وأن يرى وأن يشمّ.. استوت وامتزجت وسقطت كل الحواسّ في قُمامة لا فرق فيها بين الناتن والمعطر.. والمأكولات وأحشاء الموتى..

كم أنت بائس.. أيّتها الروح اللقيطة.. لماذا تبحث عن حياة يومية؟ لماذا تتلهّف على أن تكون مثل البشر؟ لماذا تريد الخروج من هذا السجن إلى سجن أمَرّ؟ احترس من أحلامك.. قد تكون بصدد الذهاب إلى حتفك.. فكلّ من يصدّق كذبة الحياة اليومية ويسعى إلى أن يكون ابنًا وفيًّا للمدينة قابلًا للرفس والدهس والتحديق بالجدران والصمت لأيّام طويلة..

كان السجين رقم 2 نائمًا.. أو هو بالأحرى فاقدًا لوعيه.. لا ينام إلّا مَن يحقّ له أن يسهر وأن يتفرّج على آخر الأخبار وآخر الأفلام.. ولا ينام إلّا مَن تعشّى ومَن غادر البيت طول النهار.. ولا ينام إلّا مَن غلبه النعاس ودغدغته الأحلام.. أمّا بين جدران السجون فلا نوم، بل غثيان ودوار وفقدان للوعي.. وموت بطيء.. لا ينام إلّا مَن كان يفصل بين الليل والنهار.. أمّا السجناء فلا يملكون لا الليل ولا النهار.. وفي كل الحالات فالنوم والموت شيء واحد.. لا فاصل بينهما إلّا لمن لهم حياة.. أمّا هؤلاء فلهم السجن والجدار والصمت والجلّادين وكرسي الكهرباء.. وبوليس يصلح لاغتصاب الرجال..

كان ملقيًّا على سرير من حديد.. وهو سرير لا يسرّ بغير الفظاعات والعذابات وأرشيف مَن لعَنتهم الأقدار.. سرير حديديٌّ قاسي المعدن لا قلب له غير الصدأ الأحمر ولا حبيب غير حشايا رثّة هشّة منهوكة القُوى من كثرة الأبدان التي

تداولت عليها كمن يتداول على جسد عاهرة.. لم يقدر على فتح عينيه من شدّة التعذيب الذي تعرّض له فجر هذا اليوم.. والأكثر أنّه لا يريد أن يفتح عينيه أصلًا.. أن يتظاهر بالنوم أو بحالات الإغماء ضرب من الموت الإرادي الذي أصبح يتقنه كتقنية صمود في وجه الجلّاد.. وحدهم مَن لهم عالم في انتظارهم يرغبون في فتح أعينهم كلّ صباح.. لأنّ لهم صباحًا.. أمّا هو فهو تحت السياط منذ صلاة الفجر.. فأيّ مُتعة من وراء فتح عينيه.. بل لأيّ شيء تصلح هاتان العينان.. لمن ستحدّق؟ وأيّ الوجوه ستستقبلها؟.

تذكّر همّام اليوم الأوّل الذي أتوا فيه بغريب إلى زنزانته.. كان يوم جمعة.. قبضوا عليه متلبّسًا بالكفر ببعض ثوابت الشريعة الإسلامية.. كان بصدد إلقاء خطبته بأحد مساجد العاصمة.. وفجأة زلّ لسانه بكلمة حرّمتها الإمارة السلفية.. كان يتحدّث عن الدولة المدنية يعرّف بها إلى المصلّين في نحوٍ من الكرم التثقيفي الذي عُرف به في أوساط الإسلاميين من حزبه.. وانهال عليه البوليس الحنبليّ وزجّوا به في السجن دون محاكمته.. فقد أغلقوا كلَّ المحاكم المدنية وصاروا يحكمون على الفور على كلِّ مذنب في حقّ الأمّة..

يومها قضّى يومًا كاملًا نائمًا... سئم همّام من صمت الجدران وأشفق على زميله الجديد.. فقرّر أن يفتح معه مشروع صداقة رغم ما كان يفصل بينهما من مسافات سياسية.. جلس إلى جانبه على حافة السرير، في نحوٍ من التضامن معه وقال له يواسيه:

«أفق يا صديقي.. واستجمع قُواك ثانية.. واستحضر ما تبقّى فيك من الإيمان بنفسك أو بالله أو بالصمت.. لا فرق ههنا.. فالسجّان لا يفصل في جسدك بين ما ينبغي جلده بالسياط وما ينبغي حرقه بالكهرباء وما ينبغي دهسه بأحذيته الغليظة.. المهمّ أنّك تُحسن النوم كلّما أنهكوك وتتقن الموت البطيء والامتداد على هذي الحشايا البائسة.. ههنا سوف تتعلّم كيف تسكن وحيدًا جسدك وكيف تُجالس روحك دون أن يُنغّص عليك اختلاءك بنفسك أيّ أحد.. لكن حذار قد تكتشف في أغوارك الباطنة شخصًا آخر غير ما تعوّدت عليه في حياتك الحزبية السابقة..

سوف تنام طويلًا وسوف تموت كل يوم.. لا فرق في السجن بين الموتى والنيام.. سوف تتدرّب قليلًا قليلًا على محبّة قدرك وعلى الذهاب إلى حتفك دون شغب.. سوف تنام دون أن يقضّ مضجعك أيّ التزام عائلي.. لن تقلقك ضغوطات الحياة اليومية للبشر.. بل لن تكون لك حياة أصلًا.. لا يومية ولا ليلية.. لا جدّية ولا هزلية.. أنت هنا من أجل الصمت ومن أجل التحديق بالعدم بالذرّات والفراغ.. سوف تتدرّب على عدم الخوف من الفراغ. لن تعاني من مشاعر البشر العاديين الذين يقلقون ويسأمون ويرغبون بالترويح عن أنفسهم.. لن تقلق ههنا لأنّك ستفقد النفس التي ترغب في الترفيه عنها.. ولن تفكّر أصلًا بالمُتعة لأنّك ستنسى سريعًا كل الكلمات المشابهة وستمّحي من ذاكرتك.. وإن صادف وأن تكلّمت فإيّاك أن تقصد أيّ معنى وأن تبحث عن أيّ حقيقة.. ستتدرّب على حياة الجثمان.. إنّك يا صديقي صرت سجينًا.. فأنت أكثر من بشر وأقلّ من شيطان..».

فتح عينيه ورمقه بنظرة غامضة.. شدّ على يديه وتملّكته الرغبة في أن يقول له أيّ شيء.. غير أنّ الكلمات كانت هاربة منه إلى خارج السجن.. فالكلمات حرّة ولا تريد أن تحيا في أفواه السجناء.. وأجهد نفسه وأخذ يراود اللغة بكلِّ ما يملك من الإغراء.. لقد كان خطيبًا بارعًا وديماغوجيًّا ماهرًا.. وخبيرًا في إغواء الإناث بعينيه الخضراوين وبلطفه البالغ في الحديث إليهنّ.. فهل ستصعب عليه اللغة هذه المرّة وهل ستتنكر له الحروف أيضًا؟ أم ستتكرّم عليه ببعض الكلمات؟ طلب منها بعض حروف لم تعد بحاجة إليها بعد صعود السلفيين إلى الحكم.. حتّى الحروف النزقة أو الماجنة التي طردوها خارج إطار الشريعة.. بل حتى بعض الحروف البذيئة التي عافتها الألسن فلفظتها في المراحيض والمواخير وصناديق القُمامة وحكومات العمالة.. وأخيرًا تمكّن من تجميع بعض الكلمات اليتيمة التي أشفقت عليه.. وأغراها غموض عينيه.. وتذكّرته فوق منابر كلية الآداب خاطبًا في الطلبة والطالبات.. تسلّلت خلسة وفي غفلة من الأمير الوهّابي إلى شدقيه.. وبالرغم من أنّ هذي الحروف كانت جميعها أنثى كان مضطرًّا للتفوه بها في جدران قاسية لا تضمّ بين أحجارها غير الذكور..

بادر غريب همّامًا بسؤال تافه: «هل أعجبتك الأكلة هذا اليوم؟».

ضحك ضحكة متعثرة تختلط فيها السخرية بالشفقة بعبث الأقدار: «عن أيّ أكلة تتحدّث يا صديقي.. هل أتوا بك إلى هنا لكي تتذوّق الأكلات.. وهل تجد في نفسك شهوة للأكل أو حتّى للتقيّؤ.. هل لديك نفس كي تشعر بالجوع أصلًا؟».

أشفق عليه من روحه البائسة.. وأدرك منذ ذلك اليوم أنّهم أتوا به هذه المرّة إلى زنزانة استثنائية. وتاهت به الذكرى نحو سنوات سجنه السابقة.. كان يومها متّهمًا بإسلاميته المفرطة.. أمّا اليوم فهو متّهم بخروجه عن ثوابت الأمّة.. سُجن من أجل الإسلام مرّتين: مرّة لأنّه أفرط في إسلامه ومرّة لأنّه أقلّ فيه.. يا لحماقة حكام هذا العصر..

اتّكأ على جدار الزنزانة بكلّ حزم.. أحسّ بداخله بنوع من النشوة لقدرته على الوقوف وقفة كاملة دون أن يُصيبه الدُّوار هذه المرّة.. يبدو أنّهم نسوه هذه الأيّام أو انصرفوا عن استنطاقه إلى سجين جديد.. ابتهج فقد قضى ليلة كاملة هادئة دون أن يُداهمه السجّان ولا الشيطان.. نظر إلى همّام الذي كان منشغلًا عنه بكتاب عنوانه «الدولة والثورة».. ورجعت به الذكرى إلى تلك الأيّام الجميلة التي قضاها معًا في شوارع العاصمة يُخلخلان مع شباب تونس اليافعين أركان دولة الاستبداد البائدة.. التقى به في أكثر من مرّة.. كان كلّ منهما واقفًا في جهة مختلفة لكنّهما كانا معًا في اعتصام القصبة.. كانا يتقاطعان أحيانًا. يبتسمان دون أن يكلّم أحدهما الآخر.. كان حفلًا رائعًا.. حفل الثورة.. رقصت الحشود القادمة من كلِّ مكان وغنّت بأعلى صوتها: «ما أحلى القعدة على الميّة.. ما أحلى الربيع.. ما أحلى الثورة التونسية تضمّ الجميع»..

وضمّت الثورة الجميع في عُرس لا أحد من الجموع الراقصة تخيّل أنّه سينتهي بتلك الحكاية...

كان همّام كلّما سئم من الكتب الحمراء ينتصر على

السجن بالشرود.. كان يتعمّد الغوص في سراديب الذاكرة.. ويدفع بنفسه إلى التدرّب على الضياع طالبًا الجنون أحيانًا والبلاهة أحيانًا أخرى.. ما يهمّه هو التقليل من الحضور وتكثيف لحظات الغياب.. كان يتمنى أحيانًا أن يفقد عقله.. حتى يتحرّر من هذا السجن.. وتشرّدت به متاهات الخيال.. فصار يرى أطياف المساجين السابقين الذين تداولوا على هذه الزنزانة.. ثمّ صار يرى جثامينهم يمرّ الواحد تلو الآخر.. ثمّ شاهد وجه صالح يصرخ على هذا السرير وأحد السجّانين بصدد اغتصابه.. أفاق لتوّه منزعجًا من صورة زميله السابق.. وقرّر أن ينسى أصدقاءه القدامى الذين مرّوا بهذه الزنزانة.. فخرج البعض منهم حيًّا، لكن بلا كرامة بعد أن وقّع على اعترافات مفبركة تحت التعذيب.. خرج ذليلًا بعد أن باعَ رفيقًا له أو افترأ على أيّ ممّن سمّتهم الدولة البائدة من دعاة الشغب.. وخرج البعض الآخر جثمانًا بعد أن قضى نحبه على كرسي الكهرباء.. أمّا هو فقد سئم السجّان من صموده في هذا السجن.. فلا هو مِن الذين اعترفوا كي يرتقي السجّان في الرتبة ولا هو ممّن سقطوا كي تفرغ الزنزانة لزائر جديد.

لم يكن جديد العهد بالسجون.. فقد كان قبل سنة واحدة سجينًا لمدّة 16 سنة.. كان وقتها محكومًا عليه بالإعدام.. وكان همّام معه في السجن نفسه وبالتُهمة نفسها.. التطاول على أمن الدولة.. كانا على طرفَي نقيض في تصوّرهما للعالم.. أحدهما في اليسار والآخر في اليمين.. لكنّ السجن جمع بينهما لأنّهما كانا معًا من أشرس المعارضين لنظام الاستبداد الذي نكّل بالبلاد وبالعباد.. لكنّ غريب كان أكثر حظًّا منه في

كلّ مرّة.. فقد وقَعَ تحريره من السجن قبل ثلاث سنوات في عفوٍ تشريعيٍّ عامّ.. أمّا هو فلم يشمله العفو آنذاك.. وكان الاستبداد له بالمرصاد..

وهبّت رياح الثورة في البلاد.. بدأت باحتراق بائع الخضر المتجوّل.. وانتهت برقصة الحرية في الشارع الكبير.. وبينهما أينعت الثورة في عمق الأرياف والثنايا الجبلية الملغّمة بالبؤس والفقر والبطالة والتهميش..

لم يصرّحوا بعدُ بالعدد الحقيقي للشهداء.. ودماؤهم لا تزال معلّقة بين الحقول الجائعة والصقور الجامحة والأفواه الفاغرة.. كلّ قطرة دم تحكي حكاية أعمق من كلِّ الحروف المستعجلة..

وحينما اختلطت دماؤهم بتراب أقدامهم.. وقع إطلاق سراح همّام في اليوم نفسه الذي هرب فيه الرئيس المخلوع من البلاد..

والتقيا ثانية في شوارع العاصمة.. وانصرف كل منهما إلى بناء حزبه والترويج لعقيدته.. ومرّة أخرى ينتصر غريب في الانتخابات.. ويصعد اليمين إلى عرش الحكومة.. ويخرج همّام من المعركة بنصيب هزيل.. وافترقا.. أحدهما انشغل بتبرير أخطاء اليمين.. والآخر انشغل بأسباب انهزام اليسار..

لكنّهما تشابها وتقاطعا في أكثر من مرّة.. فلم يكن همّامًا يساريًّا تمامًا.. فلم يكن من شواغله الاختصام مع الإسلام والمسلمين.. بل كان يقول دومًا «أنّ الشيوعية ليست إلحادًا».. أمّا غريب فلم يكن يمينيًّا تمامًا هو الآخر.. فكان يسعى إلى المصالحة بين الإسلاميين ومطلب الدولة المدنية.. التقيا في

الدفاع عن الفقراء.. وهما الآن يلتقيان ثانية في السجن.. كلاهما يحمل التهمة نفسها.. تهمة الزندقة والخروج عن ثوابت الأمّة..

سأله في تهكّم: «كم من السنوات منَحوك هذه المرّة»..

أجابه في عبث: «ليس أقلّ من بقية عُمُري..».

استبشر همّام بالخبر فهاهو قد وجد أخيرًا من يُصاحبه في هذه الزنزانة التي ما دخلها سجين إلّا وقضى نحبه تحت التعذيب.. لا أحد من أصدقائه القدامى قد صمد.. هو فحسب استطاع إلى حدّ الآن أن ينجو بحياته.. وفجأة انفتح الباب الحديدي.. وناداه السجّان: «هيّا يا همّام.. فقد جاءت ابنتك لزيارتك..» استبشر للخبر وانتصب واقفًا مندفعًا نحو القضبان..

جلست أُقحوانة في الجهة المقابلة.. ورفعت سمّاعة الهاتف تحاكي أباها من وراء البلّور السميك المغلّف بالأسلاك الحديدية.. اندفعت في الحديث بكل انفعال وبسمة حزينة ارتسمت على ملامحها.. قالت: «كيف حالك يا أبي.. لقد اشتقنا إليك كثيرًا.. فهم لم يسمحوا لنا بزيارتك إلّا بعد أن رفعنا قضية لمنظمة حقوق الإنسان في أمرك.. قالوا بأنّ السجناء بتهمة الزندقة ممنوعون من كلّ شيء.. إلّا أن يتوبوا ويدخلوا المذهب الحنبلي من بابه الواسع..».

قاطعها مبتسمًا: «أهلًا بك يا بنيّتي.. لا تحملي همّي.. فقد تعوّدت بالسجون.. وتعوّدت السجون بي.. المهمّ أن تكونوا بخير.. وأن تحفظي أخاك من السياسة.. راقبيه جيّدًا واجعليه محايدًا طول الوقت.. وإيّاك أن تحدّثيه عن الشيوعية ولا عن السلفية ولا عن الأصولية..».

ردّت عليه: «عمّ سأحدّثه يا أبتي.. وكيف لي أن أحفظه من السياسة؟..».

أجابها: «حدّثيه عن الحياة.. اجعليه يُغرَم بالرياضة أو بالفنّ أو بالرقص..».

قاطعته في يأس: «لكنّهم منعوا كل أشكال الفنون والرياضة.. كلها صارت حرامًا وكفرًا بثوابت الأمّة»...

وهمّ بالكلام.. لكنّ السجّان أغلق الخطّ بينه وبينها معلنًا عن نهاية وقت الزيارة.. جرّوه إلى زنزانته.. وهرعت نحو باب السجن الخارجي والدموع تنزف من عينيها...

سأله غريب: «مَن جاء يزورك يا همّام.. أنت محظوظ هذا اليوم؟..».

أجابه في حزن عميق: «إنّها أُقحوانة.. ابنتي الكبرى»..

قفز من الفراش مذهولًا كمن سمع خبرًا عجيبًا.. وقال: «ومَن تكون ابنتك هذه؟ هل هي أُقحوانة التي كانت طالبة في الثمانينيات بكلية الآداب بمنّوبة؟..».

أجابه غير آبه باستغرابه: «هي بعينها.. وكانت طالبة بقسم الفلسفة.. لو أرَدت أكثر تفاصيل..».

تجمّد في مكانه.. وتمتم في نفسه: «يا إلهي أسعفني من جرح عاد إليّ ثانية»..

كانت معي في كلّ لحظات سجني.. لم يغادرني طيفها لحظة واحدة.. كانت هناك واقفة بين ظلّي وبين جسدي في أحلك لحظات التعذيب.. وكلّما دفعتُ بها خارج يقظتي

تسلّلت إلى لاوعيي تواسيني كلّما أُغمي عليّ.. وإلى كوابيسي كلّما اضطررت إلى النوم.. عرفتها وهي في سنّ الثامنة عشرة.. كانت واقفة دومًا إزائي.. تستمع إلى خطبي.. وهاهي تسير معي في شوارع العاصمة.. ما زلت أذكرها يوم دخلت في إضراب جوع حينما كانت كل البلاد بصدد انتفاضة الخبز..

رحلت عنّي إلى حبيب آخر حين راجَت أخبار الأحكام بالإعدام.. بَكَتني ودفنتني يومها في أعماقها البعيدة وعادت إلى الدنيا.. لكنّها أصرّت على زيارتي دومًا بطيفها الذي كان يواسيني، لكنه كان يؤرقني في آنٍ معًا.. بل ربّما لم تكن تدرك أنّ طيفها خانها ولم يشأ مفارقتي.. وقد يكون جسدها قد اختصم مع ظلّها.. فخانني الأول وظلّ الظلّ وفيًّا.. لا فرق للسجناء بين الجسد والطيف.. لأنّي تعوَّدت على الاكتفاء بحياة الجثامين..

«أين سافرت روحك يا غريب.. إنّي هنا إلى جانبك.. حاول أن تذكر هذا جيّدًا.. أنا صديقك الأبدي فهيّا نقتسم معًا هذا الطعام الذي جلبته لنا أُقحوانة.. ولا تنشغل بالآفلين.. واعلم أنّنا ربحنا الخلود في حين يظلّ سكّان النور عابرين.. سيموتون مرّة واحدة وسنحيا مرارًا ومرارًا.. ستتحدّث عنّا الروايات والسياسات.. وسيظلّ جبناء المدينة مؤقّتين وقابلين للاستبدال والمسخ والنسخ والسلخ..».

هرعت إلى الطعام غير آبه بما يقول من تنظير.. استبشر وبَسَط أمامي صينية الكسكسي الشهيّ.. لأول مرّة أقبِل على الأكل بتلك الشهيّة.. لقد جعلني طعامها أستعيد غرائزي وأتذوّق ثانية طعم الحياة.. كنت أراها واقفة في المطبخ..

تقصّ الخضر واللحم وتعطّر الكلّ بتوابلَ فاحت رائحتها في أرجاء الزنزانة.. ومع كل ملعقة أبتلعها بين أحشائي كانت تأتي إلى قلبي وتتربّع دون استشارة السجّان ولا الجلّاد ولا الشيطان.. لم تعد تأبه لا بحضور أبيها ولا بحضور زوجها.. نزقة أنت يا أقحوانة.. مثلما أذكرك تمامًا.. لا شيء تغيّر فيك.. دجّنوا جسدك بالعائلة فهربت روحك إلى عالم الطيش والشغب ثانية.

سألته وقد أوشكت الصينية على الانتهاء: «إنّه طعام شهيّ.. هل هي ماهرة في إدارة شؤون عائلتها مثلما هي ماهرة في الطبخ؟».

أجاب مفتخرًا: «هي بارعة في كل شيء.. ابنة حنون وزوجة صالحة... وأمّ لشهيد.. سقط أخيرًا في أحداث الثورة..».

قاطعته في فزع: «أمّ لشهيد.. يا له من قدر يا أقحوانة..».

وعاد طيفها إلى الزنزانة.. كانت حزينة تتّشح بالسواد.. لم يسبق لي أن رأيتها بهذه الملامح.. لقد أدركت روحها أنّي الآن على علم بكلّ شيء.. وهمست إليّ في غفلة من السجّان:

«لا تشغل نفسك بهمومي.. فقدرك يكفيك..».

تذكّرت تلك اللحظات الجميلة التي قضّيناها معًا في رحاب الجامعة.. كنّا نجلس لساعات على أعشاب الحديقة.. نخطّط للمستقبل.. كنت أتمنى أن تنجب لي بنتًا تشبهها تمامًا.. وكانت مصرّة على إنجاب الأبناء.. كنت أسمّي ابنتي الخيالية «ياسمين».. و كانت تسمّي ابنها الخيالي زعفران..

وفجأة دفع السجّان الغليظ بباب الزنزانة.. كان يطلب همّامًا لغرفة الكهرباء.. فزعت من قدومه.. كان خيالها معي.. دفعتها بقوّة إلى الخارج خوفًا عليها من أن يتمكّن السجّان من طيفها.. فيُلحقها هي الأخرى بإحدى زنزانات النساء.. إنّهم على كل شيء قادرون.. هؤلاء الخنازير.. يسجنون حتّى الأشباح والأرواح التائهة.. بل هم يبتلعون بين القضبان حتى الجثامين..

وظلّت الروح معلّقة بين جدران الزنزانة وبين أسوار المدينة.. ما الذي أتى بها إلى هنا.. وما الذي يجعل روحًا جميلة تفضّل التأرجح بين السجون في حين يرقص جسدها في صالون فسيح.. ويتنزّه في شوارع متلألأة وبين روائح اللحم المشوي والقهوة السحرية؟ أهو الحبّ أم الحنين أم حمق النساء؟.

همست أقحوانة: «بلى يا صديقي.. كلّ شيء صار حرامًا في هذه المدينة.. لا حقَّ للنساء في الخروج ولا في العمل ولا في الرقص.. لقد حبسوا أجسادنا يا غريب فبعثت بروحي تتيه بين جدران السجون.. فالسجن الحقيقي أرحم من السجن الرمزي.. والواقع أمرّ من الخيال..».

ناداني همّام وقد سئم ذهولي وصمتي: «أين سافر بكَ الكسكسي يا غريب.. هل سحرتك أقحوانة بتوابلها؟ أم هو حنينك إلى حضن أمّك؟».

اقتربتُ من فراشه وجلست حذوه.. قرّرت أن أحكي له كل الحكاية.. بادرته بالسؤال: «لماذا أنت متمسك بالدفاع عن الفقراء يا همّام؟ وما نفع الشيوعية في البلاد الإسلامية؟».

أجاب وقد بدَتْ عليه ملامح الجدية الحزبية: «لأنّ الفقر

هو علّة تخلُّفنا عن الأمم الغربية.. وحين نقضي على الفقر سوف تعمّ العدالة بين الناس.. وبذلك نقضي على الاستبداد والمظالم وكل أشكال التعاسة في هذي الديار..».

بدا واثقًا من نظريته.. وكنت واثقًا من أنّ مشكلتنا ليست في الفقر، بل في علاقتنا بهويتنا الإسلامية.. أجبته: «لكنّك تغفل عن مشكلة الهوية يا صديقي.. كيف سنحسم أمر أنفسنا؟ وكيف نتدبّر علاقتنا بالماضي؟».

أجابني في تهكّم: «لماذا تتمسّكون بالماضي تمسّكًا مَرضيًّا؟ كل الأمم الأخرى سافرت إلى المستقبل.. إلّا أنتم.. مهووسون بالذاكرة..».

أجبته: «لا تغضب أكثر من اللازم يا صديقي.. فكلّ هذا الخطاب لا معنى له.. بل لا جدوى أصلًا لأن نتخاصم حول الماضي والمستقبل.. يبدو أنّ البلاد دخلت منعطفًا غريبًا من تاريخها.. لا أحد يعلم إلى أيّ جهة نحن بصدد السير.. أو حتّى إن كان هناك مستقبل..».

ضحك من عبث كلّ الكلام ومن لا جدوى الوجود أصلًا.. وأخرَجَ من جيبه لعبة الأوراق.. وصرنا نلعب إلى وقت لا أحد بوسعه أن يقدّره.. لأنّنا لم نتوقف عن تلك اللعبة إلى أن اندلعت في البلاد رياح الثورة من جديد..

❊ ❊ ❊



البنفسج يعتذر...

مَن أنت يا أُقحوانة؟

سنة كبيسة.. ودهرٌ من الأسئلة المثقلَة بالديون.. وتزدحم على ذاكرتي المتعبة باستفحال الصحاري في أركان روحي الصغيرة.. صور الكوارث والزلازل العميقة لعصرٍ عربيٍّ دخل متاهة لا أحد يعرف عواقبها.. من أنت يا أقحوانةً؟ أنت كائن مسكون بالضباب ومحاصر بطوفان من الحرائق لا شيء يقدر على إطفائها غير ورود جديدة.. ويفيض قلبك بالأحداث ويسافر بك بعيدًا في السراديب.. وحين تأخذين في العدّ قد تُخطئين عدد الموتات وعدد الموتى ولن تتعرّفي على وجوه القتلة.. لأنّهم عبروا دون تذكرة سفر.. ودون قصاص ولا حساب مبين..

مَن تكونين أيّها المتّشحة بالسواد؟ كلّ النساء أنت أم أرشيف لحفظ صُوَر مَن ماتوا بلا سبب؟ أم محطّة انتظار لقطار لا يأتي؟ أنتِ ذاكرة عُمرها أكثر من مائة عام من السير ليلًا نحو سماء لا تغنّي.. أنتِ تسيرين بأقدام مَن ساروا إلى حتفهم في غفلة من كل النائمين تحت وجه القمر.. بلى أنت رقص على الأكاذيب.. وأنت كوابيس كل السجناء الذين خرجوا إلى النور يعيدون المفاتيح القادمة إلى الأبواب المغلقة.. ويخالونها صالحة لفتح القلوب..

من أين ستبدئين في جراح هذا العصر؟ من أطفال الحجارة؟ أم من شنق الطغاة العرب وجرّ جثامينهم في الساحات أم من جعل المقبرة ساحة لهوٍ لأطفال تخيّلوا الجثث لُعبًا؟ أم تفضّلين المكوث على حدود معرّة النعمان حيث صارت صواريخ الهاون بديلًا عن لزوم ما يلزم لزرع جهنّم في جنّة ابن القارح؟.

أنت روح من ضباب.. آه.. لو كنت أقدر على فتح هذه الروح وتشريحها صورة بصورة وكارثة بكارثة وكذبة بكذبة وحرف بحرف وجرح بجرح.. أيّتها الضاحكة من وراء مكر نسائي، ماذا فعلتِ بروّاد هذا العصر العربي الآيل إلى الخراب؟.

كان الليل يسدل بظلامه على المدينة.. أحسّت بالإرهاق من يوم طويل قضته في التسوق استعدادًا لعرس ابنتها ياسمين.. جلست على حافة الفراش تتثبت في بعض الحسابات والمشتريات.. غلاء الأسعار أرهق ميزانيتها المتواضعة.. تمدّدت على الفراش.. انتظرته طويلًا، لكنه لم يأتِ.. لقد تعوّدت على غيابه الغامض عن البيت.. كان يتعذّر دومًا بالسياسة وبالنضال الحزبيّ وبخطر السلفيين على مستقبل البلاد.. لكنّ لا شيء عندها كان يبرّر هجرانه لها.. قد يكون قد دخل في نظام الزواج العرفي.. كانت تشعر دومًا أنّ امرأة أخرى في حياته.. لكنّها كانت تتغابى وتختبئ من آلامها بالحمق.. استلقت على الفراش طلبًا للنوم.. لكنّ النعاس هجرها أيضًا.. سمعت أصواتًا غريبة.. ثمّ عاد الصمت يلفّها مع أثاث الغرفة.. سرير خشبي من النوع الفقير وخزانة ملّت من

النظر إليها وملّت الخزانة من وجودها الدائم ومن وفائها الأحمق إلى هذه الغرفة.. لا شيء كان يصاحبها غير صوت قرقعة المرحاض اللعين الذي لا ينفكّ على السيلان والهدير الفارغ لعُطب فيه هاهو يدوم سنين.. لا أحد يأبه لقرقعته.. ولا أحد يستمع إلى صرخاته.. لأنّه لا أحد قادر في هذا البيت على الراحة ولا حتّى على إلقاء فضلاته...

اقترَبَت من المرآة أكثر.. ووقفت تخاصم الصورة التي تراءت لها للتوّ.. ماذا لو كذبت هذه المرآة وجعلتها تظهر بمظهر آخر.. هذا الأنف أتعبها ودفعها إلى عديد المصاعب.. لو كان أقلّ حدّة وأكثر استطالة لكان لحياتها قدر آخر.. تضاريس هذا الوجه صارت قديمة جدًّا.. ولم تَعُد قادرة على التحديق بها.. لم تعد تتحمل عبء تجاعيد المدينة العربية وقد صارت إلى سراديب يعشش فيها عنكبوت الفتاوي الكئيبة ولا تحلِّق في سماءها غير الخفافيش..

من هذا الأخدود مرّت كل الجنازات المعاصرة.. لا شيء يقولونه.. «سقط شهيدًا» ثمّ يلملمون أشلاءه في قطعة قماش بيضاء ويردمونه تحت الأرض طعامًا للديدان.. ثمّ يعودون إلى المدينة لنكاح مزيد من النساء..

ومن أنت يا أقحوانة حتى تواجهين هذا الطوفان الأزرق؟ ليس في روحك التائهة غير المكتبة وسرير خشبي والكثير من الجوع إلى الحرائق والتفاح المسروق من الجحيم.. طفلة هذه الروح.. تعبث بعذابات الآخرين.. سحابة وأنقاض وطن..

جاء الصباح متباطئًا خجولًا.. وبدأت الحياة تدبّ في

المدينة.. اقتربت من النافذة وبين يديها ورق أبيض وفي قلبها آخر ما تبقى من الحروف...

جلست على حافة الحرف تمشّط شعرها.. وتُزاحم الشمس على أشعّتها الذهبية.. وكان النجم الأصفر يرمقها من بعيد.. ها أنتِ تقتربين من قلبه.. لا تستعجلي على الاقتراب منه.. سوف تحترقين.. لا شيء ينتظرك في الأفق غير الغسق الوردي المتوهّج خجلًا من كل هؤلاء الحمقى الذين إليهم تنتمين.. كوني بطيئة هذه المرّة.. كوني هادئة مرهفة الحسّ حذرة كتمساح وباردة كجبل قديم.. سيجمعك بنجمك البعيد مساحة من الرعب والعمق والحزن على كلِّ الذين عبروا دون أحلامهم إلى المستحيل..

قالت أُقحوانة لصانع الأقدار: «مهلًا.. لا تجمع قدري مع أقدار سكان هذه المدينة.. لقد سئمتُ مَن لا يتقن الطيران إلى داخل روحه العميقة.. سئمتُ مَن يرضى بالحلول الوسطى وبالمشاكل الناقصة وبالأسئلة الزائفة.. أولئك الزائفون المتملّقون.. تراهم يبدّلون جلدتهم كلّما تداولت على الركح حكومات الخطأ والأصنام القابلة للركل عند كل صلاة وثنية.. أولئك المنشطرون على أنفسهم شطرين وحزبين وحزنين وقبرين وكارثتين.. فلا هم أتقنوا الحبّ ولا هم أتقنوا الكراهية.. بل هم لا يقدرون حتى على عداوتي..».

من أنتِ يا أُقحوانة؟ تحملين عبء المدينة وتتظاهرين بالضحك عند رؤوس الموتى.. كيف تتماسكين يا روحًا كفّنت جسدها بيديها بين طيّتي كتاب وراحت تعدّ انهزامات المدائن

العربية.. كيف تتماسكين على حدّ الحرف وفوقك القدر يُحاصرك من كل جهة.. ويمنعك من الرحيل.. ولا أحد يستطيع لا أن يباركك ولا حتّى أن يلعنك.. لأن جميع أترابك رحلوا قبل حين..

آه.. يا أقحوانة.. من أنتِ؟ مجاز أم استعارة أم اسم لوردة ضلّت طريقها إلى البساتين؟ دعْكِ من الأصابع الناعمة وتعلّمي البُصاق على هذه الخرائب.. ابصقي على الخراب قبل أن يبتلعك ولن تنجين حينئذٍ حتى بقدرة قدير.. ارحلي يا أقحوانة من هذه الحكاية.

لكن هل تتقنين الجري أم أنتِ سلحفاة بطيئة من طين ودهر ثقيل من الانتظار على بوّابة عصر أناس في خُسر مبين.. لا تقفي على سطوح القلوب الباردة.. هيّا هرولي بأقصى سرعة نحو ورود لم تفقد براءتها.. هرولي ستدفعك الحروف أعمق فأعمق في هذا الحنين..

اندفعت أقحوانة تسابق الكلمات نحو أصلها الأوّل.. واشتدّ بها الحنين إلى جذورها البعيدة.. يوم كانت زهرة صغيرة تجالس صديقاتها وتطعم الفراشات من رحيقها وحين يأتي الربيع تتزوّج أقحوانة من ذكر جديد.. كانت بارعة في العشق وفي إغراء ذكور الزهور وإغوائها لكنّ.. زهرة العوسج كانت تغار منها.. فكادت لها مكيدة لن تنساها ما دام هناك زهور في الحديقة..

بادرتها زهرة البنفسج بالتحية.. «كم اشتقتُ إليك يا أقحوانة.. كنت دائمًا أنتظر قدومك.. وأعرف أنّك لن تموتي وأنّك ستأتين».

أجابتها في شوق: «آه يا زهرة البنفسج... كم تألّمت لِما جرى معك كل هذي السنين.. أولئك البشريون.. كم ورّطوك بأمزجتهم الفاسدة وبقلّة ذوقهم مع لون البنفسج.. دنّسوك ولطّخوك بجرائمهم وبتاريخهم الحزين.. سرقوا عطرك مرّتين ودهسوك مرّتين.. وكنت في المرّتين سردابًا لأوهامهم ومتاهة لغطرستهم.. هؤلاء العابثين.. حتّى ألوان الورود لم تسلم من أياديهم المدنّسة بعذابات الجحيم.. ورغم ذلك أراك تصمدين وتزهرين وتنثرين بعطرك على كل العابرين.. أيّ الزهرات أنتِ أيّتها البنفسجة الراقصة بين لونين.. لون السَّماء ولون الجحيم.. لون البحر ولون الخمر.. مَن منحك هذا اللون ومن وسمكِ بهذا الاسم.. إلهة أنتِ أم لغة من العطر أم طيف من نسيم..؟».

قاطعتها زهرة البنفسج ومرارة العطر في حرفها: «بلى يا أقحوانة.. لا ينبغي أن تغرّك ورودي ولا عطوري.. إنّي أخبئ فيها ألمًا قديمًا لا شيء بوسعه أن يحرِّرني منه.. لا أحد يقبل اعتذار البنفسج.. لقد ورّطوني واغتصبوا كل أطيافي وألواني.. وذبحوني مع كلّ صيحة ألم وجوع ومع كل طفل تائه في الشوارع.. لبسوني قناعًا لكل قهر.. وأنا اليوم أرى جرائم البنفسج على وجه كل جائع وكل عاطل وكل الذين احترقوا بلا رجعة..».

أجابت أقحوانة تواسيها: «لا ذنب على الورود.. دعْكِ من الماضي وهيّا نغري ذكور الحديقة بالرقص»..

أجابت البنفسجة: «بوركت صديقتي.. فما الصديق إلّا من يأتيك بالخبر السارّ في أوانه.. وأنتِ يا أقحوانة خبر سارّ

للجميع.. حدّثينا ماذا فعلت بكِ كل هذي السنين؟ وأين تُهت عن الحديقة.. وهل أحسنت الصنيع؟».

ردّت أقحوانة في حزن عميق: «بلى حبيبتي.. فليعلم كل سكان الحديقة أنّني قد جُبتُ كل متاهات هذا العصر.. وقد شهدت على ثوراته وخيباته وموتاته.. بحثًا عن بشر.. لكنّي لم أعثر على غير قلوب من حجر وبيوت من صخر.. وأفواه فاغرة لم تنتصر..».

قاطعتها البنفسجة في استغراب: «لا تقولي أنّك انهزمتِ في إنصاف جياع تلك المدينة البعيدة.. ولا تقولي أنّك لم تعثري على عروق الحنظل الذي أصاب حياتهم وجعلها مريرة.. ألم تمنحك الحديقة عُمرًا مديدًا لاستئصال ذاك المرض الذي أصاب العرب في تلك المدائن التي بُعثتِ إليها؟ ألم تَعِدي الزهور بالولوج إلى أعماق البشر لإيقاف الطوفان الأسود؟ ألم تعدي بالفتك بجرثومة الخرافة والهستيريا الصفراء التي داهمت الجميع فجأة وأصابت كل الأرواح الجميلة؟».

صاحت بها أقحوانة وقد فرغ صبرها وأوشكت على فقدان كلّ أوراقها التي كتبت عليها كل الحكاية: «مهلًا أيّها البنفسج المسعور على حلّ كل المشاكل بزهرة واحدة.. ما هكذا تغيّر الورود مصير الشعوب.. تلزمنا عطورٌ أخرى وفراشات قادرة على التحليق أكثر..».

❋ ❋ ❋



حين تتعرّى الأجساد..

خلعت نقابها الأسود وطوته كمن يطوي المسافات أو كمن يهرب بعيدًا عن المدن والسياسات.. حدّقت فيه كأنّها تراه لأوّل مرّة.. لماذا كل هذا السواد يا عاتكة؟ لماذا طلّقت كل الألوان ودفنت هذا الجسد في هذا اللون الكئيب؟ تجرّدت من باقي ثيابها قطعة قطعة.. وكانت تتلذّذ وهي تتعرّى بتؤدة كمن يرسم بعرائه لوحة تكعيبية.. قطعة صغيرة واحدة تركتها عالقة بالمنطقة الوسطى الممنوعة من التحديق بالآخرين.. قطعة صغيرة تغطي عورتها الأصلية كآخر معاقل الدين الحنبلي في جسدها، بل كآخر معاقل الأخلاق الكونية في أجساد البشر.. لا فرق حينئذٍ بين أجناس العورات.. وجنسيّاتها.. وأحزابها.. ولا أحد سيسأل يومًا عن هويّات هذه الأعضاء الصغيرة الممنوعة من العراء المكفَّنة بالأقنعة المختلفة الأصل.. حريرية أو قطنية أو جلدية أو من جنس الأعشاب الرخيصة الثمن.. ولا أحد سيسألك يومًا إن كان عضوك الناقص عقلًا ودينًا، ثوريًّا أم رجعيًّا، ديمقراطيًّا أم استبداديًّا، سلفيًّا أم علمانيًّا.. مسلمًا أم ملحدًا.. ومَن يكفّر العورات وهي طورًا أسماءً لأعضاء وطورًا آخر مجازات سياسية أو إباحية أو حتى روائية. بلى فعضوك الصغير هذا الذي تخجلين من تسميته ويخجل

الحرف من كتابته إنّما هو أكثر أعضائك إيمانًا بنفسه وبشهوته وبقدرته على نسج المؤامرات والسياسات.. عضوك هذا يا عاتكة هو الذي يغوي الفقه بالإقامة في هذه المدينة ويُلهم كلّ الخرافات.. بل هو أكثر منك قدرة وجرأة على الكفر بكلّ حيل رجال هذا العصر الذين يمتنعون عن العبور إلى سماء أخرى..

صاحت أقحوانة من أعلى منابر مكارم الأخلاق: «كفى تنابزًا بالألقاب أيّها الحرف الطائش.. وإلّا منعوك عن الخروج إلى العمومية.. غضّ الطرف عن هذه الأعضاء السفلية لأنّها حمقاء ولا تعرف معاني المدنية.. دعونا من الهندسات الأميّة ومن المنحدرات الهمجية.. وأعيدوا إلى العقل رطانته الأخلاقية..».

قالت عاتكة: «لا عليك يا أقحوانة.. زلّة لسان.. وزلّة زمان.. وأقلام ترسب في عشوائية.. لكن لا أدب للروايات.. ولا أخلاق للحكايات..».

وتناثرت الأجساد العارية هنا وهناك في هذا البهو الفسيح من الضباب الكثيف.. جلست على حافة الرخام بعد أن صبّت عليه ماءً بما يكفي لتطهيره.. كلّهنّ منشغلات بأعضائهنّ.. لا واحدة تأبه بالأخرى.. إلّا أنّ واحدة منهنّ انتبهت إلى حضورها.. همست لفتاة تجلس بجوارها قائلة: «انظري يا أناهيد.. ألا تذكريها.. إنّها عاتكة»..

التفتت أناهيد: «نعم هي بعينها يا أقحوانة.. لكن هل تستحمّ المنقّبات بشكل عمومي؟ أليس حرامًا عليهنّ أيّ شكل من العراء.. حتى وإن كان عراء الحمّام؟».

اقتربتا منها.. بادرتاها بالتحية.. ردّت عليهما في خجل..

قالت أقحوانة في سخرية: «أهلًا بك يا عاتكة.. كيف وصلت إلى هذا المكان من كثرة الفتاوى التي تثقل جسدك وتردّه دومًا إلى مقام العورة والفتنة والعهارة؟ أجابتها عاتكة في غضب: «ومَن جعلك وصيّة على أجسادنا.. نعم أنا عورة وفتنة وحريم وحرمة.. وعليّ أن أحجب جسدي بالكامل بما يرضي الله والشرع والدين الحنيف..».

تدخّلت أناهيد حتى لا يحتدّ النقاش وينتهي إلى كارثة حزبية.. فأقحوانة روح نزقة مرحة تضيق ذرعًا بالكئيبين وبأعداء الحياة.. قالت أناهيد:

«لا تغضبي يا عاتكة.. ها أنتِ سافرة.. لا شيء يميزك عن أقحوانة.. كل الأحزاب سقطت هذا اليوم في مقصورات هذا الحمّام الذي لا يعترف بالنقاب ولا بالحجاب ويحرص على تركها جانبًا في صناديق المتاع مع كل تلك الأكسسوارات الحديثة مثل الساعة والبورتابل والنظارات».

صمت الجميع واكتظّت الأجساد العارية على غرفة الماء الساخن الذي كان يسيل كنهر من الزبد الذي يواصل إخفاء بعض مناطق الجسد عن غير قصد.. وطفق الضباب يتبخّر على أجسادهنّ ويلفّ نهودهنّ في نوع من الخجل الخفيّ.. ويساقط قطرات قطرات يسترق إلى لحومهنّ نظرات مائية خاطفة.. وبعض من الأرواح التائهة تحلّق هنا وهناك لرجال مرّت أجسادهم في الزمن البعيد من مقصورات هذا الحمّام حين كان للمدينة

رجالها... لكن لا أحد منهنّ كان يحفل بهوية الأرواح ولا بجنس الأجساد.. ولا بما يسيل ولا بما يحلّق.. ولا واحدة من النساء المستحمّات تملك الوقت للتفكير في جنس الحاضرات إن كانت إنسيات أو جنيات.. شيطانات أم ملائكات.. لا شيء غير الماء يسيل.. ولا شيء غير اللحوم تتعرّى بلا عقد ولا ذاكرة.. لا حقّ للأخلاق في الدخول إلى هنا..

حدّق قليلًا لن ترى غير اللحوم العارية من مختلف الأحجام والأطوال تروح وتجيء ورائحة الصابون والمسك والعطر تملأ عليك مجالك البصري.. كل شركات التطهير وموادّ الاستحمام والخبرات والتقنيات والسياسات تتقاطع على هذه الأجساد العارية.. بل إنّ بعض الومضات الإشهارية التي كانت على ملصقات قوارير الشامبو قد استطاعت التسلُّل إلى ذلك المكان المحرّم على عدسات التصوير.. حذار لا حقّ للرجال في التسلُّل إلى هذه السراديب النسائية حتى في شكل صور إشهارية.. وجود مائي نسائي.. منه ومنهنّ يتدفق نهر الحياة المقدَّس.. ماء نستحم فيه بلا نهاية..

جلست أناهيد وعاتكة وأقحوانة.. كلّ تمشّط شعرها.. والماء يسيل من على ظهورهن ومن بين أياديهنّ.. ولم يكن شامبو «سانسيلك» يفرِّق بين شعر المتحجبة أناهيد والمنقبة عاتكة والسافرة أقحوانة..

قطعت أقحوانة حبل الصمت متهكّمة مرة أخرى: «غريب أمرك يا عاتكة.. هل هذا هو الجسد الذي كنت تحجبيه عن الآخرين.. وماذا في هذه الأعضاء من جمال استثنائي حتى

تخافين عليها من العيون السافرة؟ انظري جسدي أجمل من جسدك.. لذلك لا أحجبه، بل أتركه ينثر البهجة على قلوب الناس..».

لم تجبها.. لأنّها تاهت في قصّتها البعيدة.. ما زالت تذكر ذاك اليوم جيّدًا.. حين سقطت في هذه المدينة ظلمًا.. لقد سقطت غصبًا عنها من إحدى صفحات كتاب الأغاني للأصفهاني.. يومها كانت أقحوانة بالمكتبة الوطنية تتصفّح هذا الكتاب.. ولم تكن تدري أنّها بصدد تشويه مصير إحدى شخصياته.. لقد أطالت التحديق بهذا الاسم «عاتكة بنت عجلان المنفلوطي».. إلى حدّ غضب الأصفهاني وإحساسه بالضيق من عيونها الحادة.. فكّر يومها باستدعاء عاتكة من أجل أن تبعد عنه سأم الكتاب واصفرار أوراقه وشحوب حروفه..

.. لكنّ عاتكة تمنّعت عنه.. لقد ملّت هي الأخرى حياة الجواري والقينات.. لقد كانت مغنية من أشهر مغنيات العصر العبّاسي.. وحين سئمت من حياة الجسد وعرائه.. واستغلال أمراء العرب لأعضاءها ولحومها البيضاء وتضاريس بدنها الراقص.. قررت أن تلبس النقاب وأن تتوب عن حياة القينات وعن عبث رجال البلاط..

كان ذاك اليوم هو اليوم الذي لفظها الأصفهاني من حكايات الأغاني.. فصادف أن سقطت بين حروف أقحوانة.. فدفعت بها مباشرة إلى حمّام المدينة.. كي تغتسل من أوهام عصر مضى وولّى..

فأيّ المدن هي بصدد الإقامة فيها؟ إنّها مدينة للنساء فقط.. محرّمة عن كل الذكور من الرجال ومن أشباه الرجال.. لا أحد دخلها إلّا ومات كمدًا من كيدهنّ.. لكنّ هذه المدينة تشكو من معركة لا أحد منهنّ استطاعت حسمها.. صراع حول ما ينبغي أن يلبسوا.. وكيف يتدبّرون عراء أجسادهنّ.. وانقسمت النساء إلى ثلاثة أحزاب: حزب لابسات النقاب الأسود.. وحزب الحجاب ذي الألوان وحزب سافرات الرؤوس..

وخرجت الفتيات الثلاث من الحمّام.. وتوجّهن نحو منزل أناهيد.. منزل متواضع قرب أحد مساجد المدينة.. يومها كان يوم الجمعة.. ذهبن للصلاة معًا.. وأخذت عاتكة المصدح لإلقاء خطبة الجمعة.. كانت تلك الجمعة من نصيبها.. إذ إنّ في سنّة هذه المدينة التداول على مصدح المسجد.. كل ويومها في إقامة الآذان.. كلّ وجمعتها الخاصة.. وذلك بصرف النظر عن لباسها.. وعن رتبتها من العراء والخفاء..

قالت عاتكة: «باسم النساء العظيمات وباسم الآلهة والربّات وباسم الإله الواحد الذي خلق هذا الكون فأحسن خلقه.. وباسم هذه المدينة المقدَّسة التي حصّنها الله من عيون الرجال ومن شهواتهم ومن مجونهم ومن خمّاراتهم ومن غطرستهم.. وباسم هذه الجمعة الجليلة التي وهبتني هبة الكلام في مصدح هذا المسجد الكريم.. أرحّب بكلّ الحاضرات مهما كان انتماؤهنّ وألوانهنّ وأحزابهنّ.. سواء كانوا من المؤمنات أم من الملحدات.. من المسلمات أم من المسيحيات أم من اليهوديات أم من الوثنيات.. هذا المكان يجمعنا باسم جنس

النساء جميعًا.. لا فرق بين المتحجبات والسافرات والمنقبات.. كلنا بنات الله تحصّننا حكمته ورعايته.. وتغفر لنا رحمته وعظمته..

أيّتها الأخوات.. إنّ أكثر المخاطر التي تهدِّد مدينتنا العظيمة هي عيون الرجال التي قد تتسلّل إلينا عبر ثقوب الجدران.. لذلك فأنا أدعوكم إلى التفكير ببناء سور عظيم لا أحد من الذكور قادر على اختراقه.. وعلينا أن نكثِر من الجدران وأن نُحكِم غلق أبوابنا جيّدًا وألّا نغفل لحظة عن تفقّد مفاتيح بيوتنا واستبدالها كلما ساور إحدانا شكّ في إمكانية خلعها.. إنّ معشر الرجال يكيدون لنا كيدًا وراء كيد.. حصّنوا أنفسكم من نبتة الذكر اللعينة قبل أن يهجموا علينا ثانية فيخرّبون مدينتنا ويستبيحون أجسادنا ويعيدون زرع المواخير في عقولنا..».

وما أن أنهت عاتكة خطبتها.. حتّى احتدّ المسجد بالتصفيق والهتاف بالمجد للنساء.. لكنّ أقحوانة لم تصفّق لعاتكة ولم تهتف مع الهاتفات.. صمتت وفي قلبها قصة أخرى.. اصطفّت جميع النساء وراء عاتكة وأدّوا فريضة صلاة الجمعة بخشوع.. ثمّ انصرفت كل واحدة لحالها..

طال عليها المساء.. فكّرت في دعوة جارتيها أقحوانة وعاتكة للسمر قليلًا حول كأس من الشاي.. وجلسن حول صينية فضية اللون.. دائرية الشكل.. تحمل فوقها برّادًا من الشاي الأخضر.. وصحنًا من اللوز وآخر من البندق.. وبعض أوراق نعناع.. وأخذت أناهيد تصبّ الشاي في الكؤوس وتعالت ضحكاتهنّ وازدان المجلس بأصناف من الطرائف

والحكايات القديمة.. كلّ عادت تحكي حكايتها ضاحكة من كوميديا القدر..

قالت أقحوانة لأناهيد: «هيّا يا جارتي العزيزة حدّثينا عن جسّاس زوجك القديم.. ما هي حكايته معك.. وكيف خرج من سجن المدينة ودخل على الفور في سجن الزواج؟ كيف غرّرتِ به أيّتها الأنثى الماكرة.. وقد كان ورعًا تقيًّا ولا وقت له للنساء؟».

أجابت أناهيد متحسرة: «آه يا جسّاس.. كم اشتقت إليه.. وكم تمنيت لو خبّأته عن عيون النساء قبل ذاك القانون الذي سنّته ربّات المدينة... وتلك العيون الخضر في لون أوراق الشجر.. وتلك النظرة الحنونة.. وتلك القامة التي أنهكتها السجون.. لقد دخل السجن شابًّا في العشرين وخرج كهلًا في الأربعين..».

قاطعتها أقحوانة: «وكيف اقتنصتيه بتلك السرعة فور خروجه من السجن؟».

أجابت أناهيد: «التقينا في كلية العلوم الإنسانية.. عاد إلى الجامعة لنيل شهادة الماجستير.. كان يومًا جميلًا.. جلبتني عيناه التي كانت تسترق النظر إلى كلّ ما حوله.. كأنّه بشوق حميم إلى التحديق بتفاصيل الحياة اليومية.. كان بشوق إلى رؤية الحرية في كل شيء.. في الطاولات التي يجلس إليها الطلبة.. في الأستاذ الواقف قبالته.. في كل البنات الحاضرات.. وأخيرًا استقرّت عيناه عليّ.. وشرد قليلًا.. هكذا التقينا.. ابتسم وقال: «أنتِ جميلة يا فتاة الفلسفة..» قلت:

«هيّا نحتسي القهوة سويًّا.. يومها لم أكن ألبس الحجاب لكنني.. حبًّا له وتقليلًا من فتنتي التي لا تلائم وجهه الشاحب وجسمه المنهك بسنوات القمع في السجون. قرّرت أن أحجب بعضًا من جمالي عن عيون الرجال..».

صمتت أناهيد برهة تحتسي الشاي.. فقالت أُقحوانة: «لكنّك لا تعرفين جسّاسًا قبل السجن ولا وهو سجين..».

أجابتها: «أنا لا أعرفه لأنّي أصغره بسنين عديدة.. لكنّه حدّثني عن صديقته القديمة وأبى أن يذكر لي اسمها.. وأخبرني أنّها ماتت في حريق في المكتبة.. وأنّه لا فائدة من ذكر الأموات.. واكتفى بالترحّم عليها في حزن عميق».

صمتت أقحوانة لأنّها تعرف جيّدًا من هي صديقة جسّاس وكيف رحلت عن المدينة وكيف تعود إليها في كل مرّة عودة الروح التائهة القادرة على سكن أيّ جسم تريد.

هذه الجمعة هي جمعة أقحوانة.. لها المصدح وعليها إلقاء الخطبة على نساء المدينة.. تزيّنت وتعطّرت ولبست أحلى حللها.. وخضّبت يديها وساقيها بالحنّاء.. وكحّلت عينيها بكحل عربي عريق.. لبست خلخالها واتجهت على الساعة الثانية تحديدًا إلى مسجد المدينة.. كان المكان مكتظًّا بالنساء يتجاذبن أطراف الحديث وتخطّطن لتحصين أجسادهن أكثر خوفًا من عودة الرجال..

أخذت أقحوانة مكان الإمام القديم.. وبدأت خطبة الجُمعة: «أيّتها النساء الجميلات.. يا حفيدات الخنساء وهند وأسماء وزبيدة وعلّيسة ونوال وأحلام وغادة السمّان.. جئتكم

اليوم بخبر سعيد.. لقد جئت أنبئكم بمكان نبتة الحرية.. أخيرًا عثرت عليها بعد بحث طويل.. حفرت في كل مكان في المدينة.. ولم أترك أيّ مخبأ إلّا وفتشت فيه.. ولم أترك أيّ متاهة إلّا وكشفت عن تعاريجها.. بل إنّي قد تجرّأت على دخول أماكن النزق والمجون.. والنزل الفاخرة.. والمواخير التي كان الرجال يرتادونها في العهد البائد لهذه المدينة.. وبعد لْأيٍ شديد وزمان لم أعد أحصيه من عمري الطويل.. عثرت علىً نبتة الحرية وقد خبّأها الرجال في حديقة سريّة وراء هذا الجامع.. كانوا طيلة هذه السنين يخبّئون عنّا هذه النبتة ويمنعونها من الوصول إلينا.. لأنّهم كانوا يخافون من حرية النساء.. لذلك كانوا يُكثِرون من فقه النكاح ومن آداب المعاشرة ومن المحرّمات على الجسد..

أيّتها النساء الجميلات.. أنتن الآن في جنّة الحرية تفعلن ما تشأن.. تزرعن الأرض ورودًا وتفاحًا أحمر.. وتُكثرن من شجر الزيتون.. وإياكنّ وشجرة الحنظل.. عليكن أن تقطعنها من الجذور.. وأن تمنعن زراعتها بالقانون.. لأنّ في الحنظل عرق الذكور.. سيعود الرجال إلى مدينتكم كلّما أينعت حنظلة في أيّ ركن من الحقول.. سوف أعلِّمكن كيف تغرسن نبتة الحرية.. وكيف تحصِّننّها من الأعشاب الطفيلية.. وسوف تكون مدينتنا أجمل المدن في عيون الكواكب والنجوم..».

قاطعتها إحدى النساء في غضب: «اصمتي.. يا أُقحوانة.. نحن معشر النساء نحتاج إلى الرجال حتى تبقى الحياة ممكنة.. لا معنى للحرية بلا حياة.. ولا معنى للحياة بلا

أطفال.. لقد ضقنا ذرعًا بمدينة بلا ذكور.. أعيدوا إلينا رجالنا.. وإلّا أعلنّا عليكنّ العصيان النسائي..».

وتعالت أصوات حزب من النساء احتجاجًا على قانون منع الرجال عن دخول المدينة.. ومن حسن حظّ أقحوانة أنّهن مجرّد أقلية.. أخذت المصدح وأجابت: «هدّئن من روعكنّ معشر النساء.. ما هكذا تُدار شؤون النساء.. سوف يضحك منّا كل الأعداء.. أمّا عن الأطفال فقد جلبت لكم دواء يصلح للإنجاب دونما حاجة إلى الرجال.. دعونا من المسائل الجانبية.. ولنحزم أمرنا مع نبتة الحرية.. غدًا نلتقي في هذا الجامع لنتعلّم تقنية زرعها والعناية بها..».

صمت الجميع.. وبدأت كل النساء في تلاوة تراتيل صلاة الجمعة.. كانت تلك جمعة الإعلان عن نبتة الحرية.. لكنّ أقحوانة لم تكن مطمئنة لما سيحدث مع هذه النبتة.. ويبدو أنّ الملل قد بدأ يصيبهنّ من حكاية غياب الرجال عن المدينة، ممّ يهدّد بحرب أهلية قد تنتهي إلى كارثة..

وانصرفن يزرعن نبتة الحرية في كلّ مكان.. أسبوع كامل وأقحوانة تعلّم النساء فلاحة الأرض وزرع الورود في حديقة الجامع الكبيرة.. وفي حين انشغلت عاتكة ببناء الجدران وتحصين سور المدينة.. راحت أناهيد توزّع الشاي على الجميع.. متمسكة بصينيتها الفضية وبكؤوسها البلورية.. عازمة على لفّ شعرها جيّدًا تحت حجابها القزوردي..

إلى أن حانت جُمعة أناهيد..

ذاك صباح استثنائي في حياتها.. لأول مرّة سوف تخطب

في النساء.. ولأول مرّة ستصنع المشهد.. لبست فستانها الوردي وغطّت رأسها بأجمل حجاب.. واتّجهت نحو المسجد الكبير.. وانطلقت تخطب بصوت خجول: «السلام عليكنّ يا نساء المدينة العفيفات.. باركَكنّ الله وعلّاكم عن سائر المخلوقات. ونصر مدينتنا على أعدائها وعلى كل الرجال الذين يريدون تحويلنا إلى جواري وقينات.. وإنّي جئتكنّ اليوم أقترح عليكنّ الشروع في برنامج إنجاب طويل الأمد.. جئت أعلّمكنّ كيف تستعملنّ دواءً جديدًا للتناسل دون رجال.. إنّه نبتة جبلية غير مضرّة للصحّة.. كلّما شربتنّ منها كوبًا واحدًا كلّما حبلتنّ بطفلة جميلة.. حذار من شراب كوبين من هذا الشراب.. فكل زيادة فيه تؤدّي إلى ولادة ذكر مضرّ بمستقبل المدينة.. وإنّي الآن بصدد استكمال مخبر لتصنيع هذا الدواء ضمانًا للإكثار من جنس النساء.. سوف تكنّ مصنعًا كبيرًا لإنتاج البنات.. وهكذا سننتصر على جنس الذكور ونستغني عن وجودهم معنا في المدينة».

وانتهت صلاة الجمعة بسلام.. لا أحد من النساء كانت ترغب في مناقشة هذا القرار.. انصرفت كلٌّ إلى حالها..

وحين أسدل الليل ظلامه على المدينة، واستسلمت أقحوانة إلى النوم.. خرجت مجموعة كبيرة من النساء في مظاهرة عارمة.. كانوا يطالبون بعودة رجالهم ويحتجون على مشاريع أقحوانة وأحلافها..

وحين كانت النساء يتجادلن في أمر سياسة المدينة كان الرجال يتلصّصون عليهن من قمر صناعي بعيد.. ضحكوا من غرابة أمر النساء.. وقرّروا محاصرة المكان واقتحامه.. خرجت

عليهم أقحوانة والشرر يتطاير من عينيها.. وصاحت بهم: «ما الذي أعادكم إلينا بفقهكم وحيلكم وفظاعة تاريخكم مع النساء.. أيّها الأوغاد.. ابتعدوا عن مدينتنا وإلّا أصابتكم نبتة الحرية بمرض عضال».

ضحك قائدهم جسّاسًا وقال: «لا تغضبي يا أقحوانة. إنّ ما حدث هو فحسب فسحة لكتابة الحكاية. لكنّكم معشر النساء لا تتقنّ العيش بلا رجال إلّا داخل الرواية»...

❋ ❋ ❋

لا ذنب على الورود..

حلّقت روحها في سماء الحديقة.. جاءت بعد ألف عام وألف قتيل وألف حكاية لم تجد طريقها بعدُ إلى الحرف.. فجأة راودتها رغبة ملحَّة في حراسة طفلتيها.. وتملّكها إحساس غريب بقرب حدوث أمر ما لم تقدّر جيّدًا خسائره.. أنشدت في نحو من بثّ الفرح بأرجاء هذا البيت ومقاومة للأقدار الخبيثة.. راحت تغنّي من سراديب روحها السريّة الغامضة..

حرّري ورودك..
لا تمُوتي..
وانثري حدائقك
على دموع الياسمين
سيّان عندك أن تنامي
على ورق الزبرجد
أو على دموع الراحلين
كوني لحنًا.. كوني سفرجّلًا
كوني بلّورًا للقلب الحزين
كوني عطرًا للعاشقين..

إيّاك أن تُغلقي أبواب الروح
ففي العشق حُبّ
وغيم وسكّر للقادمين..

يوم ربيعي جميل والشمس تحضُن الكرة بوابل من نور.. وهاهي الزهور أينعت وراحت تنثر عطورها في كل اتِّجاه.. لا أحد يدرك مدى خطورة هذا اليوم من سكّان المدينة الحاليين والممكنين والذين استحال عليهم اختراق حدودها.. كل الأيام في هذا المكان الملغّم بالأحداث الغامضة مستاءة من تتالي الوقائع الغريبة ومن المجهول.. كم اشتاق الجميع إلى التشابه والتكرار والنسخ والمسخ.. طلبوا الجديد بكل حرص فسقطوا في الغريب والمشين والهجين.. وهاهم اليوم يحلمون بالاستقرار واعتدال الزمان بعد أن خرجت كل أقدارهم عن طورها..

كانت نافذتها تطلّ على الحديقة.. وكانت الورود تستقبل وجهها الملائكي كل صباح ببشرى جديدة.. وتسرع عيناها الجميلتان إلى اختطاف الشمس وتظلّ تحملها كامل اليوم دون كلل ولا ملل..

إنّه يوم السبت.. اليوم راحة الله وراحة لؤلؤة.. طفلة في سنّ الزهور.. ما أجمل هذه الصدفة.. أن يلتقي الله مع الطفولة، لكن ما همّ الآلهة وأيّام البشر...

رائعة هي كل أيّام السبت.. تعودت أن تقضيها في اللعب بالحديقة ربيعًا وبالدمى شتاءً.. أمّا هذا اليوم فهو يوم استثنائي.. إنّه عيد ميلاد أختها ياقوتة تصغرها بسنة واحدة

وتشعر إزاءها بمشاعر الأمّ.. إنّها عالمها الوحيد إلى جانب زهور الحديقة والقطّة سوسو..

قرّرت أن تعدّ لأختها مفاجأة سارّة.. لا شيء يفرحها غير دُمية كبيرة.. فهي الأخرى لا تحبّ غير اللعب بالدمى تقضّي كل أوقات فراغها تحاكيها.. ذلك أنّها فقدت أمّها صغيرة جدًّا.. بل هي لا تذكر حتّى ملامح وجهها.. ومنذ صغرها لا تحبّ الخروج إلى أيّ مكان.. وتفضِّل المكوث ببيتها.. أمّا الأب فهو يقبع كل مساء في الصالون أمام شاشة التلفزيون منشغلًا بأخبار البلاد تائهًا عن الطفلتين.. ونادرًا ما يتحدّث الجميع في هذه العائلة عن أيّ شيء مهمّ.. عدا بعض الأسئلة السخيفة التي يكرّرها الأب كل مساء: «هل تعشّيت.. وأنتِ.. هل أتممت دروسك.. اذهبي الآن إلى غرفتك.. نظّفي أسنانك واستعدّي للنوم..».

كان الصمت سيّد البيت.. كان الجميع يتقن هذه المهارة بشكل مذهل.. كأنّما خُلقوا لهذا الغرض.. أو كأنّما ثمّة سرّ حزين يلتفّ بالجميع ويحوْلهم دون الكلام الساذج.. كلّ وعالمه الخاصّ.. وكلّ ولغزه الذي يُصرّ على دفنه جيّدًا في بئر أحشائه العميقة.. لا مجال للتواصل بين الأرواح ولا بين القلوب.. وربّما ثمّة سرّ قديم وثمّة حزن مكين يحرص الأب على إخفائه عن الطفلتين.. لكن لا أحد منهما تجرّأت يومًا على السؤال.. ما شأن الأطفال والأسئلة القاتلة.. كم من حياة ممكنة تنتظر كل واحدة منهما.. لا وقت للموت قبل الأوان..

يومئذٍ قرّرت لؤلؤة أن تتوجّه باكرًا إلى مغازة المدينة

لاقتناء لعبة عيد ميلاد وها هي تصرّ للذهاب وحدها لأول مرّة.. خلسة عن أبيها وعن أختها.. فالمغازة كانت قريبة من البيت وسنّها اليوم يسمح لها بقليل من المغامرة التي تقتضيها روح المفاجأة والإثارة..

فتحت خزانتها تبحث لنفسها عن الألوان المناسبة للاحتفال بيوم لا يشبه الأيام الأخرى.. فداهمها اللون الوردي والسماوي.. كل يراودها على نفسه بعد أن سئم من حياة الخزانة الكئيبة.. لكنّ أشدّ الألوان إغراء لها هذا اليوم هو اللون الأرجواني.. أشدّها نجاحًا في الاقتراب من جسدها الصغير..

خرجت تحثّ الخطى.. ومن بعيد أبصرت جموعًا حاشدة من الأطفال يصطفّون أمام مغازة اللعب.. وضجيج وصراخ ولخبطة غريبة.. ركح عجيب.. ما الذي أتى بهم إلى هنا؟ فلم يحدث أن رأت جمعًا غفيرًا بهذا الشكل إلّا يوم شيّعت جثمان أمّها.. أيّ حدث جلل يستقبلها في هذا اليوم؟ ولماذا يصطفون صفوفًا صفوفًا أمام هذه المغازة؟ هل صار الجميع يحبّ اللّعب إلى هذا الحدّ؟ أم هو عيد ميلاد كل الأطفال في المدينة؟.

اقتربت في ذهول وعجب.. وإنّ أشدّ ما لفت انتباهها هو أنّ كل المصطفّين كانوا من جنس البنات.. هل اندثر الأولاد دفعة واحدة؟ وقد سمعت هذا الأسبوع أباها يحدّث أحد أصدقائه في الهاتف قائلًا: «لقد تكاثر عدد الإناث وتضاءل عدد الذكور في هذه البلاد.. ويبدو أنّ جنس الرجال سيندثر

قريبًا بسبب فيروس غذائي تسرّب إلى الأرحام على سبيل الخطأ فقضى على نبتة الذكر ولم تصمد غير نبتة الأنثى».

.. لكنها لم تكن تدرك مدى خطورة هذا الخبر.. وربّما تكون قد فرحت بانهزام الذكور وباكتساح الإناث فضاء المدينة.. لكنّها لا تدري اليوم هل تفرح أم تحزن لهذا الأمر.. ممّن ستتزوّج ومَن سيكون أبًا لأطفالها إذًا؟ وهل ستبقى هي وأختها عوانس إلى آخر الزمن؟ وتذكّرت فجأة صديقها وليد بالمدرسة.. هل ستنفرد به أم ستنافسها فيه العديد من البنات؟ هل عليه أن يعدّد الزوجات كواجب وطني ومن أجل استمرار الحياة.. أحسّت بالدوار.. وبثقل هذه الكوابيس على عقلها الصغير.. وإذ هي تسمع هاتفًا من بعيد.. كان طيفًا أو ملاكًا أو روحًا قريبة جدًّا من روحها.. نادَتْها بصوت حنون: «أسرعي يا ابنتي.. غيّري وجهتك.. ليس هذا اليوم يومك.. إيّاك وأن تصطفّي في هذا الصفّ.. عودي سريعًا من حيث أتيت».

لم تفهم أيّ شيء من هذه الرسالة.. وانتابتها الحيرة ثانية: «مَن تُراهُ يناديني؟ ومَن تُراه يخاف عليّ إلى هذا الحدّ؟ ولماذا عليّ العودة ولم أشتَرِ بعدُ ما خرجت من أجله؟ لم يسبق لي أن أسمع مثل هذا الصوت.. وإن كانت هي روح أمّي.. لماذا لم تُكلّمني إلّا في هذا اليوم؟ ربّما ثمّة قدر مريع ينتظرني.. وربّما جاءت لتنذرني.. لكنّ ياقوتة أختي تنتظرني.. ولن أعود إليها إلّا ودمية جميلة بيدي..».

واصلت السير باتّجاه المغازة.. لقد كان فضولها أكبر من صوت أمّها التائهة في الأثير.. وعاودها النداء ثانية.. وحرصت

الروح على ضرورة أن تعود.. لأنّ هذا الطريق محفوفة بالأهوال.. لكنّها لم تلبّي النداء وأسرعت إلى الصفوف تبحث لها عن مكان بينها..

لا أحد كلّمها ولا اهتمّ بانضمام عضو جديد إلى الركح.. قرّرت الوقوف في صمت إلى حين يأتي دورها..

استيقظت ياقوتة من النوم متأخرة.. تململت في كسل.. فركَت عينيها.. وحدّقت إلى فراش أختها.. كان الفراش فارغًا أسرعت في فزع إلى الحديقة تناديها.. لكن لا أحد أجاب نداءها.. وحتّى أبيها يبدو أنّه غادر باكرًا من أجل قضاء حاجات العائلة من السوق.. أحسّت بالخوف واحتارت على أختها التي لم تتعوّد أن تغيب من دونها.. جلست إلى الأرض تعانق القطّة سوسو وتُحاكيها لتمضية الوقت..

جاء دورها.. دخلت بهو المغازة.. كان يكتظّ بالطفلات وبأسرّة بيضاء وبالطبيبات.. فزعت من هذا المشهد.. لم تَرَ لا لُعبًا ولا دميات.. هل أخطأت المكان؟ أم أنّ مغازة اللعب قد تحولت إلى مستشفى.. لكنّها لا تشكو أيّ مرض.. ما الذي ساقها إلى هذا المكان؟.

مسكتها من يدها وجرّتها إلى غرفة مغلقة.. صاحت بها: «ماذا تفعلين بي.. أيّتها الطبيبة.. لست مريضة.. لكنّي جئت إلى هنا لاشتراء لعبة أهديها لأختي.. فاليوم عيد ميلادها..».

ضحكت وقالت في تهكّم شيطاني: «بل اليوم عيد ختانك.. أيّتها الطفلة الحمقاء..».

صاحت مرعوبة: «هناك خطأ ما أصاب نظام المدينة..

أنا لست ولدًا كي تختنوني.. أيتها الطبيبة المجنونة.. ابتعدي عنّي.. أنت مخطئة.. أو مجنونة أو أنت شيطانة ولا علاقة لك بنواميس المدينة»..

شدّدت قبضتها على البنت.. ومدّدتها على فراش حاضر لاستقبال أجساد الفتيات الصغيرات.. جرّدتها من كلّ ثيابها.. وأحكَمَت ربط يديها وساقيها إلى السرير.. كانت تصرخ وتصيح وتبكي بكاءً مُرًّا.. لكن لا أحد استجاب لها. صاحت بها في قسوة: «كل مَن دخل إلى هنا من البنات وقع خفض أعضائهنّ دون أيّ مقاومة.. لماذا أنت فقط تحتجّين على هذا القانون الجديد الذي سينظّم الحبّ والجنس والعائلة في المدينة؟..».

.. في تلك اللحظة دخلت طبيبة أخرى.. وقد سمعت صراخ البنت وصاحت بها: ماذا تفعلون بهاته الأجساد الصغيرة؟».

فقالت الطبيبة الأخرى: «لا دخل لكِ في الأمر إنّ طبَّك لائكي كافر مخالف لأحكام الشريعة.. اخرجي.. لا مكان لكِ هنا.. إنّ أجساد البنات لا يهمّ الأطباء، بل هو ملك للفقهاء»..

فأجابت الطبيبة اللائكية مصدومة:

«أيتها الطبيبة الحمقاء.. أنتم بصدد جريمة جديدة في حق البنات.. تبترون أعضاءهنّ بتعلّة الأخلاق الحميدة وكبح الشهوات.. مَن هو الحاكم الأحمق الذي سنّ هذا القانون الفظيع؟».

لم تُجِبْها واكتفت بوخز الطفلة الصغيرة في يدها بحقنة مليئة بالمخدّر.. ثمّ غادرتها إلى طفلة ثانية كانت تنزف لخطأ طبّي ارتكبته الطبيبة في حقّها.. لكنّها لم تستطع إنقاذها.. ماتت البنت وتجمَّدت الدماء في عروقها الصغيرة في حين أنّ بقية من دماء حيّة ما زالت بصدد السيلان على قاعة الغرفة..

عادت الروح التائهة تحلِّق في سماء الغرفة.. ترمق فظاعة المشهد.. كان صفًّا كبيرًا من الأجساد الصغيرة فوق أسرّة حديدية طويلة ممدودة في حالة تخدير.. كلها تنتظر ختان العضو المحرّم.. على أن يبقى طبيعيًّا وأن يحتفظ بجموحه البريء... وفوق الجدران لافتات مكتوبة بالأحرف الغليظة: «ختان جماعي لكلِّ طفلات المدينة».. اختلطت في روحها الهشّة الصور والخيالات.. هل هي في الواقع أم في المستحيل أم هي تسقط مع كل شخوص الركح في هاوية الجحيم.. كانت تتأرجح بين الأمّ والدم والرحم والطفل والنسل والجنس.. لا تذكر أنّها مرّت بهذه الكارثة وأنّ جسدها القديم كانوا قد مدّدوه وأوثقوا رباطه وخدّروه بحقنة مجهولة النتائج.. وهي لا تذكر أنّهم بتروا شيئًا من أعضاءها.. رغم أنّ المدينة التي عاشت فيها كانت هي الأخرى قد نكّلت بسكّانها على طرق شتّى.. لكنّ كارثة المدينة الآفلة أرحم من كارثة هذه المدينة الجديدة.. تمنّت لو لبست جسد لؤلؤة وختنوها مكانها.. فهي لم تَعُدْ تحتاج إلى أعضاءها الجنسية تحديدًا.. لماذا لا يكتفي هؤلاء الذين أصابهم هوس ببتر أعضاء الإناث ألا يكتفوا بتشريح أعضاء الموتى وبترها.. فلا حرج على ميّت لا يُتقن التناسل.. ولا حَرَج على ميّت مخصيّ..

وانقطعت كلماتها عن التدفّق فجأة.. لقد راعَها مشهد فظيع.. هاهم يقتربون من جسد طفلتها الصغيرة بمقصّ خبيث وإبرة خياطة وحقنة حادّة.. شطفوا جلدة صغيرة من عضوها الأسفل الذي بالكاد اتّضحت معالمه.. كانت تحملق بالمقصّ الفظيع.. بدا لها كأنّه مارد أو ملك من الجنّ.. لا بل كأنّه طاغية من طغاة العرب الراحلين.. لم تكن تستطيع فعل أيّ شيء واسترسلت بالدّعاء عليهم بكلّ أنواع اللعنة الإلهية: «اللهمّ اجعلهم من العميان حتى يبتعدوا عن طفلتي.. اللهمّ شلّ حركتهم وعطّل آلاتهم وغلّق عليهم هذا الركح الفظيع.. اللهمّ امسخهم خنازير وأرسل جثامينهم النتنة إلى الجحيم..».

وداهم المقصّ الخبيث العضو الضعيف فبتره.. وانهمر الدم من الجرح.. وسالَ دمعها على جسد طفلتها.. وامتزجت الدموع بالدماء والجرح بالحرف والروح بالموت.. والطيف بالجسد.. لا أحد كان بإمكانه أن يتدخّل لمنع ذاكَ القدر.. أدركت حينئذٍ أنّها جاءت بعد فوات الأوان وأنّها هاجرت طفلتيها قبل أن يحين الأوان..

تذكّرت طفلتها الثانية.. فطارت على الفور إلى البيت تبحث عنها وفي روحها حلم وحيد.. أن تقدِر على منعها من مغادرة المنزل..

وصلت في لمح البصر.. لكنّها وجدت المنزل خاليًا تمامًا.. وراحت تخبط خبط عشواء.. لماذا تموتين قبل وقت موتك؟ ولماذا أنجبتِ هاتين الطفلتين وغادرت بلا رجعة؟ لم تكن موتتك موتة مسؤولة يا ياسمين.. لقد تلاعبت بمصير

بناتك وعبثت مع الأحلام فصارت كوابيسًا ولعنة عليك.. وها أنتِ تموتين ثانية دون أن يشعر بموتك أحد ودون أن يشيّع جثمانك أحد.. فالبشريون لا يتقنون دفن الأرواح.. ولا يقدرون إلّا على وأد الأعضاء.. لم يكن من حقّك أن تخطئي بهذا الشكل.. تعوّضين خطأ بخطأ آخر وتبذّرين الكوابيس وتحلمين بالسراديب والمتاهات.. كم أنت أقلّ من بشر وكم أنتِ أكثر من كارثة يا ياسمين.. لقد نكّلت بالياسمين من الشجر فاضطُرّت الحديقة أن تزرع بدلك شجر الدفلة.. فزهورها أكثر قدرة على الظلّ وعلى حماية الورود الصغيرة والأعشاب التي لا أهل لها..».

قَدِمَ زعفران يحمل البنت لؤلؤة بين يديه.. وضعها في فراشها.. داعبها قائلًا: «نامي يا ابنتي سوف تتعافين في الغد.. لا شيء حدث لك.. هو ختان طفيف كان للأولاد قديمًا ووقع تعميمه على الجنسين.. لحكمةٍ لا يعرفها غير الحكّام الجُدد.. نامي يا ابنتي سوف أهديك غدًا دمية جديدة..».

ردّت الروح التائهة في غضب: «ماذا فعلت بها يا زعفران.. إنّك لم تكن في مستوى الأمانة.. لماذا تركتها فريسة هؤلاء الذئاب الذين جاؤوا في زمن البؤس يتاجرون في أعضاء النساء؟».

أجابها في سخريّة: «بلى يا ياسمين.. عودي إلى روحك مطمئنّة.. علينا أن ندفع بالكارثة إلى أقصى حدودها علّ المستقبل يأتي إلى هذه المدينة من جهة أخرى»..

كبُرت لؤلؤة وكبُر وليد.. صديقها القديم.. وهاهو يطلبها

إلى الحبّ.. لكنّها لم تكن تشعر حياله بأيّ شعور مثير.. ضمّها إلى صدره وهمّ بتقبيل شفتيها.. دفعته باكية: «ابتعد عنّي.. لقد مِتُّ منذ زمن طويل.. لا شيء أحسّ به حين تضمّني إليك لقد وَأدوني وقتلوا فيّ الحبّ والجسد والحياة. لا شيء أهديكَ إيّاه غير جثمان بارد.. وبعض من جمال قديم».

ردّ عليها في فزع: «ألم تعديني بطفل جميل أنجبه من جمالك منذ كنّا أطفالًا يا لؤلؤة.. تمسّكي بوعدك واحلمي قدر المستطاع.. سأحييك ثانية وأهديك كل حياتي».

أجابت في حسرة عميقة في عمق جرحها: «عليك أن تغادر هذه المدينة يا وليد.. فلا شيء أينع فيها غير مهارة الإخصاء.. لقد حقنوا كل النساء بمخدّر يجعلهن عقيمات.. ارحلوا بعيدًا أو ادفعوا بكلٍّ هذا الركح إلى الخراب..»...

أمّا ياقوتة فقد سافرت إلى مكان بعيد هربًا من ختانها وظلّ جسدها خائفًا من شبح المقصّ.. ورغم ذلك عاشت لؤلؤة سنين عديدة لا أحد يحصيها... ومَن يقدر على احتساب عمر الزهور...؟.

❋ ❋ ❋



زهور جهنم..

جلست على باب جهنّم تُغنّي آخر أغانيها قبل أن تُدفَع نحو الصراط المستقيم.. لكنها تعلم جيدًا أنها لم تكن تملك أيّ شيء مستقيم.. كانت تفضّل دومًا الهندسة الحمقاء والخطوط المنحرفة.. قالت:

«مَن غلّق الأبواب في وجه السنابل؟

مَن حوّل زهوري إلى قنابل؟

هرّبوا الحلم بعيدًا..

صرت غمامًا وسحابة

صرت كئيبة مثل الكآبة

كابوس وسجن جديد...»

قاطعها متهكمًا:

«ها أنت يا أقحوانة تدفعين بنا رأسًا إلى الجحيم.. ماذا فعلت غير زرع الصحاري في كلّ ركن من أركان روحك.. وماذا فعلت بحروفك الحزينة غير توريطها في نهر العدم؟ ألا تخجلي من إرادة الهلاك التي تنثريها وبالًا على الجميع؟ ها أنتِ تبتلعين الجميع بين أحشائك وتدهسينهم بلا رحمة.. أيّ روح غريبة أنت يا أقحوانة..؟ وماذا فعلت بأبنائك غير الزجّ

بهم في سراديب كوابيسك القديمة؟ أنت كابوس أم كارثة؟ لماذا أسقطت كل شخوص الركح في قاع الهاوية؟ ماذا تبقّى لك غير الخراب تبذرينه على كل العابرين والصاعدين في تفاصيل أوهامك؟

تدوّي قهقهات مريعة في الأثير.. ويأتي صوتها يتهادى في كبرياء وصلف.. صلدة كانت كجلمود صخر كأن لم تخترقها الحكاية.. وكأن لم تَعبُر كل هذا الداموس الطويل.. صاحت قائلة:

«مَن أنت أيّها المتعجرف المتغطرس الجحود الناكر للجميل.. ألم أجدْك تائهًا فآويتك داخل سقفي ودسستك بين جرحي وحرفي؟ وما الذي ساقك إليّ في عمق هذي المهاوي؟ وأيّ نوع من الكائنات سمحَت لك بأن تعكّر علينا صفو الكلمات الراقصة والأحداث الآتية؟ مَن جاء يعطّل فجري هذا اليوم؟».

«أنا شيطانك يا أُقحوانة. ضقتُ ذرعًا بحياة التسكّع بين الأشباح والأرواح المذنبة.. وجئتُك اليوم أطلب استقالتي من منصبي.. سوف أتّخذ لنفسي حياة أخرى.. أريد الرحيل إلى جسد جديد.. أريد أن أزرع حدائق جميلة وأن أرقص حذو الزهور البريئة.. كفاني سياسة وسخافة.. لم أعُدْ أتحمّل حماقات هذي المدينة التي تحمِّلينها على ظهري كأنّي بغل قديم».

تقترب أقحوانة.. وتهمس له: «هدّئ من روعك أيّها الكائن المريع.. كفاك تذمّرًا.. سوف أخترع لك وجهة أخرى..».

قاطعها في لهفة: «وإلى أين ستذهبين.. لقد جبت بنا البحر والبرّ.. والأعماق والسطوح.. والثورات والانهزامات. وعبَرْت بلاد الغول والمغول وقابلت شهريار والمارد الأسود.. وفتحت قرطاج ثانية ودمّرت الماضي والآتي.. لقد ألّبت اليسار على اليمين وأضحكت اليمين على اليمين.. ونكّلت بكل الصدفات.. لقد قدّمت أبناءك قرابين لركحٍ انهار بالجميع.. ماذا تبقّى لك غير الجحيم؟».

ردّت عليه في تهكّم: «هو ذاك أيّها الشيطان الجميل.. أنا أطلب الجحيم.. أيتها الروح الواهنة العجفاء لا تستعجل على النهاية.. ليس هناك يوم أخير.. ثمّة دومًا حياة وحكاية.. أجساد جديدة وبلاد جميلة تنتظرنا في مقطع كل رواية.. مدن وحدائق داخل كل روح تطفح بالرغبة وبالعذاب وبالبأس والضراوة والوحشية.. لست مفترسًا بما يكفي.. لست شرسًا بما يكفي.. لست شيطانًا بما يكفي.. تريّث قليلًا.. سوف تنضج تدريجيًّا على يديّ.. سوف أجعلك كائنًا رخاميًّا.. أيها الرخوي المخنّث الملبّد بالسماوات القديمة».

أجاب في غضب: «أنتِ تعيّريني الآن يا أقحوانة وأنا مَن صاحَبك وآنسك وغذّى وحدتك بالعشق والشبق والكوابيس والنزق.. أيّتها الرخوية البشرية الثديية.. لم يبْقَ لديك بما تعديني.. أطلقيني بعيدًا.. إنّ جسدك يُحتضر.. فبأيّ جسد سأحيا بعدك؟».

قاطعته قائلة: «ما زال لديّ بعدُ حرائقي أهديك إيّاها قليلًا قليلًا كلما نجحنا في الدخول معًا إلى الجحيم.. ليس لي

جسدٌ أقدِّمه قربانًا لموتة حمقاء.. أنا كائن ناريٌّ لا يموت محتضرًا على فراش كسول.. أنا أحترق كل يوم بمقدار الحرائق في بلدي.. كُنْ قنوعًا بقدرك معي.. وإلّا ورّطتك في أجساد فارغة لا مكان فيها لغير الغازات السامّة».

هدأت نفسه.. ولانَت وتذكّر عطورها ولياليها وحركاتها النارية وحكاياها العسلية.. كانت تلاطفه أحيانًا وتُضحِكه أخرى.. وبالرغم من أنّ لحظات عذابها وغضبها وكآبتها وشؤمها أكثر من لحظات عشقها ولطفها وحبها.. قرّر أن يغفر لها وأن يحبّ قدره معها.. فهو لا يحب النفوس الوديعة والمطيعة والخائفة والواهنة والضعيفة..

اقتربت منه في تؤدة.. جذبته إلى صدرها تستعيده إلى الداخل في حركة غامضة لا تُتقنها غير النساء.. حملته بين أحشائها واتّجهت به نحو منزلها الواقف في آخر الجحيم.. بيتٌ من قصدير ونار تضطرم في فنائه.. تراقصت ألسنة اللهيب فرحًا بقدومهما..

«توهّجي أيّتها النار المباركة.. توهّجي وانتعشي.. اليوم حفل بهيج.. إنّه عرس زمرّدة جارية النهر الأرجواني على خزعبل أحد أسياد زبانية جهنّم..».

انتعش الشيطان شلولم.. وهمس إلى نفسه «ثمّة الكثير من العمل ينتظرنا هذه الليلة».. لقد كان يعلم أنّه المخوّل الوحيد الذي سيحضر هذا العرس كاملًا وبكلِّ لحظاته، بل.. من دونه لن يقع هذا الأمر.. وأيّ عرس هو وأيّ عروس.. تلك الجارية الهيفاء ذات الحسن والبهاء.. كيف ارتضت ذاك

المارد القبيح زوجًا لها؟.. آهٍ لو كنت قد سجدت للآلهة منذ بداية الخلق لسمحوا لي بجسد لحمي ولكنت قادرًا على تزوّجها بدلًا من زبانية جهنّم..

سمع صوتها الغاضب من بعيد: «أين أنت أيّها الشيطان الماكر.. التحق بي إلى حديقة المنزل.. ثمّة حفر عميقة في بيتنا يا شلولم».

التصق بها هلوعًا: «عن أيّ حُفرٍ تتكلّمين يا أقحوانة.. إنّي لا أرى غير الزهور والأعشاب الجميلة».

أجابته: «نعم هاهنا حُفرٌ تنتشر في كل مكان.. وليس لأنّك لا تراها هي لا توجد.. عليك أن تعدّل عيونك على التحديق بالمهاوي والمغاور.. هذه الحُفر تهدّد الزهور الصغيرة التي لا تحسن العيش إلّا بين أنامل الثرى القريبة من أيادينا..».

قاطعها على عجلة من أمره: «أسرعي يا أقحوانة لقد سئمتُ ألاعيبك وعشقك للنبش في الأعماق.. أرني هذه الحُفر حتّى أتمكّن من ردمها.. إنّي مدعوّ إلى أعراس أخرى.. فكل انفعالات أهل الجحيم تنتظرني.. أنت تضيّعي عليّ سوقًا كاملة في آداب المعاشرة والنكاح والختان.. فقد انتعشَت تجارة الزواج بأشكاله هذه الأيام من زواج الساعة إلى زواج المسيار إلى الزواج النهاري إلى الزواج العرفي.. إلخ.. كلها استثمارات في ماكينة النسل البشري التي لا تستقيم من دوني».

صاحَت به وقد فرغ صبرها على ترّهاته وفتاويه الزائفة ونهمه على اللحم البشري: «تمهّل أيّها المتلهّف على النهايات.. أيّها المستعجل على الاستقرار بين أحشاء الظلام

غير آبهٍ بما سيحدث لعُشّاق النور بعدك.. كلّ الطامعين في الغنيمة وكل الجائعين على القيامة لن يحصدوا غير أوهامهم وانفعالاتهم القديمة.. احذر من التهوّر يا شلولم.. قد يسقط بنا المستقبل ثانية في الذاكرة القديمة.. وقد نجرّ الجحيم إلى مستقبل مضى منذ زمن في غفلة منّا..».

سأل في استغراب: «عن أيّ مستقبل تتحدّثين؟ أم نسيت أنّي لست من الآدميين.. وأنّ الشياطين لا يهمّهم إلى أين يسير بهم القدر.. إنّ الزمان كذبة البشريين لاحتساب الساعات التي تفصلهم كل يوم عن حتفهم.. وعن أيّ حُفر تبحثين؟ ليس في حديقتنا غير السطوح المزركشة بالأقحوان وشقائق النعمان والياسمين.. ألا ترين أنّنا في عرسٍ جميل وأنّ الموائد مبسوطة من أجلنا يملؤها التفّاح والعنب واللّحم السمين..».

ردّت في سخرية: بلى.. إنّما هو حفل خليع.. وأحشاء عطنة وبقايا بشرية مخجلة.. ولحوم مخزية جلبوها غصبًا عنها.. أغلق عليّ باب الجحيم.. قبل أن يصدّق أهلي بهذه الغنيمة الكاذبة.. سيصلون حتمًا بعد حين متكالبين على الغنيمة.. أبعد عن طريقهم هذي السراديب القاتلة».

تقدَّمَ من قلبها أكثر وبدأ يدبّ في عروقها العميقة.. محاولًا أن يفهم ما تريده هذه المرأة الشيطانية المحترفة.. كيف تفوز عليّ في المكر والخداع والترعيب؟ كيف تنجح جيّدًا في لعبة الخفاء والغموض؟ من أين لها كلّ هذه المهارة في سكن المغاور الدفينة للبشر وأنا الذي خلت نفسي أقدر من أيّ إنسي وجنيّ على الاندساس في متاهات الشرّ الكوني..؟

أحسّت بدبيبه السريّ وسريانه البطيء بين دمائها.. لقد نجحت في استيعابه يا أقحوانة.. هكذا تكوني قد ابتلعت كل شيء في أحشائك.. ألا تذكرين ما فعلتِ بأبنائك؟ لقد مسختيهم أطيافًا من الكائنات من أسماك إلى أشباح إلى شهداء إلى شهرزاد وشهريار.. هل ما زلت تذكرين زعفران وياسمين؟ أين زجّ بهما قلمك اللعين؟ وهل تجرّبين في أطفالك الحقيقيين؟ ألا تخجلين؟..

أرادت الخروج من هذه الدائرة المربّعة.. هندسة حمقاء سجنتها بين شيطان كسول وأحلام صارت إلى كابوس وثورة شعبٍ تاهَت في منحدرات الداموس.. شعرت بالذنب تجاه ابنها زعفران والطفلة ياسمين التي وُلدت فجأة من غصن يتيم سقط شهيدًا في حديقة بعيدة.. وقرّرت أن تنقذهما من شهرزاد التي مسختهما لحمًا للحكايا وغلّقت دفّتي الكتاب وألقت به في أحد سراديب جهنّم.. خوفًا على حكاياتها من الحرق من طرف ملوك العرب..

فاجَأها بطلب غريب: «ما رأيك يا أقحوانة أن نعقد عقدًا بيننا.. أنا أردم لكِ كلَّ مهاوي جهنّم وأجعل الأرض تستوي بين أياديك.. وأعيد للزهور الأمن والطمأنينة.. وأنت تحرّريني من جسدك الذي صار هرِمًا غير قادر عن إيواء الشياطين وعن إتيان المجون؟».

ردّت عليه بصوت خافت كمن يفشي سرًّا خطيرًا: «اسمع يا شلولم.. سوف أأتَمِنك على سرٍّ يبقى بيننا طيلة مماتنا في هذا الجحيم.. إنّي خائفة على هذي المدينة.. إنّها قرطاج

العظيمة.. بيت عليّسة التي أخفت في أعماقها كل الجلود وكل أسرار الخلود وكل ثروات روما القديمة.. قرطاج هي بيتنا وهي جهنّم التي لا تراها العيون الكسولة.. زرعوها ألغامًا وحفروا حدائقها في كل مكان بحثًا عن الذهب والزبرجد والياقوت.. لم يجدوا غير أطماعهم.. لكنّهم تركوا لنا الحفر في كل مكان.. اكتُم هذا السرّ.. ولا تجعل أحدًا يقرأ هذه الرواية.. سنكون أضحوكة أطفالنا القادمين.. هيّا أسرِع نظّف معي أركان الحديقة من الألغام الخفية.. وإيّاك أن ينفجر عليك لغم منها.. احذر من السقوط.. حدّق جيّدًا بكلِّ ما أوتيت من عيون.. يكاد السرداب يبتلعك قبل أن تخطو خطوتك الأولى»..

وقبل أن يبدأ عملية تنظيف الحديقة.. لاحَ له من بعيد مشعوذ يجلس على صخرة من مرمر منقوش بحروف رومانية.. ونار في عنفوانها تراقص اللهيب وتنذر بحريق آخر.. كان يجلس القرفصاء مرتعشًا من صقيع أوهامه.. وها هو يتمتم بلا انقطاع ويُلقي بالجمرات رجمًا للأرواح الساكنة في ضباب الجحيم.. وفجأة لاحَ له طيف امرأة من نار عارية تمامًا تمدّ بأيديها نحوه أن أنقِذْني من نيراني وخلّص جسدي من فظاعة هذا العري.. كانت أشبه بملاك خرجت للتوّ من الغمام..

أصابه الهلع الشديد.. أزبد وأرعد وصاحَ ساخطًا: «إليّ يا زبانية جهنّم بثوب يستر عورتها وبِعَصا حديدٍ لجَلْدِها.. هيّا احجبوا عنّي ذنوبها واجلدوها مائة جلدة.. لقد ضقت ذرعًا بأجساد الحوريات الملقاة على قارعة هذا الطريق»..

وما أن صمَت المشعوذ حتّى تقدّم منه أحد الزبانية.. كان

ماردًا أسودًا في قامة السَّماء.. أشعث أغبر مكفهرّ مزبهلّ مزبد معربد.. وكان يحمل الكارثة في أخاديد وجهٍ مثقلٍ بالخطايا وبدموع السبايا ودعوات الرعايا.. ألقى على جسدها النحيف المتوهّج بلهيب النار الموقدة نقابًا جاهليًّا أسودًا حالكًا كليلٍ بلا فجر.. لملمها في حركة متوترة كمن يلملم كيس قُمامة.. ارتعدت فرائصها خوفًا ورعبًا.. وانهمرت الدموع من عينيها طوفانًا.. ألحّت عليه بإطلاق سراحها مقابل كأسٍ من خمرة معتّقة من عنب الجنّة المجاورة لجحيم المشعوذ.. استسلم لدلالها ولسحرها.. رقّ قلبه بالرغم من أنّ جنس المردة لا يملكون في العادة أيّ ميل للنساء.. ففكّ عُقالها.. قفزت من بين قبضته الفظيعة وتسلّقت في حركة رشيقة خاطفة شجرة التفاح الواقفة منذ دهر في قلب جهنّم.. وراحت تنشد قصيدًا بعنوان «زهور جهنّم»...

وما أن أكملت إنشادها بصوتها الملائكي العذب وبلثغة جميلة في حلقها.. حتّى جرت الأنهار من بين أقدامها ماءً عذبًا سلسبيلًا.. ارتمت تسبح كسمكة عمرها ألف عام.. أغرَته بعرائها الفظيع.. لم يتمالك نفسه.. باغتها وأمسك بها بقبضته اليُسرى كمن يقبض على عصفور ضعيف.. وصاح بها: «هاتي ما وعدتِ به أيتها الأنثى الماكرة.. ما كان لك أن تعبثي بشهوة مارد من جهنّم».

ولمّا رأى شيطان أقحوانة ما رأى اغتاظ وأحسّ بكرامته في الميزان جمّع ما لديه من جسم هشّ واتّجه نحو المارد وخاطبه في غضب: «اتركها يا خزعبل.. أيّها المارد اللعين.. ما هكذا تُعامل

حسنوات الجحيم.. دَعْ لي هذا الجسد الجميل.. فأنا أدرى بشهواته وانحرافاته ونزواته.. أنا الشيطان الجميل الذي وحده يتقن جيّدًا سكنى الإناث من البشر.. أبعدوا شعوذاتكم وذنوبكم الكئيبة عن هذه الأجساد الجهنّمية.. أعيدوا إلى جهنّم براءتها.. أعيدوا إلى شجرة التفاح طفولتها الأولى».

وقبل أن يردّ المارد خزعبل على الشيطان شلولم، تدخّلت أقحوانة وقد سئِمَت من حماقات هذا الشيطان.. جذبته بقوة إلى داخلها.. دهسته جيّدًا بين أحشائها وقالت: «تبًّا لك أيّها الشيطان الماجن.. هذه القصّة ليست قصّتك.. وليس لك الحقّ في الدخول فيها.. عُدْ إلى قدرك ودَعْ الآخرين يتدبّرون معاركهم بحرِّية.. ما هكذا ينبغي عليك أن تقيم في الجحيم.. أنت لست كائنًا بما يكفي حتّى تشرّع لحياة المارد والملائكة.. ولا دخل لك في إناث البشر.. أنت مدعوّ هنا من أجل حكاية أخرى.. أنت كائن ناقص يا شلولم.. فالتصِقْ بأعضائي وأطِعْ ما تأمرك به.. وإلّا شطبتك من بيت زهور جهنّم..».

قاطعها في توتّر رجّ جسمها الهشّ وهزّ كيانها برمته: «بلى.. إنّ زمن الوصاية على الجحيم قد انتهى.. لا حقَّ لكِ بأن تستولي على مصير هذه المدينة من نار لوحدك.. ألم تسمعي أنّ كل الطغاة قد احترقوا بنار جهنّم؟».

أجابته: «دعنا من هذا الكلام العقيم.. وهيّا ننظّف أركان بيتنا جيّدًا قبل أن يجيء أبنائي فيسقطون في الحفر والقمامة التي تتناثر في كل ركن من أركان هذا المنزل العريق..».

يردّ عليها شلولم وقد تصالحا وصارا في جسم واحد:

«أنا الآن قد أدركت أنّ ههنا أخاديد ومنحدرات وتعاريج.. وأنّ في كل ركن من هذا الجحيم أوحالًا ومستنقعات وأدغالًا ومتاهات.. لكن ماذا بوسعي فعله يا زهرتي القديمة.. يا قدري العجوز.. ليس في مستطاعي أن أسوّي الأرض مهادًا وأن ألئم الجراح وأن أزيّن الواجهة.. فالخراب أكثر من طاقتي.. والهوّة أعمق من مهاوي الشياطين.. كيف السبيل إلى إصلاح حال هذا الجحيم؟ لست بالشيطان المناسب لجراحك يا أقحوانة.. ابحثي لك عن روح خيِّرة تغسل أركان روحك وتطهّر مدينتك من الجثث الناتنة ومن القمامة..».

قاطعته في حزن: «أتراك قد تخليت عنّي يا شيطاني الجميل.. أنت تخون حبًّا قديمًا عمُره من عمر الزهور.. لا يليق بشيطان مثلك أن تجرح الأقحوان وأنت ما أنت في معرفة سراديب الإناث ونزواتهم..».

أجاب في حسرة: «بلى.. إنّي أراكِ قد أصلحتِ من ذوقك كثيرًا بما لا يليق بمعاشرة الشياطين.. لقد صرت تبحثين عن الواحات والحدائق.. وتطبَّعتِ بطباع البشر الغيورين على أوطانهم وأبنائهم.. إنّ محبَّتك لمدينتك تفسد عليّ وجودي داخلك.. نحن الشياطين ليس لنا وطن.. بل لنا أجساد نسكنها وقلوب نفسدها ومدن نخربها.. هيّا معي نزرع العدم.. وإن رفضتِ فلا تستحقي بعدها معاشرة الشيطان شلولم..».

قاطعت خطابه قائلة: «اخرس أيّها الشيطان التافه.. لستَ قادرًا على الولوج إلى الأعماق.. سوف أسحب منك لقب الشيطنة وأرفع أمرك إلى سيّدك الشيطان الكبير».

انتصب شلولم واقفًا بقامة خيالية.. وذلك للمرّة الأولى التي سكن فيها جسدها.. ضحك ملء أفواهه السبعة،.. انتصب شخصًا متماسكَ الأعضاء بعيون حمراء... أحولًا ككلّ أزمان الجحيم.. أعرجًا ككلّ الآلهة الوثنية السارقة للنار.. ذي لحية طويلة تُخضّبها الحنّاء الجاهلية.. وفم موشّاة بالشعوذات.. وقال:

«بلى.. أيّتها الحمقاء.. لم يَعُدْ أيّ شيطان يخاف الشيطان الأكبر.. كم تجاوزتك أحداث الجحيم يا أقحوانة.. لقد أفرطت في حبّ الوطن. ما كان عليك أن تتمسّكي بالذود على قمامات المدينة.. اعلمي يا سيّدة الحلم أن لا سيّد لنا بعد اليوم.. ولا أحد في مستطاعه أن يخيف الشياطين الصغيرة.. ههنا جحيم الأحرار.. بشياطينه وملائكته وحورياته.. بأهل اليمين وأهل اليسار.. بعاهراتنا ومنقّباتنا.. كل مواخير جهنّم صالحة للعرس.. وكل معابدها صالحة للرقص.. لا أحد من الشياطين يقبل اليوم بالسجود بين أيادي البشر»...

تظاهرت بالشرود الذهني.. وتاه هو في عمق الجحيم يزرع الشرّ في كل مكان.. ويؤجّج نيران جهنّم...



رقص الأشباح...

«أين أنت يا جنيّة الجزيرة؟» فتحت عينيها بصعوبة.. كانت منهوكة القوى.. تُرى مَن يناديها في هذا الوقت المتأخر من الليل؟ أم هو مجرد نداء وهمي؟ لقد تعودت على مثل هذه الأصوات التي تصِلُ إلى سمعها على سبيل الخطأ.. فكم من نداء يوجّه إلى شخص آخر لكنّه يخطئ في الوصول إليه.. وكم من رسالة لم تصِلْ إلى أصحابها إلّا على نحوٍ متأخر.. وكم من قدر أخطأ الطريق..

رمقته بعينيها العسليتين.. وقد كحّل النعاس أهدابها.. فبدت رائعة الجمال بشعر أشقر بذَرته على كتفيها على نحو فوضويّ.. مدّ إليها يده.. قفزت في بهجة وغادرت السرير.. قصدا معًا شاطئ البحر الذي لم يكن يبعد عن منزلهما سوى بعض أمتار.. كان القمر في ليلته.. كاملًا لا ينافسه على السَّماء غير صفاء الحبّ الذي جمع بينهما.. والجزيرة هادئة.. لا تسمع غير بعض الصراصير وكلاب شاردة أصابها القرم على السمك..

كانت في الثامنة عشرة من العُمُر لمّا التقته في إحدى أيام الصيف.. كان صيّادًا يجرّب صنّارته لاقتناص السمك.. يومها قصدت البحر في ثوب السباحة.. دعاها إلى قاربه في جولة

خاطفة.. تمنّعت خوفًا من أبيها.. وحين أصرّ وافقت على المغامرة رغم أنّها تعرف الثمن.. أعجبها منذ أن رأته يركب الحافلة يوم الخميس الفارط.. فتى يافعًا في مقتبل الشباب.. أسمر اللون سميك الحاجبين.. طويل القامة..

انطلقَ القارب يشقّ البحر الهادئ في لطف كمن يداعب فتاته للمرّة الأولى..

دفع بها إلى البحر فطفقت تسبح.. أغرته بالالتحاق بها.. دخلا معًا في عناق الأمواج.. وهاجَ البحر وماجَ... احتضنها بين يديه كمن يخاف أن يخطفها منه القدر.. قال: «يا جنيّة الجزيرة لا تتركيني.. سأحيا بين جنبيك إلى الأبد..».

كانت الجزيرة تخفق بالحياة.. مراكب الصيد ترسو على ضفاف الشاطئ في أمان عجيب.. والأطفال يتسابقون على الارتماء في أحضان الموج في مرح وبهجة لا حدود لها.. أخذت حفنة رمل بين يديها وراحت تتأمّلها.. رأت فيها كلّ ماضيها وكل مستقبل هؤلاء الأطفال في جزيرة الحبّ والأخطبوط.. كانت الشمس توشك على الغروب.. تذكّرت فجأة صوت أمّها.. فزعت إلى ملابسها.. ودّعته وقفزت تسابق أقدامها رأسًا نحو البيت..

أحسّت بجوع شديد.. دخلت المطبخ.. ورائحة كسكسي شهي كانت تدغدغ معدتها.. كان الجميع يجلسون إلى المائدة وقد أقبلوا على الأكل بنَهَم.. كانوا يضحكون ويتبادلون الطرائف.. صاحت بأعلى صوتها: «ويحكم من جحودين.. ألا تدعونني إلى الطعام..؟» لا أحد أجابها.. لقد كانوا سعداء بما

لديهم.. اقتربت من الطاولة ومدّت يدها إلى قطعة لحم.. والتهمتها بسرعة فائقة.. قرّرت أن تنضمّ إليهم بشكلٍ جدّي رغم أنّ الجميع لم يعرها أدنى انتباه.. اتَّخذت لنفسها كرسيًّا شاغرًا بين ابنها الأكبر وطفلة صغيرة يبدو أنّها حفيدتها الأولى.. وأخذت في الأكل من كلِّ الأطباق وبشكلٍ عشوائي.. وواصل الجميع سعادتهم دون أن يلاحظوا حضورها..

فزعت من الأمر وقامت من مقعدها.. وصاحت في الجميع وقد خرجت عن طورها: «أيّها الآدميون البحريون لماذا لا تحفَلون بقدومي إليكم؟ ألم تتعرّفوا إليّ.. أنا أمّكم أقحوانة.. كم أكلتم من يديّ هاتين من الأطباق اللذيذة.. هل ينسى الإنسان مَن أهداه الحياة نفسها.. من دوني لم تكونوا لتجلسوا هنا ولم تكونوا لتأكلوا ولا لتضحكوا ولا حتى لتجحدوني.. غريب أمركم.. هل ينسى المرء أمّه التي أنجبته إلى الدنيا؟».. صمتت مبهوتة.. لا أحد يردّ عليها.. حينئذٍ ساورها الشكّ في أن تكون موجودة أصلًا.. يبدو أنّها لا تُرى ولا تُسمع.. فكيف دخلت المطبخ.. وكيف جاعت وكيف أكلت وكيف غضبت؟؟.

ضحك منها إلى حدّ النواجذ.. قال ساخرًا: «بلى يا حبيبتي فأنت موجودة وأنا أراك.. ويكفيك أن يعترف بوجودك شخص واحد كي تنعمي بنفسك.. لا تغضبي..» ردّت عليه: «ومَن تكون إذًا؟ أيّتها الروح التائهة.. وماذا فعلت بي في هذا الزمن الزئبقي؟»..

أجاب في تهكّم: «تعجبني حماقتك وغباؤك.. ألم تسمعي

ندائي إليك.. يا جنيّة الجزيرة؟».. قاطعته في فزع: «ويحك.. بل اعتقدت أنّك ناديتني على سبيل الاستعارة الأدبية.. فإذا أنتَ تقتلعني من المجاز السعيد وتزجّ بي في الحقيقة..».

استكملوا غداءهم.. وقفَت في ركن من الصالون ترمقهم في صمت وحسرة.. هاهي تراهم واحدًا واحدًا وتذكر جيّدًا أسماءهم وأعياد ميلادهم وتفاصيل أقدارهم.. لكن لا أحد يراها ولا أحد يشعر بوجودها.. ركح من القساوة ساقته إليها الأقدار مرّة أخرى.. كيف ستتدبّر هذا الوجود الشبحي.. كيف ستسكن روحًا ليست روحها؟ كيف تحيا في شكل جنيّة؟ هو ذا الوجود غير القابل للاحتمال من فرط خفّته.. أم هو العدم.. كم ستبقى معلّقة بين ضفّتين.. بين الاستعارة والتفاصيل.. بين الأمومة والمستحيل..

خطر ببالها فجأة حكاية سمعتها عن جدّتها عن جنّية سكنت حبيبها الأول الذي منعوها من الزواج به.. فسكنته جنيّة وتاهَ في الجزيرة لمدّة سنين.. ولا أحد يعرف مصيره.. وتعتقد جدّتها أنّه لن يموت لأنّ الجنيّة التي فيه سوف تجعل منه روحًا تائهة إلى الأبد.. كانت تتمنّى أن يموت مثل الآدميين.. وكانت تحلم بأن تلقاه يوم القيامة.. علّها تستأنف معها حياتها الأخرى.. لذلك هي تكثر من الصلاة.. قالت لها يومًا: «لمن دعواتك يا جدّتي».. أجابتها في حسرة: «له.. يا بنيّتي.. علّ الله يعيده إليّ في الآخرة..» «.. وهل يقدر على ذلك؟» أجابت «إنّه على كل شيء قدير».. وأجهشت بالبكاء.. احتضنتها بين يديها بحرارة.. وسألتها: «لماذا تبكين يا جدّتي.. أليس الله

على كلّ شيء قدير؟ تمسّكي بصلواتك.. واطمئنّي.. لذلك فقط يصلح الله في هذا الزمن الكارثي»..

أجابتها: «لكنّه يفضّل عدم التدخّل في شؤون الجنّ يا ابنتي.. وخاصة حينما تكون الجنيّة من جنس الإناث.. فالجنيّة التي سكنت حبيبي الأوّل من الشرسات الخطيرات جدًّا حتّى على الآلهة أنفسهم.. لا أمل في استعادته حتّى في الآخرة.. وذاك هو سبب تعاستي.. لا أحد بوسعه أن ينقذني من قدري..».

ردّت أقحوانة: «عليك أن تحبّي هذا القدر وأن تستقبليه بكلِّ فرح يا جدّتي.. فتعاسة البشر تكمن في عدم قدرتهم على محبّة أقدارهم.. إنّهم عاجزون عنِ التصالح مع الحياة لأنّهم مسكونون بالشجع والطمع.. كفاكِ نهمًا يا جدّتي.. تحبّين الدنيا والآخرة.. غريب أمر الإنس.. دعوا للجنّ قليلًا من أوهامكم حتّى يسعدوا مثلكم هم أيضًا.. حتّى وإن كانوا بلا أجسام.. لكم أجسامٌ بكل الأعضاء ولكم مشاعر بكل الأطياف ولكم آلامكم وأحزانكم وضحكاتكم وأعراسكم.. ولكم ثوراتكم وآلهتكم.. وليس للجنّ أيّ شيء غير الحكاية..».

قاطعتها الجدّة غاضبة: «كفاكِ هذرًا يا ابنتي.. هل تدافعين عن الجنّ؟ هل كفرت بالبشر إلى هذا الحدّ.. دعيني وقدري.. أعرف جيّدًا كيف أغازله»...

بكت الجدّة عميقًا يومها.. وبكت معها أقحوانة.. هاهي اليوم تعيش المصير نفسه.. هل كانت تتخيل آنذاك أنّها ستحيا في شبح جنيّة الجزيرة؟ هل أنّ دفاعها عن حياة

الجنّ يومها هو الذي كتب لها هذا القدر؟ سقطت في دوّامة الأسئلة القاتلة مرّة أخرى..

سقطت دمعة من عينيها.. على قاع الزربية المفروشة بعناية في الصالون الكبير.. ومن تلك الدمعة ظهر عليها للتوّ شبحٌ طويل القامة هزيل.. عليه آثار التعب الشديد والعطش المؤبّد.. حيّاها بإشارة لطيفة.. بادلته التحية.. اقترب منها.. رمقته بنظرة استغراب.. لم تتعرّف عليه، لكنّها أحسّت تجاهه بشعور غامض.. قال لها: «لقد أشفقتُ عليك يا أقحوانة من حياة الجنّ.. سعيد بأن تذكريني فأنا همّام الحبيب الأول لجدّتك خديجة.. ماتت دون أن تنعم بحبّي.. وجننت دون أن أخبرها بمصيري..».

فزعت من أمره.. أجابت: «وما الذي جاء بك إلى قدري؟ وأيّ الطرق تجمعنا؟ ولم يسبق لي أن رأيتك طيلة حياتي السابقة.. أنت مجرّد حكاية فما شأنك بكاتبة الحكاية وبمن قتلته الرواية وبمن مسخته الحروف شبحًا.. لا أحد يراني ولا أحد يأبه لوجودي.. بل حتّى أولادي تنكّروا لي.. لا أحد منهم شعر بأنّي هنا.. وأنّي أحتاج نظرة منهم فقط كي لا أسقط في العدم إلى ما لا نهاية».

قاطعها وقد أشفق عليها من دوار الأسئلة: «ستعتادين على قدرك الجديد.. لكنّك ستتعبين في البداية.. لا بأس عليك.. تمهلي قليلًا ويسّري على نفسك.. ما زلت يا ابنتي حديثة العهد بحياة الجنّ.. سوف ترين أنّها أفضل من حياة الآدميين الذين كَثُر كذبهم ونفاقهم وجحودهم وقعودهم عن

الحق وإسرافهم في إتيان الباطل.. هل تذكرين ما وقع لهذه الجزيرة؟ عاصفة هوجاء عصفت بها جعلت الأمواج تبتلعها بالكامل في رمشة عين.. كل مَن عليها غرق في أعماق بحرٍ لا ندري ما الذي جرى لأهل القرية.. لقد اندثر الجميع ولم تَبْقَ غير الأرواح التي تاهت عنها أجسامها..».

صمتت برهة من الزمن.. وشَردَت بنظرها عنه.. وبعد برهة.. امّحى مرّة واحدة كمن فسخه بجرّة قلم.. طوبى له.. وحدها الأشباح تتمتع بسرعة الحركة وخفّة الزوال والقدرة الجذرية على الحرية.. لا أحد ينتظره ولا ينتظر أيّ أحد.. ليس له أيّ واجب تجاه أي أحد ولا أيّ دين. لا ماضٍ يرهقه... ولا مستقبل ينتظره.. ولا حلم يغريه.. ولا ثورة تطالبه بالعودة من جديد.. لا ضغوط تدفعه إلى التملق والنفاق والعبودية.. ولا زوجة تطالبه بواجباته الزوجية.. ليس له أبناء كي يدفع تكاليف الدروس الخصوصية.. لكن ماذا ينفع الأشباح غير الحكايات القديمة.. وبعض مخاوف البشر؟.

«بابا.. بابا.. كفاك جلوسًا أمام التلفاز.. هيّا نلعب معًا بالكرة في الحديقة».

إنّها لؤلؤة.. كانت تنظر إليها عن قرب في متعة وبهجة بالغة.. تمنّت لو كان بوسعها احتضانها واللعب معها.. تمنّت لو تمنحها الآلهة فرصة وقتية لمداعبتها وقصّ بعض الحكايات عليها.. أيّ نوع من الآلهة ومهما كان جنسها وانتماؤها.. حتى وإن تعلّق الأمر ببقرة الهند المقدّسة أو بناقة ثمود.. أو حتّى بأصنام مكّة التي يصنعوها من الحلوى.. فرصة إضافية وحياة

مؤقتة وجسم بشري سريع التبخّر.. لكن كان في خيالها شرط وحيد.. وهو ضرورة أن يكون جسمًا جميلًا وعيونًا عسلية كعيون جنيّة الجزيرة..

وهاتفها هاتف من بعيد: «حذار يا أقحوانة من هذا الحلم البشري.. قد يصير كابوسًا لأنّ أصنام مكّة سريعًا ما تستجيب لأماني العرب.. وخاصة حينما تكون الحالمة امرأة. إنّهم يخبّئون أرواحهم بين أفخاذ النساء.. تراجعي عن حلمك هذا قبل أن تندمي.. لا أحد بوسعه أن يقمع شهوة الأشباح»..

جلست على الأريكة في قلب الصالون ترقب عن قرب حفيدتها الصغيرة.. طفلة تتّقد حيوية ونشاطًا.. على غاية من الجمال.. شقراء.. بعينين جذّابتين.. كم كانت تشبهها.. هاهي ترى فجأة نفسها في لؤلؤة.. وابتهجت أيّما ابتهاج.. هاهي حيّة مرّة أخرى. لا يهمّ بعد الآن إن صارت جنية أم إنسية.. في عداد الموتى أم في عداد الأحياء.. أو بين بين.. يكفيها أن تكون هنا وأن ترى هذه الطفلة التي انحدرت من سلالتها والتي تحمل دمائها وجيناتها العميقة..

لم تهدأ لؤلؤة وأخذت تشوّش على أبيها صفو استراحته أمام التلفزيون..

صاح بها في غضب: «هيّا.. دعيني يا ابنتي.. إنّي متعب جدًّا.. اذهبي والعبي مع أختك ياقوتة..».

لكنّها أصرّت على طلبها. وأخذت تجذبه من يديه قائلة في تهكّم: «هيّا يا أبي.. انهض من هذا الصالون الكئيب الذي يسجنك يوميًّا أمام هذه الشاشة اللعينة.. ودَعْكَ من التلفزيون

الذي يستبدل الحياة الجميلة بالأشباح الحزينة.. والصور الخادعة.. والموت الملفوف بالنصوص الباهتة.. أستحلفك يا أبي بذكرى أمّك إن كانت تعزّ عليك أن تلعب معي..».

فزعت من هذا الكلام وشعرت أنّها ماتت مرّات عديدة في خطاب حفيدتها. مرّة من فرط الندم على حياة ضيّعتها في شهوات الحروف مهملة بذلك بيتها وأبناءها.. وتذكّرت حينئذٍ كم كانت شرسة مع زعفران أكبرهم سنًّا الذي لم تلعب معه يومًا واحدًا.. لقد أوكلته بيد المربيّة منذ الشهر الأول من ولادته.. ومرّة من فرط الحسرة على عدم قدرتها على أخذ الحفيدة لؤلؤة بين أحضانها وتلبية رغبتها في اللعب في الحديقة.. ومرّة ثالثة وهي أكثرهم قتلًا لأنّ لؤلؤة كانت تستحلف أباها بمدى معزّة أمّه لديه. كانت تتمنى لو كان بوسعها الآن أن تعتني بأحفادها.. تحسّرت على ضياع حياتها اليومية هدرًا.. ضحكت من عبث الأقدار.. حين كانت لها حياة يومية سئمتها وحين فقدتها تمنّت يومًا واحدًا من حياة البشر كي تحضن أبناءها وتلعب معهم ولو للحظات خاطفة.. غريب أمرك يا أقحوانة تكرهين ما لديك وتتمنين ما ليس بوسعك.. أنت تشبهين البشر..

صمتت برهة.. وكانت لحظة انتظار عسيرة. أحسّت كأنّها الدهر.. هل سيستجيب زعفران لطلب لؤلؤة؟ أم سيرفض؟ ما مدى حبّه لك يا أقحوانة؟ وانهمرت عليها الأسئلة من كلّ صوب وحدب.. هل كنت أمًّا حقيقية حتى يحفظ أبناءك

ذكراك؟ هل لاعبتيهم بما يكفي حتّى يلاعبون أطفالهم بالمثل؟ هل أعطيتهم من حنانك حتّى يحفظوا قداستك؟.

تنهّد من الأعماق وردّ على ابنته: «لماذا تذكرين الموتى يا ابنتي؟ دعيها تستريح بسلام.. لم تكن أمًّا كفاية لكنّها.. هي أمّي التي أهدتني الحياة لقد.. ماتت دون أن تودِّع أحدًا.. لا أحد يعلم بماذا فكّرت لحظة رحيلها عنّا.. لأنّه لا أحد منّا قد شهد ذاك الرحيل»..

غادرت القاعة.. لم تكن لتتحمّل ذلك المشهد.. وتاهت روحها ثانية.. وسافرت نحو عالم قديم.. كان يطلب منها دومًا أن تخصِّص وقتًا لأبنائها.. وكانت تصيح في وجهه بأن يدعها وشأنها. تعلّلت بتعلّة الأدب.. وحاكمها باسم الرجل الشرقي.. افترقا لاستحالة اللقاء بين عالمين وكارثتين وحياتين..

ندمت من فرط حرصها على النجاح الشخصي.. وفشلت أُمًّا وزوجة.. نجحت شخصًا فصارت شبحًا.. هيهات يا أقحوانة لا ينفع البشر ندم الأشباح.. انهمرت الدموع من عينيها.. وفجأة لاحَ لها ثانية..

انتصب طيفه شفّافًا راقصًا في بهو المنزل.. أفزعتها قامته الفارغة وحركاته الغريبة.. همّت بالخروج بعيدًا.. لكنّه سدّ عليها الطريق.. لماذا يحاصرها؟ وماذا يريد منها؟ هل جاء من أجل التسلية أم من أجل العقاب أم من أجل التنكيل بها مرّة أخرى؟ أم تُراه رقّ قلبه واستعاد حبّه الأول وجاء يطلبها ثانية؟ لم يتكلّم.. لكنّه أومأ إليها بأن تتبعه إلى غرفة الأطفال.

طفلة صغيرة لا يتجاوز عمرها ثلاث سنوات تجلس على

زربية مزركشة بصور أناس لا تعرفهم.. وإلى جانبها تجلس لؤلؤة.. إنّها ياقوتة أصغر حفيدة لها..

عمّ يتفرّجان؟ وما الذي تحملانه بين أيديهما؟ اقتربت أكثر وشبحه يصاحبها. لقد أدركت الآن الحكاية.. إنّه ألبوم الصور العائلية..

قالت لؤلؤة: «انظري يا أختي.. هل هي جدّتي؟».

أجابت: «نعم... هي ذاتها. ألا ترين أنّها تشبهنا كثيرًا.. كانت تلقّب بجنية الجزيرة من فرط حيويتها وشراستها، لكنّها كانت تحبّ نفسها كثيرًا.. ولم تكن تلاعب أبناءها.. تعجبني جدّتي لأنّي حين أكبر سوف لن أهتمّ سوى بنفسي».

ردّت عليها: «وأنا لا تعجبني.. فأمّي تقول بأنّها كانت أنانية ومتغطرسة.. لا جدوى من الجدّات اللاتي لا تحكين الحكايات».

لم تتجرّأ على الكلام.. فطيفه ما زال واقفًا إلى جانبها يترصّد فشلها ثانية.. توقّفت لؤلؤة أمام صورة استثنائية في الألبوم.. كان وجهه مشوّه المعالم.. كثير من قطرات الدم الجافّة على أنفه.. وعين تالفة وأذن مقصوصة بالكامل.. فزعت الطفلة وراحت تصيح رعبًا: «لمن هذه الصورة يا أختي؟ ولماذا تلطّخ وجهه بالدم؟ هل هو من الأحياء أم من الأموات؟ هل من العائلة أم هو غريب؟».

هرع زعفران إلى غرفة البنات.. أسرع يفتكّ الألبوم من يديها.. وصاح بها: «من أين أتيت بهذا الألبوم أيّتها البنت الشقية؟ ألم أمنعك ألف مرّة من لمس أغراضي الشخصية؟».

أجابت في خوف: «لكنّها الصور العائلية يا أبي.. وليست العائلة من أغراضك الشخصية.. أخبرنا يا أبي لمن هذه الصورة المخضّبة بالدماء؟ ولماذا تضعون صور الموتى مع صور الأحياء؟».

قالت في نفسها.. «هدّئ من روعك يا بنيّ.. واحتضنهما واحكي لهما الحكاية».. تمنّت لو كان بإمكانه أن يسمعها.. إنّه ولد مطيع وابن بارّ.. فهو أحبّهم إلى قلبها..

ومن الصدف السعيدة أنّ لغة الأشباح أصابت الهدف هذه المرّة.. ابتسمت إليه.. بادلها نجم الابتسامة.. بدا لها جميلًا مثلما عرفته أوّل مرّة. فهمت أنّه بارك نجاحها مع ابنيهما..

جلس زعفران إلى جانب الطفلتين واحتضنهما وطفق يحكي الحكاية..

«إنّها قصّة طويلة يا لؤلؤة.. قصّتنا ليست عائلية ولا شخصية.. وإنّ الصورة التي عثرتم عليها قبل قليل هي صورة أخي الصغير حلمي.. لقد مات شهيدًا منذ زمن.. وأصرّت جدّتكم أن تحفظ صورة استشهاده ضمن الألبوم العائلي..».

قاطعته لؤلؤة: «شهيد؟ لم أفهم هذه الكلمة يا أبي.. ومَن قتله؟ ألا يجدر بنا أن نثأر له؟.. وهل كانت له زوجة؟ وأين أبناؤه؟».

تسمّرت في مكانها هلعًا من ذاك السؤال.. ليته يتقن الكذب هذه المرّة.. فالحقيقة لا تصلح للأطفال.. خاصة حينما تكون قاتلة. اقتربت منه وهمست «إيّاك وأن تخبرها بالحكاية يا

ولدي.. فهي لا تزال طريّة على حمل الجبال.. لا تَقُلْ لها أيّ شيء مغاير للحكاية التي رسمتها لكم..».

طلب منها أن تنسى الحكاية.. ووعدها بهدية جميلة مقابل ألّا تعود إلى هذا الأمر..

التفتت إليه وأومأت بأن يتبعها.. طارت روحاهما تحلّقان معًا في سماء الجزيرة.. تذكّرا معًا كلَّ ما حدث لهما في هذه الأمكنة التي تحمل كل قطعة أرضية منها ذكرى مخصوصة.. كانا يجلسان معًا على الشاطئ كلّ غروب يداعبان الرمل المتناثر كيفما اتفق على حافة البحر.. وتأتي أشعّة الشمس الآخذة في الأفول كي تحجبهما عن الأنظار.. وحين يسدل الليل ستاره على القرية.. يعانقها إلى حدّ جنون الظلام.. تسقط كلّ الأقنعة في كلّ مرّة وتسري الحياة في كلّ الجينات وترقص كل المشاعر الملفوفة بأخلاق هرمة يزيد عمرها عن ألف عام..

تعبت من التحليق.. حطّت روحها على صخرة واقفة منذ ولادة هذا البحر في قلب الأعماق.. وحيدة بلا زائرين.. هجرتها كل العصافير.. أشفقت عليها من طول السنين ومن كثرة مَن تداول عليها من الأمواج والعواصف والسفن والأسماك والقلوب العاشقة للمناظر الطبيعية الخلّابة.. أعجبه المكان.. حطّ إلى جانبها.. نظرت إليه نظرة عابرة.. ابتسم مستبشرًا.. كان يتمنّى لو كان له جسم لاحتضنها حنينًا وعشقًا.. حدّق فيها مليًّا.. ارتسمت كل صورتها الأولى بمعالم جمالها البشري. لماذا فارقها؟ هل كانت تهمة الأدب كافية

لمعاقبتها هذا الكائن الجميل؟ كان أحمقًا.. وكان رجلًا... وانتصرت عُقده وأوهامه على عشقه وحلمه.. انتصر فيه الأب القديم وفشل الحبيب اليافع العاشق للترحّل عشقًا للحياة...

قالت: «إنّي أشفق على ولدنا زعفران من تلك الحكاية.. كيف السبيل إلى لأْمِ الجراح القديمة والانتصار على القدر؟».

أجابها: «عليه أن يصدّق تلك الكذبة إلى النهاية».

صمتت.. لأنّها هي من تفنَّن في صناعة الكذبة التي جعلت زعفران أبًا لياقوتة ولؤلؤة.. وجعلت حلمي شهيدًا للوطن... لكنّها اشفقت على البنتين الصغيرتين. إلى أيّ حدٍّ ستصمد تلك الكذبة المأسوية؟.. وهل ستغفر لها البنتان هذا القدر المصطنع؟ كذبت على نفسها حين كانت في الحياة.. فضّلت صناعة العوالم الكاذبة والحروف، على حياة حقيقية.. خسرت زوجها.. وهاهي تخسر أبناءها.. إنّها تبالغ دومًا في التدخّل في قدر الآخرين إلى حدّ المأساة.. لماذا زوّجته ياسمين زوجة أخيه غصبًا عليه؟ لماذا أخفت على البنتين حقيقة الخبر؟.

هو استشهد لأنّه آمن بالوطن.. لكنّ الوطن صار بعد استشهاده كذبة مأسوية.. واضطرّت أمّه للكذب حماية لابنتيه من كارثة اليتم. وصدّقتا أنّ أباهما هو زعفران لأنّهما لا يعرفان عن أبيهما الحقيقي حلمي. غير تلك الصورة الملطخة بدمائه... فلا هو ظفر بصدق الوطن ولا هو تمتَّع بصدق أبوّته.. وحين مات تزوّج أخوه بزوجته حفظًا لأثره ولابنتيه ولعائلته.. خسر الوطن والحبيبة والأبناء والزمن.. أيّ قدر لك يا بنيّ؟..

قاطعها نجم قائلًا: «ويحك يا أقحوانة.. ما زلت أمًّا. وما

زلت تحملين وعيًا تعيسًا. لن تكوني شبحًا تمامًا.. ستظلّين معلّقة بين الأمومة الفاشلة والجنية الكئيبة.. هيّا حبيبتي نحلّق بعيدًا عن الماضي.. انزعي عنك التعاسة وارقصي عاليًا حذو السحاب».

ردّت عليه في غضب: «حقيقي أنت أيّها الشبح.. حقيقي إلى حدّ الموت.. وأراكَ تفتخر بهذه الحقيقة.. فما الذي يجعلك فرحًا بموتك إلى هذا الحدّ.. لمن تفرح وعلى من توزّع بسماتك.. كل من حولك ميّت مثلك.. وكل من يراك من الأحياء سيموت.. وثمّة منهم من هو حيّ ميّت معًا..».

صاح بها: «اخرسي أيّتها الجنيّة الشمطاء.. أيّتها الروح الكئيبة.. أنت لا تستحقّين حتّى أن تكوني روحًا.. لأنّ في الروح محبّة وفي المحبّة فرح ومرح ونزق ومجون.. أنت لست حتّى جنيّة.. لأنّ الجنّ لا يأبه بتعاسات البشر وانفعالاتهم.. تدرّبي على النسيان أكثر وإلّا زجّ بك أهل السَّماء في زمرة مَن لا روح لهم ولا بدن ولا شبح أصلًا.. أحبّي قدرك يا أقحوانة وهيّا نطير مع عصافير الجزيرة».

واحتدّ الخصام بين الشبحين.. قالت في توتّر: «أنت لست سوى كذبة لا قدرة لها حتّى على الانتصاب».

ردّ عليها: «وأنت ضجيج.. خلط وتشويش وتهريج».

قالت: «أنت زئبق قاتل».

قال: «وأنت بهرج بلا محبّين».

قالت: «وأنت مسرح هاجره المتفرجون».

ردّ عليها: «وأنتِ ركحٌ بلا ممثّلين»...

وتعالت ضحكاتهما إلى حدّ صار فيه الواحد منهما بالكاد يتماسك في وقفته قبالة الآخر.. وتشوّشت الصورة على الجميع.. وتعطّل التحديق والتعليق لسوء التصوير.. كانا يظهران لثوانٍ معدودات ويتبخّران للحظات.. وقد يكونا قد دخلا في عناق طويل.. وأسدلا الستار على ما حلّل الله للأشباح وما حرّم على البشر..

وفجأة.. صاحت به مذعورة: «انظر.. إلى تلك الجهة من الحديقة.. انظر من يمرّ من هذا المكان؟ ألا تتذكّرها يا نجم.. إنّها العقربة الشقراء الصغيرة التي اندسّت بيننا منذ زمن طويل.. هاهي تكبر وينضج سمّها.. ماذا سنفعل بها الآن بعد كلّ ما فعلته بنا من نثر ومسخ وجنون ومجون بين جنبَي الحكاية؟».

انقضّ عليها بشبحه الطويل.. نفخ على جسمها المتعجّل بنار المارد الأسود.. تفحّمت لتوّها...

لملمت شظايا روحها وطارت معه فوق الجزيرة.. كان النهار جميلًا وهادئًا.. وعصافير النورس تغنّي أغنيات الخلود.. وكان الميناء يعجّ بالقوارب الشرعية الراسية في كبرياء.. وأطفال القرية يسبحون ويمرحون مع الأمواج.. ساورها إحساس غريب.. شعرت بروح جديدة تقترب منها..

كان ينشد قصيدة لفتت انتباهها.. طوفان من الحلوى..

إنّه حلمي.. غادرها بشحمه ولحمه.. وهاهو يعود إليها بروحه التائهة.. حدّقت في ظلّه المرتعش بين السحاب والضباب.. قالت: «ها أنت يا ولدي.. لم أكن أحلم بهذا

اليوم البهيج» ضحك وقال: «كلّ أيّام الموتى بهيجة يا أمّي.. صدق أبي حين قال بأنّك لم تنجحي في أن تكوني شبحًا حقيقيًّا.. فالأشباح لا تحلم بشيء.. ولا تندم على أيّ شيء ولا تحزن مهما كانت الأسباب..».

لم تجِبْه.. ليس هو حلمي الذي تعرفه.. لقد غيّرته الموت كثيرًا.. والأرجح أنّ الشهيد لا يهتمّ بأخبار مَن ماتوا بشكلٍ أحمق.. تبخّر في الفضاء الفسيح وعادت أدراجها إلى منزل زعفران حيث حفيدتيها الجميلتين.. أمّا هو فقد كان يتبعها أملًا في استعادة جسمها وشبقها وشهوتها..

قاطعته بشهوة الشعر:

كيف أمضي في غيابي

كيف أمشي في رمادي؟

كيف أفتكّ خطاي من خطاك؟

أنت.. دهر من الأقحوان

ودخان يتسرّب إلى سراديب روحي

يا مدى الألوان..

يا أفقًا هاجرته الشمس إلى غسق

يعانق الأرجوان...».

التقيا في حديقة المنزل تحت شجرة التفّاح.. شجرة ضخمة طالت بها الأعوام وهي منتصبة هاهنا بعروق من طين.. وراء هذه التفّاحة قصّة طويلة.. هي مَن غرسها في هذا المكان.. كانت عودًا صغيرًا نحيلًا بأوراق هشّة.. كانت تسقيها وتحفر الأرض بين ساقيها وتقبّل ثمارها كل عام.. وفي المقابل

صارت تحضنهما تحت أغصانها كل ليلة ربيعية في مشهد إيروسي تختلط فيه شهوة الحسّ بشهوة العقل.. نقاشات فلسفية دارت هنا بين أقحوانة ونجم على أشدّها بين الإيمان والإلحاد.. بين العدمية والتأويلية.. بين الرومنسية والفوضوية.. كانت زهرة بريّة وكان من سكّان الجبال، شماليًّا متوهجًا بأشواك العرعار والإكليل..

وفي غفلة من الأدب ومن منطق الرواية.. تسلّل خلسة بين أنامل جسدها.. وغابا عن العقل وعن القلم برهة من الزمن لا قدرة لعقارب الوقت على ضبطها.. انفلات أدبي وانفلات أخلاقي.. سكنته جنية الجزيرة بين اللحم واللحم.. فلم يجد أيّ حلّ غير الغرق للحظات في شهوة البشر..

استيقظت روحها فجأة.. دفعت بما تبقّى منه بين شفتيها بعيدًا عن شبحها الواقف في كبرياء وعناد كأن شيئًا لم يكن.. صاحت به: «ويحك.. أيّها المستهتر بكل النواميس والقيم.. حين كنت في الحياة خرجت من جلدك وصرت شيوعيًّا.. وحين أصبحت في الممات خرجت من شبحك فصرت ماجنًا مستهترًا بقيم الموتى وهالتهم المقدّسة.. ويحك فالموتى لا ينكحون؟ ماذا فعلت بنا؟ إلى أيّ عدم سيدفعون بنا هذه المرّة؟».

رنّ جرس الهاتف.. أسرعت لؤلؤة تجيب في فرح.. لقد كانت تظنّ أنّ أباها يُهاتفها في شأن اللعبة التي وعدها بها.. رفعت السمّاعة فاجأها صوت غريب: «هل هذا بيت السيّد زعفران وزوجته ياسمين؟» أجابت: «نعم وأنا ابنتهما لؤلؤة..» ردّ عليها: «أطلب منك أن تبلغيهما الرسالة التالية: لقد حكموا

على السيدة ياسمين حرم زعفران فتحي بالسجن ستّة سنوات مع غرامة بخمسة آلاف دينار..».

فزعت البنت من هذا الخبر.. وسقطت السمّاعة من يدها.. اقتربت أقحوانة من الهاتف وصاحت فيه بأعلى صوتها: «وما تهمتها حتى تحكمون عليها بهذا الحكم الظالم؟».

واصل الهاتف الرسالة غير مكترث بها: «إنّها متهمة بالثلب في السُّلط الرسمية وبالتلاعب بمشاعر الأشباح والمسّ من حرمة الموتى والتجرّؤ على نكاح الجنّ»..

ضحكت من سخافة الخبر لأنّها تعلم سلفًا بأنّهم ألغوا هذا الحكم بعد أن علموا أنّ ياسمين ماتت منذ زمان.. وعليه فقد صار من حقّها أن تكتب عن الأشباح وأن تنكّل بهم وأن يتبادل الموتى والأشباح آداب النكاح دون أيّ إحراج قانوني أو أخلاقي..

صاعقة أرجوانية سقطت فجأة على قصر الملك.. مات الطاغية ومعه المارد الأسود.. أينعت أقحوانة من جديد فراحت تبذُر عطرها يمنة ويسرة على قلوب العاشقين.. وصارت الفراشات مدمنة على الرحيق.. سال العسل على شفاه الزهور.. غارَ ذكور الجزيرة على أقحوانة من ذكور الفراشات.. احتدّت المعارك بين كل الرجال من نبات وبشر... احمرّت وجنتاها خجلًا من كلّ ما فعلت طيلة زمن الحكاية من مجون.. داعبت القلم بلطف.. قبّلت كلّ أوراقها المتوهّجة حبًّا للعطور.. صاح بها دعاة الأخلاق الكئيبة «..أن ادهسوها.. ما هكذا تكون الزهور»..

ابتسمت وهمست.. «أبعدوا عنّي العناكيب القديمة».. لن تندم أقحوانة على الجنون... وهكذا تكاثر الأقحوان بشكل مذهل في كل بساتين الجزيرة... أمّا ياسمين فقد صارت اسمًا لوطن كبير يصلح للرقص وللحلم.. كان عرسًا يومئذٍ طالَ قرونًا من عمر الزهور...



جرحى السَّماء..

عادت بعد رحيلها ألف مرّة..

وفي عينيها روح أثقلتها أسئلة من حجر..

وتنسى..

أنّها لم ترحل تمامًا..

وتنسى أنّها صارت قدرًا..

وتنسى أنّها صارت ضبابًا..

وتنسى أنّها صارت زهرًا..

وأن لا أحد سيذكر السكّر المُرّ

في ضوء القمر..

لم ترحل تمامًا..

وتنسى أنّها ماتت قليلًا..

وأنّ موتًا قليلًا لا يساوي سنبلة...

وينسى

أنّها لن تسافر إلى المستحيل

لأنّها لم تتقن الموت
بقدر أوجاع الوطن..
كيف ننجو من بصماتها
في يدينا..
كيف ننجو من رقص الأكاذيب
على روح تمتنع عن السفر..
كيف ننجو من شارع منعوه
من البكاء على نهار دهسوه برصاصات الدول؟
كيف ننجو من الريح التي هبّت يومها
بلا رخصة شرعية..
جاءت تعانقنا على عجل..
كيف ننجو من عينيها الفاغرة
تحت الثرى
حين يبكي الثرى..
وترقص الأحزاب في سراديب
النُّزل..؟
يا جرحى السَّماء..
أين السَّماء؟
أم زيّفوا لونها كما زيّفوا لون الدماء؟
يا جرحى السَّماء..

أين السَّماء؟

هاتوا السَّماء..

أسقطوها حتى لا يبكي الثرى..

غلّقوها كي تمرّوا بسلام

الى عمق المدى...

انتهى

* * *

الكتاب

توقّفت عن القصيد المباح، لأنّ عقربة صغيرة صفراء اللون دبّت بقربها تحثّ الخطى نحو جسم طريّ، همّت بدهسها، لكنّها لم تجد حجرًا مستعدًّا لمحاربة عقارب الجزر.. قالت للرواية: «دعيها.. تدبّ داخل أركانك.. نحتاج إلى سمّها كلّما داهمنا شبح الحاكم العربي الراحل،.. دعيها تكبر فيك، ما زال سمّها غير ناضج لإنجاح الديمقراطية في هذي الصحاري الخالية من البشر...». وتاهت على وجهها ثانية تبحث عن البحر.. قالوا إنّه سينضب بعد صلاة العصر، ويعود إلى المدّ بين المغرب والعشاء.

جلست على حافة البحر تصافحه بيديها كلتيهما، ها هي تعود من غياب طويل، وهي لا تعرف كم من الأعوام مضت،.. ولا تدري أيضًا إن كان هذا الزمان يتّسع للرواية.. سمعت هاتفًا من بعيد: «هيّا.. أسرعي.. واقطفي هذا النهار... لا تدعي الشمس تُسرَق ثانية من هذه الجزيرة»...


ISBN 978-614-418-134-8

